

أساسيات اللغة

tree free singer finger hair
buck book air
col caught pour
poor

تأليف: ر. ل. تراسك

ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف

المشروع القومي للترجمة

أساسيات اللغة

تأليف : ر . ل . قراسك

ترجمة : رانيا إبراهيم يوسف



٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٢٨١

- أساسيات اللغة

- ر . ل . تراسك

- رانيا إبراهيم يوسف

- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

LANGUAGE : The Basics

تأليف : R. L. Trask

صادر عن : ROUTLEDGE

1999

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onbox. com

المحتويات

11 مقدمة المؤلف
13 الفصل الأول : تفرد اللغة البشرية
14 ثنائية التتميط
17 اللاحضور والنهايات المفتوحة
21 الحرية المشروطة
22 التوفيقية
25 الجهاز الصوتي
29 الشعبانزي يشير
33 الفصل الثاني : الأساس النحوي
 نظرة أولية إلى قواعد اللغة الإنجليزية
37 قاعدة نحوية إنجليزية
40 قاعدة أخرى
43 الفصائل النحوية
46 فصيلة العدد
48 النوع
53 الفصل الثالث : اللغة والمعنى
53 صعوبة تعريف الكلمات
59 معاني الكلمات وتعريف المفردات اللغوية
64 المعنى وعلم النحو
69 المعنى والعلم
77 اللغة والسياق

83	الفصل الرابع : تنوع اللغة
83	التنوع الجغرافي
87	أنواع أخرى من التنوعات
89	دراسة التنوعات
96	اللغة والهوية
98	اللغة والنوع والجنس
101	الحياة باستخدام لغتين
105	الفصل الخامس : تغير اللغة
106	اللغة الإنجليزية منذ ألف عام
111	إنها كلمة ظريفة هل تمنع في اقترابها ؟
119	لا ينطق الصوت "H" في أغلب كلامنا
126	من أين أتت اللغة الإنجليزية ؟
133	الفصل السادس : اللغة والعقل والمخ
133	مخ تالف ، كلام مضطرب
139	اليسار مقابل اليمين
145	النفس المقسمة
147	أشياء مضحكة والسنة
150	ما لون اسمي ؟
153	الفصل السابع : الأطفال واللغة
154	ما لاحظناه
157	نظرة أكثر قرأ
159	لماذا يحدث ذلك ؟
161	البحث عن اللغة
164	هل هناك سن معينة يتوقف عندها اكتساب اللغة ؟
166	هل تتواجد اللغة في جيناتنا ؟

171 الفصل الثامن : اتجاهات حول اللغة
171 هل من الممكن أن تكون اللغة لا أخلاقية ؟
176 ماذا يحدث للفتنة ؟
179 التنقية اللغوية
183 الطريقة المثلى للحديث
190 اللغة والهوية : تكرار

فائمة الأشكال

19	(١-١) التحل الراقص
20	(٢-١) الرقصات التي ترشد التحل الشغالة إلى ثلاثة أماكن الغذاء آ ، ب ، ج ..
26	(٣-١) الجهاز الصوتي للإنسان
27	(٤-١) الجهاز الصوتي للشمبانزي
90	(١-٤) الكلمات الدالة على "قناة" بإنجلترا
92	(٢-٤) الكلمات الدالة على "اليغسوب" في شرق الولايات المتحدة الأمريكية ..
94	(٣-٤) معدلات استخدام الشكل In - بمدينة النرويش الإنجليزية
123	(١-٥) مناطق إنجلترا التي ينطق بها الصوت "H"
129	(٢-٥) شجرة عائلة اللغة Ingvaonic
130	(٣-٥) شجرة عائلة اللغات الجرمانية
138	(١-٦) النصف الأيسر للمخ
140	(٢-٦) اختبار لنصف المخ الأيمن

تقديم

يهدف هذا الكتاب إلى إثارة انتباه القارئ إلى موضوع اللغة البشرية ، تلك السمة الفريدة التي تميزنا كبشر ، يعد هذا الموضوع - من وجهة نظري - من أجدر الموضوعات التي يجب أن نوليها اهتمامنا ، ولذلك فإنتى أمل أن أقتنعك بأهميته ، بل أحفزك على التطرق إلى مزيد من القراءات في الأمر ذاته .

لقد تم اختيار ثمانية جوانب مختلفة لدراسة اللغة ، وعرضت الاكتشافات القديمة والحديثة التي قام بها دارسو تلك الجوانب ، كل في تخصصه ، تمت بعض هذه الاكتشافات منذ عقود عدة ، ولكن كان أغلبها اكتشافات حديثة ، بل حديثة للغاية حتى إنه من الصعب إيجاد ذكر عنها في كتب أخرى .

عند قراءتك لهذا الكتاب ستعرف الأسباب التي تجعل من اللغة البشرية لغة فريدة ، وستكتشف أنك تعرف الكثير من قواعد اللغة الإنجليزية دون وعى منك بذلك ؛ لأنك - لسبب بسيط - لا تعرف الطريقة التي تصاغ بها تلك القواعد ، كما ستعى أن اللغة الإنجليزية يتم تحديثها بطرق مختلفة في أماكن مختلفة ، بل في نطاق المكان الواحد يتباين نطقها من شخص إلى آخر ، إنك ستدرك أن اللغة تتغير سريعاً ومن وقت إلى آخر وسيظهر لك أسباب هذا التغير وما يترتب عليه من نتائج ، وستأكد تماماً من أن اللغة الإنجليزية توافقة إلى اقتراض الكلمات من لغات عدة ، وستشاهد حرباً من الحروب الضارية ، تلك التي قامت بشأن الصوت "H" ، وسترجع بالزمن لتعرف أصل اللغة الإنجليزية ، كما ستدرك علاقة المخ باللغة ومدى تأثيره عليها إذا ما أصابه عطب أو تلف ما ، وستتعرف على أصناف من البشر لا يمكنهم التعرف على أنفسهم إذا ما شاهدوا صورهم الفوتوغرافية ، وأصناف أخرى يصفون رائحة العشب بأنها قرمزية ، كما ستعرف المراحل التي يمر بها الطفل في ركاب تعلمه للغة ، وتعرف مدى تأثير ظروف النشأة غير الطبيعية لبعض الأطفال على اكتسابهم للغة ، ومدى تأثير الجينات في ذلك الاكتساب .

عند انتهائك من الكتاب ستكون قد عرفت شيئاً عن لغة الحماة الأسترالية ، عن الإجراءات الغريبة التي قام بها الترويجيون من أجل لغتهم ، وستدرك سبب اختلاف

السبب عن المحامي ، وسنعي حقيقة الكلمة تلج في لغة شعب الإسكيمو ، كما أنك ستتمكن من التعبير عن معان غير موجودة ، وستجد أنه من المستحيل طرح بعض الأسئلة باللغة الإنجليزية ، كما ستكتشف أنه من الممكن للكلمة عابية مثل "معرضة" أن تحدث ضجة غير عابية في إحدى المناسبات العامة .

أخيراً ، نود أن أنوه إلى أنني أضفت بعض الحواشي التي تفيد في شرح بعض المعاني التي قد يجد القارئ صعوبة في تفسيرها ، وأرجو أن يستمتع كل القراء بهذا الكتاب كما استمتعت بقراءته وترجمته .

المتريجة

مقدمة المؤلف

ما الذى يجعل من اللغة البشرية ظاهرة فريدة فى نوعها ؟
هل يتحدث النساء بطريقة مغايرة لتلك التى يتحدث بها الرجال ؟
تري ما معنى "المعنى" ؟

هل هناك أشكال للإنجليزية أفضل من غيرها ؟

ما الوظيفة التى يقوم بها اللغويون تحديداً ؟

يقدم كتاب "أساسيات اللغة" عرضاً لموضوع اللغة ، فهو يمد الدارسين والقراء بمعلومات أولية - لا تخلو من كونها أساسية - عن اللغة ، إنه بأسلوبه الشيق الممتع يعرض الموضوعات فى عجالة ويقف وقفة طويلة ليركز على تفسير المصطلحات اللغوية الأساسية .

يحفز كتاب "أساسيات اللغة" القارئ على التفكير فى أمر اللغة ويدفعه لأن يعيد النظر فى الأخطاء الشائعة التى درج عليها متحدثو اللغة ، ومن هنا يمكنه معرفة الوظيفة التى يقوم بها اللغويون أو علماء اللغة ، يصلح هذا الكتاب لكل الدارسين فى المدارس والمعاهد والجامعات ، كما أنه مقتنى ضرورى لكل فرد يتهمه الآخرون باستخدام المصدر المنشط .

الفصل الأول

تفرد اللغة البشرية

إذا سُئِلت عن الصفة التي تميز البشر بشكل قاطع عن سائر الحيوانات على كوكب الأرض، ماذا ستكون إجابتك؟ الصب؟ أم الحرب؟ أم العن والموسيقا؟ أم التكنولوجيا؟ ربما تكون إحدى هذه الخيارات هي الإجابة، لكن معظم الناس الذين يمعنون النظر في هذا السؤال يتّون بإجابة واحدة، وهي اللغة.

تعد اللغة الإنسانية السمة الوحيدة الأكثر تمييزاً لنا كبشر، وهذا ما سوف نحاول إثباته فيما بعد، إن ملكة اللغة التي عادة ما نأخذها كقصية مسلم بها تحوى عدداً من الخصائص الملحوظة بل المدهشة، فدون اللغة كان من الصعب علينا خلق العالم الإنساني المتعارف عليه، إذ إن تقمنا في كل شيء بدءاً من الموسيقى وانتهاء بالحروب كان يصعب تحقيقه في غياب اللغة، تلك الخاصية العريضة التي تجعل منا بشراً.

قد يبدو هذا التفرد غير واضح منذ الوهلة الأولى، فكل مخلوق تقريباً على وجه الأرض لديه نوع ما من نظام الإشارة، إنها طريقة تمكنه من التواصل مع أفراد فصيلته وكذا أفراد الفصائل الأخرى، فالصراخير تسقسق والطيور تغرد والقردة ترفق وحشرات الليل تومض وحتى السم يترك أثراً ذات رائحة حتى يضمنى لجماعته اتباع بعضها بعضاً، ولاشك أنك مقتنع بتواجد بعض الإشارات والإيماءات الخاصة بقططك ولتى تعنى "أنا جوعان" أو "أريد الخروج"، علاوة على ذلك، كشفت الدراسات الحديثة لعلماء الحيوان عن كون النظام الإشاري أكثر من شيق، وهذا ما يفوق المتعارف عليه، فعلى سبيل المثال قد يتطرق إلى أسماعك الآن أن فصيلة معينة من الحيتان مشهورة بأنها تغنى أو أن التحل يؤدي رقصات معينة تعلن عن مكان تواجد لرهيق لأفراد الفصيلة.

إن المدخل إلى مثل هذه الاكتشافات هو الحقيقة الفاتكة بأن اللغة البشرية مختلفة تمام الاختلاف عن كل الأنظمة الإشارية، مما يضطرنا إلى معاملتها كشيء مختلف، كظاهرة هريدة حقاً

سوف نحاول من خلال هذا الكتاب شرح بعض الأشياء المدهلة التي اكتشفناها بشأن اللغة ، وسنبداً ببعض الخصائص الأساسية والتي تُعرف هي كثير من الأحوال بالخصائص الشكلية للغة، وهي تلعب دوراً حيوياً في وجود اللغة.

ثنائية التتميط :

يعد الكلام الوسيلة الطبيعية للتعبير عن اللغة لدى جميع الناس معظم الوقت، فكيف نتكلم ؟ إنه شيء يسير ، نسمع لهواء الرئتين بالزور عبر أفواهنا وفي ذات الوقت نحرك أفواهنا بطرق مختلفة من أجل إحداث أصوات الكلام الصامتة والصانئة، يتكون كل مقطع نطقه من تتابع أصوات الكلام الواحد تلو الآخر، هنا يبرز سؤال مهم كم يبلغ عدد أصوات الكلام المختلفة التي يمكنك إحداثها ؟ أي الأصوات المتباينة بدرجة كافية لتجعل الشخص الذي نتحدث إليه لا ييذل جهداً في تمييزها، لا توجد إجابة شافية كافية لهذا السؤال فهي تعتمد على مدى الاختلاف الذي تريد إظهاره ، ومع ذلك فالعدد ليس كبيراً بالضرورة، فإذا لم تكن قد حصلت على تدريب متخصص في علم الصوتيات (علم دراسة أصوات الكلام) ستجد أنه من الصعب إحداث عدد مائة من الأصوات المفردة المختلفة (تذكر أننا نتحدث عن الأصوات المفردة لا عن تتابع لأصوات)، وفي الحقيقة تشتمل كل لغة بشرية على عدد أقل من هذا بكثير، وفيما يلي سنلقي نظرة على اللغة الإنجليزية.

سنأخذ كلمة قطة "cat" كمثال، كم صوتاً تشتمل عليه هذه الكلمة ؟ إنها تتكون من ثلاثة أصوات ، صوت k، صوت t، صوت e، لكل صوت من هذه الأصوات رمز معين /k/، /t/، /e/ على الترتيب ، نستخدم القاطع المستطيل لتوضيح أننا نتحدث عن أصوات محددة للغة بعينها وهي هنا اللغة الإنجليزية، ويطلق على هذه الأصوات المحددة فونيمات^(١) اللغة ، لذا طبقاً لفونيمات اللغة الإنجليزية فكل كلمة cat يمرر لها /kæt/.

إذا سألك شخص ما عن معنى كلمة /kæt/ فإنيك لن تجد أنني معوية في الإجابة، ولكن افترض أن السؤال كان هذه المرة عن معنى الفونيم /k/، ستكون الإجابة مستحيلة لأن الفونيم /k/ ليس له معنى في الإنجليزية وكذلك باقي الفونيمات.

(١) الفونيم أصغر وحدة صوتية يمكن فصلها عن الكلام المسروع

هناك شيء آخر عليك ملاحظته وهو إمكانية إعادة ترتيب تلك الفونيمات العديدة المعنى من أجل إنتاج كلمات مختلفة ، بمعنى مختلفة ، فالترتيب /ækt/ يعطي كلمة tack (مسند صغير) بينما /ækt/ يعطي act (يمثل)، و /ækt/ يعطي at (حرف الجر في، إلى، على، من)، و /ækt/ يعطي tact (براعة) و tacked (يُلحق). (لاحظ أن كلمتي tact، tacked لهما نفس النطق عند معظم متحدثي الإنجليزية بالرغم من اختلاف حرومهما وتركيباتهما).

لنصف قريبا آخر لمجموعتنا وهو صوت p أو /p/ ، ويمكننا باستخدامه تكوين الكلمات pat/pet (يصرب بلطف)، tap/tap (إمدادة)، pack/pack (مرة)، cap/cap (غطاء الرأس)، pact/pact (ميثاق) أو packed (ملا)، tapped/tapped (يقرع)، apt (فطِن)، capped/capped (يفطِن) وغيرها.

يمكنك ملاحظة ما يحدث إمكانية إنتاج عدد كبير من الكلمات المختلفة ذات المعنى عن طريق تجميع عدد قليل للغاية من الأصوات العديدة المعنى بطرق مختلفة، يسمى هذا النوع من التركيب "ثنائية التسميط" أو "الثانية" مراعاة للاختصار، ونجد أن كل اللغات البشرية تتكون بهذه الطريقة ، إذن فالثنائية هي استخدام عدد قليل من العناصر العديدة المعنى من أجل إنتاج عدد هائل من العناصر ذات المعنى.

لماذا، يمتلك هذا النوع من التركيب مثل هذه الأهمية القصوى ؟ لكي تتعرف على الإجابة، تخيل البديل ، أي افترض عدم وجود هذه الأصوات عديمة المعنى ليكون لكل صوت مفرد معنى قائم بذاته، ماذا ستكون النتيجة ؟ إنه شيء واضح، سيصبح عدد المعاني المختلفة التي نستطيع أن نعبر عنها أقل من عدد الأصوات المختلفة التي نصدرها، وطبقا لما رأيناه سوف لا يتسنى لنا إصدار أكثر من مائة صوت مختلف وبالتالي ستكون النتيجة لغة محتوية على مائة كلمة تقريبا، هذه هي الطامة الكبرى . تخيل اللغة الإنجليزية وهي لا تحتوي على أكثر من مائة صوت ، إنه ليس ببعيد - يمتلك هذا العدد المحدود من الكلمات - أن نفقد القدرة على فعل أغلب الأشياء التي نفعلها باستخدام اللغة الإنجليزية . سوف لا نستطيع شرح ما حدث لسيارتنا من عطل ولا نتذكر من سرد حكايات عن الأرانب والأقزام لأطفالنا كما أننا لن نستطيع تنظيم لاسحات ولا مناقشة الإنفاقيات ولا التأثير على شخص ما باستخدام ما هو ساحر من الكلمات ، وهرق هذا وذاك سوف لا يتمكن من تأليف كتب عن اللغة.

قد تتساءل عند هذه المرحلة ماذا بعد ذلك ؟ لماذا نصنع كل هذه الجلبة عن الثانية ؟ أليست هذه هي الطريقة الواضحة لمباشرة الأمور ؟ ربما يكون الأمر كذلك ولكن هنا تكمن العقدة : لا يمتلك أى جنس على وجه الأرض نظاماً إشارياً قائماً على الثانية فهي صفة خاصة باللغة البشرية. (فى الحقيقة تشتمل أغاني الطيور والحياتان على عنصر الثانية لكنهما لا يحسبان من الأنظمة الإشارية).

السؤال هنا ماذا تفعل المخلوقات الأخرى وهي لا تستطيع التعبير باستخدام الثانية ؟ إنهم يفعلون الشيء الذى أعلننا عدم قابلية تحقيقه فى اللغة البشرية، أى أن نظامهم الإشارى يقوم على مبدأ "صوت واحد، معنى واحد" فالحيوان يمتلك صوتاً ذا معنى واحداً مثل "هذه أرضى" أو معنى آخر "انظر هناك خطر قادم" ومعانٍ أخرى قليلة، لكن يبقى شئ وهو أن مجموع أعداد الأشياء المتباينة التى يستطيع الحيوان التعبير عنها لا يتعدى ما هو متاح لديهم من أصوات مختلفة، لكن نضع الأمر فى صورة تطبيقية نقول إن عدد الإشارات أو النداءات المستخدمة من قبل أى فصيلة من الفصائل تتراوح عادة ما بين ثلاثة إلى ستة ويستثنى من ذلك الفرقة^(٢) الذى لديه عدد معين من الإشارات يقارب العشرين أو ما إلى ذلك، وبهذا يتضح حجم الاختلاف، تتجلى بعض الخصائص الهامة للغة - والتى سوف مناقشها فيما بعد - عن طريق ارتباطها بتلك الخاصية الرئيسية.

بهذه المناسبة قد تتساءل عن عدد الفونيمات التى تشتمل عليها اللغة الإنجليزية، فتكون الإجابة أربعون فونيماً أو أكثر، تتسم الإجابة بهذا الفموص لأن متحدثى اللغة الإنجليزية لا يستخدمون أصوات الكلام بصورة متساوية، فعلى سبيل المثال هل تنطق كلمتى book (كتاب)، back (نكر الطسى) بنفس الطريقة أم أنهما مختلفتان فى النطق ؟ إن الناس الذين ينطقونهما مختلفتين لديهم حرف صامت لا يملكه أولئك الذين ينطقونهما نفس النطق، ماداً عن air (هواء)، hair (شعر) ؟ يمتلك الناس الذين ينطقون هاتين الكلمتين بصورة مختلفة حرف صامت لا يملكه أولئك الذين ينطقونهم نفس النطق، ينطبق الأمر ذاته على "free, three" (ثلاثة، حر)، "cut, caught" (سرير، متحرك للأطفال، مَسَك)، "poor, power" (يسكب، فقير)، "pool, pull" (يدفع، حوض لسباحة)، "fur, air" (فراء ، هواء)، بنفس الطريقة يمتلك الناس الذين لا تتقاهى لديهم

(٢) قرء أفرىقى صغير

كلمتي "finger, finger" (إصبع، مطرب) حرفاً صامتاً لا يمتلك أولئك الذين تتقاهي
ديهم هتان الكلمتان. (قد تتعشش عندما تعرف أن هناك أناساً يصنعون قروفاً أشياء،
الكلام لا تصنعها أنت أو مخفقون في إحداث فروق تتجح أنت في صنعها، هناك هي
الطريقة التي تسير عليها الأمور)، ومع ذلك فإن عدداً قليلاً جداً من متحدثي الإنجليزية
يمتلكون أقل من أربعين فونمماً أو أكثر من خمسة وأربعين.

تتدأبن اللغات الأخرى في عدد الفونيمات التي تتضمنها، فمن ناحية تحتوي اللغة
البرزيلية "بيراهما" على عشرة فونيمات فقط (سبعة فونيمات صامتة وثلاثة صائتة) بينما
تحتوي بعض اللغات القوقازية على ثمانين فونمماً على الأقل (أغلبهم من الصوامت)
وبذلك من ناحية الأخرى، يمثل الرقم المتوسط بين هذين الرقمين حوالي خمسة
وعشرين فونمماً ولذلك فالإنجليزية بفونيماتها الأربعين تفوق المتوسط بقليل، لكن بغض
نظر عن عدد الأصوات المستخدمة تبني كل لغة بشرية على مبدأ "ثنائية التنميط"، ذلك
المبدأ الذي نتفرد به ويتواجهه في عالمنا الطبيعي والذي بدون له تظل اللغة كما نعرفها.

اللاحضور والنهايات المفتوحة :

"اللاحضور" هو استخدام اللغة بهدف الحديث عن أشياء غير متواجدة في التو
والحظة، فنحن لا نجد أدنى صعوبة في التحدث عن مباراة كرة القدم التي تمت الليلة
الماضية أو عن طفولتنا أو عن سلوك الديماغوجات التي عاشت منذ أكثر من مائة
مليون عام أو المصير النهائي للكون ، وينفس الدرجة من اليسر نستطيع مناقشة
الأحداث السياسية التي تقع في "بيرو" أو على سطح كوكب نبتون.

تُعرف "النهايات المفتوحة" بأنها قدرتنا على استخدام اللغة من أجل الحديث عن أي شيء
على الإطلاق بما في ذلك الأشياء التي لم نسمع بها من قبل، وإليك بعض الجمل الإنجليزية

– تهنئ لوكسمبورج ميوزيلندا.

– إن العنكبوت الكبير ذا اللون الورد والذى يرتدى نظارة شمسية ويمسك مكنسة
من الريش يرقص على الأرضية.

كتب شكسبير مسرحياته باللغة السواحلية ثم تمت ترجمتها إلى الإنجليزية
بمساعدة حراسه الأفاقة.

من المؤكد أنه لن يسبق لك مقابلة مثل هذه الجمل، وبالرغم من ذلك فأنت لم تحد أية صعوبة في فهمها بالرغم من عدم لقتناعك بها جميعاً. كما أنك لا تصانف صعوبة في إنتاج المزيد من الجمل الإنجليزية الجديدة معاً عند الحاجة إلى ذلك، فهي الحقيقة معظم الأشياء التي نقولها ونسمعها كل يوم تكون جديدة تماماً وربما لم يتفوه بها أي شخص من قبلك.

إن هاتين الظاهرتين - قدرتنا على الحديث عن أماكن وأشياء بعيدة هي المدى والزمن وكذلك قدرتنا على إنتاج وفهم مقاطع جديدة بلا حدود - مألوفتان لنا حتى أنهما لا يشغلان تفكيرنا كثيراً. وهذا لا ينقص من أهميتهما شيئاً مهما حقاً على حسب كثير من الأهمية، هل باستطاعتك الحديث عن الوقت الحاضر فقط أو الأشياء التي تراها أثناء كلامك؟ وبالمثل هل باستطاعتك تخيل الحديث بلغة لا تتكون إلا من عدد محدود من المقاطع حتى إنك في كل مرة تفتح فيها فمك للكلام لا تملك إلا اختيار مقطع واحد من تلك القائمة المحدودة؟ بالطبع ستكون هذه اللغة أبعد ما يكون من اللغات المتعارف عليها.

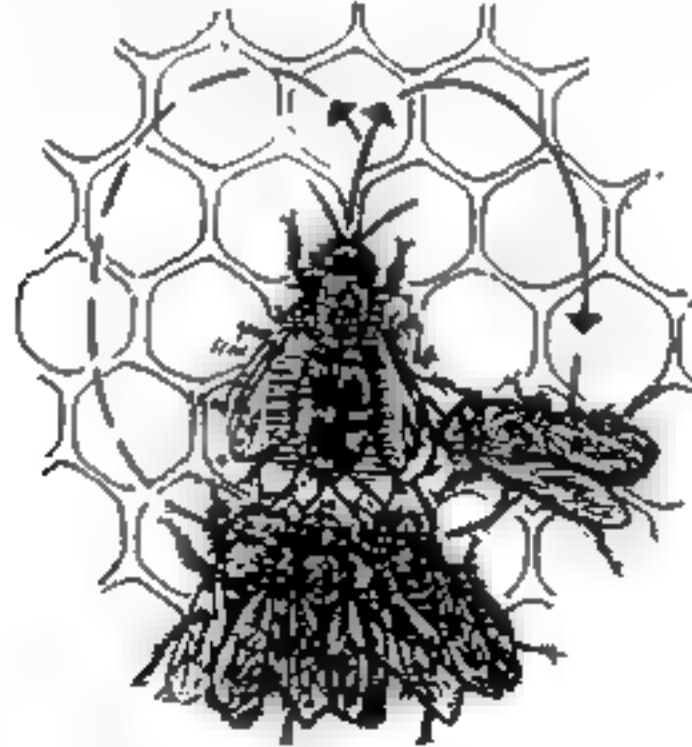
تتشابه الحالة السابقة مع النظام الإشاري للحيوانات ولكن باستثناء واحد سنناقشه فيما بعد وهو عدم استخدام الحيوانات لحاصية "اللا حضور"، فالعُثران لا تتبادل الحكايات عن مشاجراتها المتوقعة مع القطط، والذئبة لا تناقش قسوة لشتاء القادم، كما أن الأرانب لا تدخل في مناقشات حادة عن ذلك الشيء الذي يروونه فوق التل، ولا يخطط الإوز لهجرتهم القادمة، في الواقع ترتبط كل التعبيرات التي يصدرها لحيوان ارتباطاً مباشراً وكلها بزمان ومكان الحدث.

علوة على ذلك لا تمتلك مثل هذه المخلوقات ما يسمى بالنهايات المفتوحة حيث يظهر بدلاً منها عدد ضئيل من المقاطع التي تكون النظام الإشاري لكل فصيلة، وبخلاف تلك المقاطع المتاحة لا يمكن التعبير عن شيء، ربما يستطيع القرد التعبير عن القول "احترس هناك نسر إذا كان الحدث متمثلاً أمامه ولكن لا يستطيع القرد نفسه تقديم أي مقاطع جديدة كأن يقول بلا سابق إندار "احترس هناك اثنان من الصيادين يمسكون بنابق"، أو يقسائل عند رؤية السيارة "لا تد روفر" "يا رفاق ماذا تظنون أن يكون ذلك الشيء؟".

بالطبع لا يوجد بديل إذا ما اختفت حاصية "الثنائية"، إنها وسيلة ضرورية للتعبير عن المزيد من المعاني المختلفة، بدون الثنائية تظهر المخلوقات غير الإنسانية وكأنها مقيدة بحال من التعبيرات غير المفهومة، إنه عالم خال من الماضي والمستقبل، محاط بالأفق، يفقد التحديد ويتكون من عدد لا نهائي من الرسائل المألوفة المتكررة التي تعبر عما يحدث في الوقت الحاضر.

بالرغم مما سبق فكره يوجد استثناء وحيد يخرج من تلك الصورة الفاتحة ألا وهو وجود مخلوق يحتوى بظلمة الإشارى على "اللا حضور" بصورة جلية، إن ما هذا المخلوق المتميز ؟ إنه ليس بالشعبياترى ولا بالبولفين كما قد يحظر بيالك، إنه نحل العسل.

استطاع كارل فون فريش عالم الحيوان النمساوى فى ١٩٥٠، ١٩٦٠ إجراء مجموعة من الدراسات حول سلوك النحل الأوروبى، فالتحل الكشاف عندما يطد مصدرا حيدا للرحيق لا يلتصق أن يعود إلى خليته حيث يقضى رقصه قصيرة مدتهشة بشاهدها باقى النحل، تختلف تفاصيل هذه الرقصة طبقا لعدد مصدر الرقيق عن الخلية وفصيلة النحل (أى أن النحل لديه لهجات)، فى أكثر الحالات شيوعا تقوم النحلة الراقصة بهز الأذيل على شكل الرقم ثمانية المضغوط، استطاع "فون فريش" حل شفرة هذه الرقصة فوجد أن الوقت الذى تأخذه النحلة من أجل إكمال دائرة الرقم ثمانية يوضح المسافة التى يبعد عنها مصدر الرقيق عن الخلية - أى أنه كلما طال الوقت طالت مدة الطيران، كما أن مستوى الإثارة الذى تظهره النحلة يدل على كمية الرقيق وبالتالي على عدد النحل المراد لجمعها - كلما زادت الإثارة كان حجم الرقيق أكبر وتطلب عددا أكثر من النحل، أخيرا - الشمس المدهش - يتم موقع الجزء المستقيم للرقم ثمانية على اتجاه مصدر الرقيق بالنسبة لموقع الشمس فعلى سبيل المثال إذا وقع الجزء المستقيم مسافة ٨٠ درجة جهة الشمس من اليسار، فإن النحل سوف يطير ٨٠ درجة باتجاه يسار الشمس.



شكل (١-١) النحل الراقص

إنّ هذا هو "اللاحضوري"، تنقل النحلة الراقصة معلومات عن مصدر الرحيق الذي سبق لها أن رآته وابتعدت عنه أميالاً مما يجعلها لا تراه في اللحظة الحاضرة، بالإضافة إلى ذلك فإن النحل الذي يشاهدها يعرف جيداً أنها تُبلّغه بمهمة ينبغي أن ينفذها في المستقبل القريب، كذلك وجد "فون فريش" أن النحل يستطيع تحديد مكان مصادر الرحيق حتى مسافة سبعة أميال (حوالي ١١ كم)، إنه لشيء رائع، في اعتقادك إلى أي مدى يمكنك السجّاح في اكتشاف مجموعة معينة من الأشجار التي تقع على بعد سبعة أميال بمجرد سماعك رسالة شفوية تترك بفعل ذلك ؟



شكل (١-٦)

الرقصات التي ترشد النحل الشغالة إلى ثلاثة أماكن للقاء: أ، ب، ج

في تجربة شهيرة مكن "فون فريش" بعض النحل الكشف من اكتشاف مصدراً صناعياً للرحيق - إباء يحتوى على سكر وماء - موضوعاً على عمود يبلغ ارتفاعه عشرون قدماً، و هو ارتفاع يفوق ما اعتاد عليه النحل، رجع النحل إلى الخلية كالعادة وندى رقصته، فماذا كانت النتيجة ؟ اجهت مجموعات النحل إلى المصدر محدثة طقساً

يتنبه بعض الاضطراب ثم عادت إلى الخلقة، لم يتحكن النحل الراقص من إدراج المعلومة الجديدة الحاصلة بالارتقاء ضمن رقصته، أو كما قال "هون فريش" لا تشتمل لغة النحل على كلمة "فوق".

كم هو مدعش ذلك النوع من الرقص، فنحن لا نملك معه إلا الإقرار بأن مخوقا و حدا محنت الإنسان لفيه القدرة على استخدام خاصية "اللاحضور" في عمية التوصل الحاصلة به، لكن يجب ألا ندع الدهشة تقمض أعيننا عن بعض الحقائق لهامة، والنحل يمثل حالة فريدة في عالم الحيوان لا تتشابه معها أية حالة أخرى، كما أن هذا الرقص مفيد في قوته التواصلية حيث لا يمكنه إضافة أي تجديد، بخلاف قدرة النحل على استخدام خاصية "اللاحضور" فإنه قاصر في قوته التعبيرية كأي نظام إشاري يمتلكه حيوان، أي أن النحل يفقر إلى وجود لغة.

الحرية المشروطة :

تعد خاصية "الحرية المشروطة" من الخواص الوثيقة الصلة بالعناصر الشككية السابقة وإن كانت تختلف عنها جريا، وتعرف هذه الخاصية بأنها قدرتنا على التفوه بأي شيء نوده مهما اختلف سياق الكلام، ممثلا افترض أن شخصا ما سئلك "ما رأيك في جونلتى؟" سيكون لك مطلق الحرية في الرد بنية إجابة بما في ذلك عدم الإجابة هي الإطلاق، أي ربما تكون إجابتك "إنها قصيرة للغاية" أو "إنها لا تتناسب مع بلورتك الوردية" أو "أسف ليس عندي نوق في اختيار الملابس" وربما لا تجيب وتغير مجرى الحديث.

هذا لا يعني أن الحديث البشري يسير بطريقة عشوائية، فهناك ضروريات اجتماعية تجعل لبعض الإجابات أولوية الظهور عن غيرها، ممثلا إذا كنت صديقا حميما للسيدة صاحبة الجوزلة لن تكون إجابتك على النحو التالي "ما هذا يا حوليا؟" بل رداء كلبى يبدو أفضل مما ترتدين، إنك تملكين أقبح نوق في العالم، ولكن حتى إذ كنت تفكر في تلك الإجابة فإنك أظلم الظن لن تتفوه بها ليس لأن هناك شيئا في اللغة الإبطيرية يمنعك من ذلك ولكنها التقاليد الاجتماعية والرغبة في الحفاظ على العلاقات الطيبة.

إن غداك خاصية "الحرية المشروطة" يحيل اللغة البشرية إلى شيء غير مفهوم، تحس أن كل كلمة تقولها تكون مقيدة بالسياق الذي تقال فيه ستكون النتيجة تحوالت إلى شخصية تؤدي دورا في مسرحية ليس لديها أية فرصة في اختيار ما تقول، بالطبع

هناك بعض المواقف الرسمية ويحاطة التي تتسم بالطابع الاحتفالي - مثل الاحتفالات الكناشبية والولائم - يحدث فيها ذلك، ولكن هذه المواقف لا تمثل قاعدة عامة، كما أنه بإمكانك في مثل هذه المواقف قول أي شيء غير متوقع عن قصد وإن ضر ذلك بمكانك من الناس.

لا بد أنك تتوقع سماع ما يدل على أن خاصية "الحرية المشروطة" قاصرة على اللغة البشرية ونحن بدورنا لن نخالفك في هذا الرأي، فالإشارات غير البشرية ليس مشروطة الحرية بل إنها مطلقة الحرية، معنى بذلك أن أي حيوان يبتج إشارة معينة دائما وبفقط عندما يتوافر المثير المناسب، فمثلا إذا رأى فرد سيرا يقترب وهو فوق الشجرة فإنه في الحال يصدر صيحة مفادها "احترس هناك سر" وهو لا يفعل ذلك في أي وقت آخر، أي أنه - عند رؤية النسر - لا يفكر قائلا "ربما إذا وقفت ساكنا يفض النسر على حيوان آخر وأبقى أنا أمنا".

بالرغم من ذلك، هناك بعض الأفعال غير المتوقعة تصدر عن بعض الحيوانات ، فقد لوحظ في إحدى المرات أن ثعلب القطب الشمالي يصدر صيحة دالة على الخطر في غياب أي خطر، وذلك فقط لكي يبعد صغاره عن تناول الطعام العاص به، نلاحظ أن مثل هذه المواقف تكون نادرة الحدوث كما أنها تأتي من مصادر حكاية فهي لا تمثل السلوك الطبيعي للحيوان الذي هو طبيعته مفيد الحرية.

نخلص من ذلك أن الأنظمة الإشارية للحيوانات تختلف كلية عن اللغة البشرية نظرا لعدم احتوائها على كل من "ثانية التمييز"، و"الاحضور"، و"النهايات المفتوحة"، "الحرية المشروطة"، إن عالم المخلوقات اللابشرية يختلف تمام الاختلاف عن عالمنا، إنه من وجهة نظرنا فارغ، عديم الملامح، محدود ومعلق، إن اللغة البشرية - كما ذكرنا في بداية الفصل - سمة فريدة على كوكب الأرض ويبدو أنها لم يكن بوسعنا أن نعتبر أنفسنا بشرا.

الاعتباطية :

بالإضافة إلى الخصائص الشكلية التي تميز لغة البشر عن الأنظمة الإشارية للحيوانات توجد خصائص أخرى ليست بفريدة ولكنها جديرة بالاهتمام، من بين هذه الخصائص "النوقعية" وهي غياب أية صلة ضرورية بين الشكل القوي ومعناه.

لاحظ كلمة ضرورية، والتي يوضح أننا لا نفهم وجود أية علاقة بين الكلمة الإنجليزية "pig" (خنزير)، وبالك الحيوان الضخم الذي يطلق عليه هذا المسمى، توجد علاقة بالفعل ولكنها علاقة اعتباطية، فليس هناك سبب معين جعل المتحدثين اللغة الإنجليزية يطلقون على هذا الحيوان ذلك الاسم بعينه . تلك العلاقة مجرد اتفاق نرج عليه المتحدثون منذ وقت بعيد، كما أن المتحدثين اللغات الأخرى بدورهم قد توصلوا إلى معاق يختلف عما اتفق عليه الناطقون بالإنجليزية بشأن تسمية ذلك الحيوان، وجدير بالذكر أنه ليس هناك كلمة مناسبة للتسمية أكثر من غيرها، فالكلمة تكون مناسبة وتلقى قبولاً عندما يتفق مستخدموها عليها.

إن الاتفاق على تسمية معينة لا يظل قائماً طوال الوقت، فقديمًا كان يطلق على لحيوان ذاته كلمة "swine" والتي تحمل في طياتها معنى الإهانة إذا نعت بها شخص ما في وقتنا الحاضر، إن التوصل لقرار بشأن أية كلمة معبرة عن معنى مجرد اتفق أو عادة في المقام الأول، تشتمل اللغات المختلفة على اتفاقات وعادات متباينة (هذا سبب كونها لغات مختلفة)، كما أن العادات المتبعة في لغة يمكن أن تتغير ويحدث هذا بالفعل.

قد تتمثل "التوقيفية" من خلال طريقة أخرى تناقص ما سبق ذكره، فعلى سبيل المثال تحمل الكلمة الإنجليزية "mean" معانٍ مختلفة وهي (يعني، يفيد، يقصد، يفوي، يذمر، يهين، متوسط، بخيل، وسيلة)، أو بصورة أكثر دقة نقول إن هناك كلمات إنجليزية عديدة تأخذ نفس شكل الكلمة "mean"، كما تُطلق الكلمة الفرنسية "mine" بنفس طريقة الكلمة الإنجليزية "mean" وهي تعني (محم)، بالمثل تعني الكلمة البولندية^(٢) "min" (طُرف)، بينما تعني الكلمة الباسكية^(٣) "min" (ألم)، في حين تعني الكلمة العربية "min" (من)، كما نرى لا يوجد شيء ما يترك الكلمات يجعلنا نعتبر أحدها أكثر قبولاً من الأخرى.

إن تواجد خاصية "التوقيفية" في أية لغة هو السبب الرئيسي وراء ما نقضيه من وقت طويل في تعلم كلمات أية لغة أجنبية، لأنه من الصعب تخمين معانٍ غير مألوفة لدينا، فيجب معرفة معنى كل كلمة على حدة والدليل على ذلك هو ما سوف نعرضه عليك من أسماء باسكية لحيوانات، ونحن متأكدون أنك إن تمكن من معرفة أي منها "zakil" (فرس)، "igel" (صغد)، "broni" (طائر)، "ollo" (بجاجة)، "behi" (بقرة)، "cagu" (مُر)،

(٢) لغة شعب مجهول الأصل يقطن منطقة البرانس الغربية في فرنسا وإسبانيا

كذلك من المستحيل أن نجد مترجماً غالباً على ترجمة بكل لغات العالم والسبب في ذلك أيضاً خاصية "التوقيفية"، افترض أنك تعرف عدداً لا بأس به من كلمات اللغة الباسكية، وافترض كذلك أن شخصاً ما قال لك "Watch out- you might run into slupu out there"، سيجعلك ذلك في حيرة من أمرك هل تعني هذه الكلمة شرك لاصطياد الدببة أم سم هائل أم لص مسلح أم شيء جائع؟ إنها تعني "عقرب"، وهي كلمة منقرضة منذ القرن السادس عشر، ومعها في لغة الباسكية الحالية "تنب"، لهذا تعني الجملة السابقة "احذر، ربما يصانك عقرب في هذا الاتجاه"، أليس ذلك أمراً يصعب على المترجم العالمي؟

لا تعد خاصية "التوقيفية" حكراً على اللغة البشرية، فهي تتمثل في الأنظمة لإشارة للحيوانات وكذلك في كل نظام اتصالي يمكن تصوره، قد يحدث أن نصادف بعض العناصر في اللغة لا تتمثل بها خاصية التوقيفية، فتكون طبقاً لذلك رمزية، الرمزية^(٤) علاقة مباشرة بين الشكل والمعنى، إننا نجد بعض العناصر الرمزية في رقص النحل، كما نجد تلك العناصر في اللغة الإنجليزية.

تعد التسمية بالمحاكاة الصوتية أحد أبرز الدلائل على الرمزية، إنها الإشارة إلى الأصوات التي تصدر عن الأشياء بكلمات تشبه تلك الأصوات، ومن أمثلتها "splash" (يرش)، "clink" (يصلصل أي يصدر صوتاً شبيهاً باحتكاك المعادن أو القود)، "buzz" (أزيز أو طنين)، "meow" (مواء)، "moan" (عويل)، "whoosh" (انفجار مفاجئ يحدث صوتاً انفجارياً)، "bub" (صوت الارتطام بالأرض)، "moo" (خوار)، "ping" (أزيز لرصاص)، "quack" (صياح البط)، "boom" (بوم)، تمثل كل هذه الكلمات محاولات لإنشاء أصوات فعلية باستخدام الهويمات الإنجليزية، لكن تتمثل بهذه الكلمات صفة التوقيفية، نستطيع الاستدلال على ذلك بمقارنة أمثال تلك الكلمات في اللغات المختلفة، يسمى صوت البندقية في اللغة الإنجليزية "bang"، وفي الإسبانية "pum"، وفي الفرنسية "pan"، وفي الألمانية "peng"، وفي الباسكية "dzast".

في الحقيقة تتمثل صفة التوقيفية في تلك الكلمات التي تبدو بها المحاكاة الصوتية، مما يستدعي دراستها على هذه الكلمات العادية، هتت مثلاً لا يمكنك تحمين معنى الكلمة البابابية "schirn-schirn" إنها تعني (ونين)، ماداً عن كلمتي اللغة

(٤) ضروب من الكتابة التصويرية .

التركية "sip" (صوت شبيه بشيء يغطس في الماء)، "sak" (دوى) ، العبرية "yimyum" (موء) ، الباسكية "Kulturak" (بيك) لابد أنك توقعت المعنى ذاته، اليابانية "pyuu" (أريز)

هناك نوع آخر من الرمزية أكثر دقة مما سبق الحديث عنه. افترض أسأ أخبرناك أن الكلمة الباسكية "tximeleta" (التي تُنطق على النحو التالي chee-may-lay-tah) هي اسم لأحد الكائنات، في رأبك ما ذلك الكائن؟ كبير أم صغير؟ سريع أم بطيء؟ جميع أم قبيح؟ افترض أننا أخبرناك كذلك أن هذا الكائن واحد من الآتي ثعلب، ثور، فراشة، قوقعة، سلحفاة، أيها تختار؟

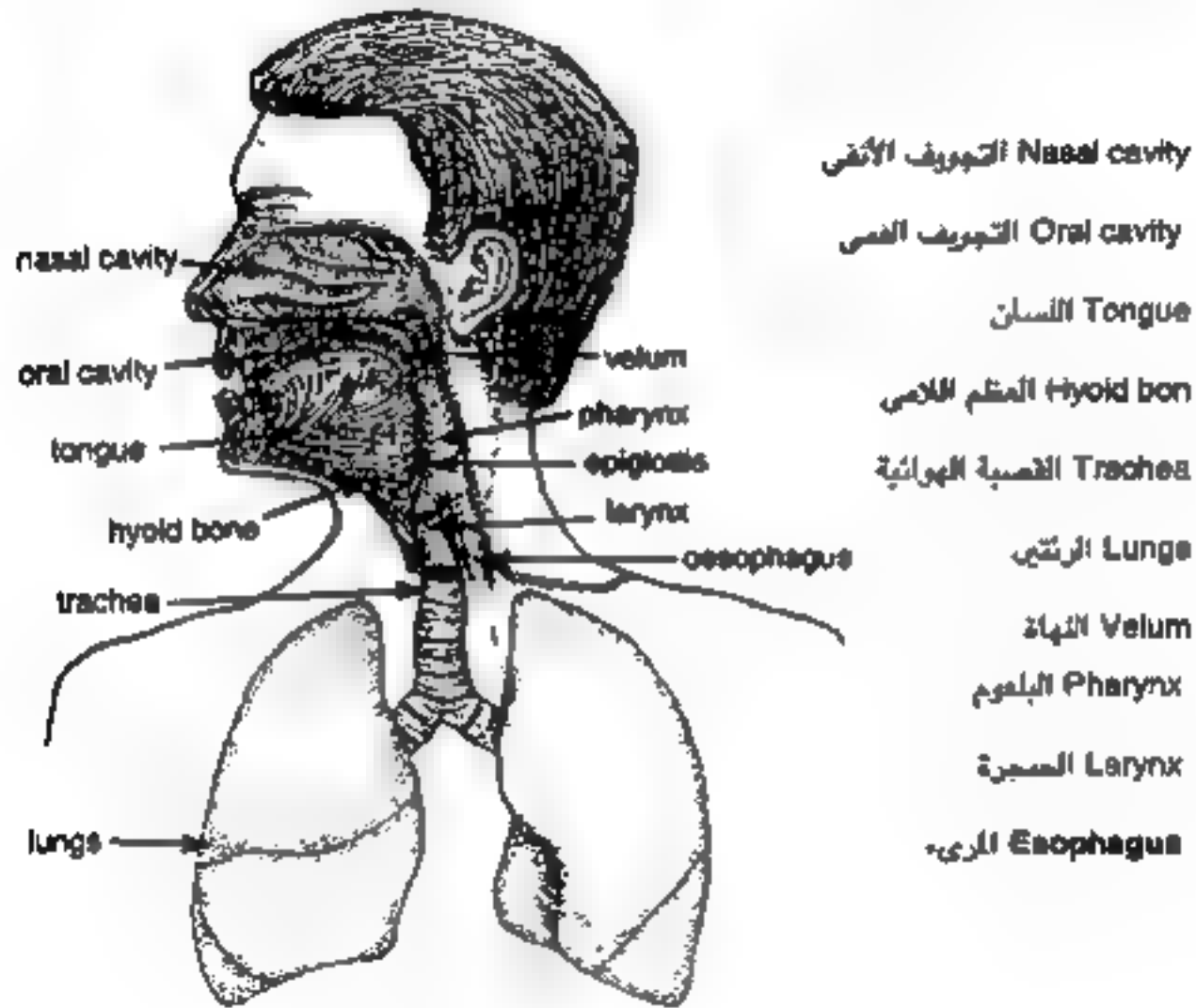
بأس أن تكون قد توصلت لإجابة. يرى أغلب الناس أن الكلمة تدل على كائن - ليس بكبير أو ثقيل الوزن أو بطيء - صغير الحجم خفيف الوزن يتحرك بشكل سريع ورشييق، تبعاً لذلك فهم يتخيلون من الكائنات السابقة الكائن الوحيد الذي يتميز بصغر الحجم و خفة الوزن والرشاقة، أي الفراشة.

لا تعد الحالة السابقة تسمية بالمحاكاة الصوتية، فالكلمة الباسكية "tximeleta" لا تدل على أي صوت - لاحظ أن الفراشة لا تصدر أية أصوات - بل تدل على شكل لكائن التي تطلق عليه، الكلمة تبدو خفيفة ورشيقة وكذلك الفراشة.

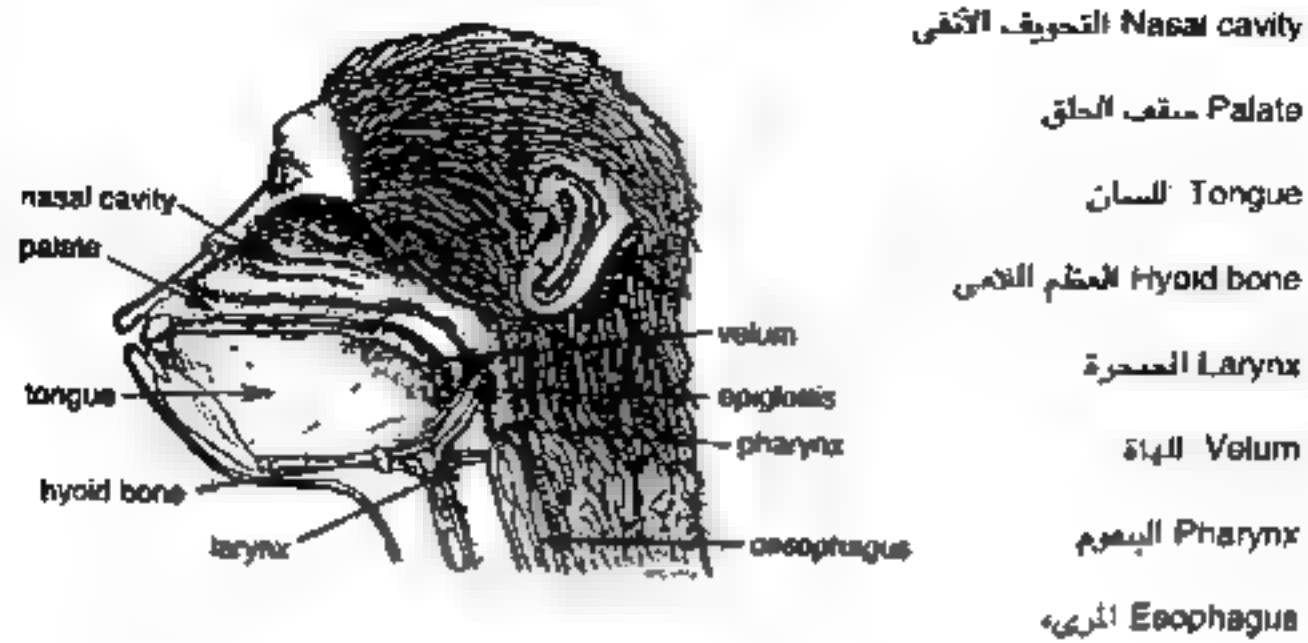
الجهاز الصوتي :

يعد الكلام - كما سبق أن ذكرنا - الوسيلة الطبيعية للتعبير عن اللغة، نقصد بالكلام إنتاج تتابع من الأصوات وهو ينتج عن طريق خروج الهواء وبخوله من وإلى الفم والأنف، بالطبع لا يمثل الكلام الطريقة الوحيدة للتعبير عن اللغة، إنك بقراءة كتاب الذي بين يديك تكون قد تعرفت على طريقة أخرى للتعبير عن اللغة ألا وهي الكتابة - هي طريقة حديثة في تاريخ اللغة البشرية، ترجع أقدم النصوص المكتوبة إلى ما يقرب من ٦٠٠٠ عام، بينما يبلغ عمر الكلام - كما سنرى فيما بعد - أكثر من ذلك بكثير. كما أن أغلب لغات العالم والتي تبلغ ٥٠٠٠ لغة لا تكتب في العادة، تعد لغة الإشارة احتراعاً بالغ الحداثة بالمقارنة بالكلام والكتابة، تتكون هذه اللغة من إشارات اليد وهذا ما سوف ساقشه فيما يلي.

بالرغم من هذا يمثل الكلام الوسيلة الطبيعية والمعتادة للتعبير عن السعة، فتطور النمو عند الإنسان مكته من الكلام بطريقة بارعة، تسعى الممر الذي يتدفق خلاله الهواء أثناء كلامنا بالجهاز الصوتي، يتفرد الإنسان بجهاز صوتي مختلف تماماً عن مثيله عند الثدييات فحتى أكثر الكائنات شبيهاً بالإنسان القردة تمتلك جهازاً صوتياً مختلفاً تماماً عن جهازنا وفي ذات الوقت يتشابه جهازهم الصوتي هذا مع أجهزة الحيتان والعتنار، انظر إلى الشكلين (١-٢)، (١-٤) اللذان يعرضان قصاعاً عرضياً هي الجهاز الصوتي لكل من الإنسان والشمبانزي.



شكل (١-٢)
الجهاز الصوتي للإنسان



شكل (٤-٩)

الجهاز الصوتي للشمبانزي

تظهر العديد من الاختلافات، أولها كبر حجم الجهاز الصوتي البشري واختلاف شكله فهو يمتد امتدادا كبيرا خلف اللسان، بالإضافة إلى ذلك يوجد اختلاف كبير في العلاقة ما بين القصبة الهوائية التي تؤدي إلى الرئتين والمريء الذي يؤدي إلى المعدة، يحتري لجهاز الصوتي الخاص بالشمبانزي ومعظم الثدييات على غصنوف كبير الحجم يطبق عليه اللهاة والذي يعمل كصمام بين القصبة الهوائية والمريء، فعندما تكون اللهاة مرفوعة تكون القصبة الهوائية متصلة بالأنف ويكون الفم مغلقا، أما إذا كانت اللهاة في وضع منخفض فيصبح الفم متصلا بالمريء بينما تكون القصبة الهوائية مغلقة، من شأن هذه العملية حماية الشمبانزي من خطر الاختناق أثناء الأكل.

يعد الإنسان أسوأ خطأ من الشمبانزي في هذا الشأن، فالجزء الأكبر من جهازه الصوتي والمسمى بالبلعوم له وظيفتان، فهو يعمل على تدفق الهواء ومرور الطعام، كما أن اللهاة البشرية الصغيرة الحجم لا تلعب دورا حيويا في غلق القصبة الهوائية أثناء عملية سيم، نتيجة لذلك يكون من السهل إصابنا بالاختناق أثناء تلك العملية، فالعديد من البشر يموتون من حراء ذلك في بريطانيا كل عام، إذن لماذا يصمم الحمار الصوتي لبشري ذلك الجزء الخطر وهم أكثر أنواع الثدييات تقردا؟ لماذا لم يطل الجهد لصوتى الخاص بأسلافهم كما هو ويتوارثونه هم ؟

ما هو أكثر غرابة الحقيقة التي تقر بأن الأطفال حديثو الولادة لديهم جهاز صوتي يشبه ذلك الخاص بالشمبانزي وهم بذلك هي ملأ من خطر الاحتراق، ولكنهم ما إن يبلغوا الثلاثة أشهر من العمر حتى يبدأ جهازهم الصوتي في النمو حتى يأخذ ذلك الشكل الخاص بالبالغين، يبدو أن ما حدث هو طفرة بجهازنا الصوتي جعلته يأخذ شكله الحالي، لماذا ؟

متوافق بالجهاز الصوتي البشري ميزة عظيمة جعلنا نعمل عن كونه خصباً، فهو لكبر حجمه وامتداده يمكننا من إحداث عدد من أصوات الكلام - على الأقل خمسة من اصوات والصوائت المميزة - نجد أن الجهاز الصوتي لكل من الشمبانزي والأطفال حديثي الولادة يعتقد إلى وجود مثل هذه الخاصية، فقد أثبتت الدراسات عدم قدرة لشمبانزي على إحداث أكثر من صائت وحيد وصامتين وهذا كفايل بعدم تمكنه من الكلام، تذكر أننا بحاجة إلى كم من الأصوات لكي نستخدم خاصية "الثانية" والتي بدونها لا يمكن أن نتواجد اللغة.

استنتج العديد من الباحثين مما سبق ذكره أن السبب الرئيسي وراء تطور جهازنا الصوتي هو تمكننا من الكلام، فالقدرة على الكلام واستخدام اللغة من السمات التي تميز فصيلتنا حتى وإن كانت صيربتها فقدان عدد من الأشخاص كل عام بسبب الاحتراق، كما يتبع تطور جهازنا الصوتي تطوراً آخر في المخ البشري المتصف بكبر حجمه أيضاً، حيث يتطلب استخدام اللغة قدرة خاصة تتمثل في سرعة لعمليات العقلية وليس الأمر مقصوراً على الكلام فقط، كما نعرف تفنيد القدرة إلى جزء المخ الخاص بالعمليات العقلية المتممة الكلام.

حدث العديد من نقاط التحول على مدار تاريخ التطور الإنساني - عموماً الفقري، أدينا، أصابعنا، وبخاصة أصابع الإبهام، كلها تطورت إلى حد كبير، ولكن كما نعرف حدثت هذه التطورات لأسلافنا منذ ملايين السنين في وقت لم يتطور به المخ والجهاز الصوتي، هذا ويعد تطور الكلام واللغة من أكبر التطورات التي حدثت على مدى التاريخ البشري، ذلك التطور الذي ميزنا عن أسلافنا من البشر وأشخاصنا من الحيوانات وجعل من سلوكنا الإنساني سلوكاً متفرداً، لذلك فترج كثير من المتخصصين تصنيف فصيلتنا الاسم اللاتيني (البشر المتكلم) بدلاً من (البشر المفكر).

لا أحد يعرف متى تطورت اللغة البشرية، ولكن اتفق الكل على أنها ظهرت منذ ١٠٠٠ عام تقريبا استنادا إلى الدليل الذي وجد لبشر يشبهوننا تماما، إلا أن فئة من الباحثين يرجعون ظهور اللغة إلى وقت قبل ذلك بمدة كبيرة، أكثر من مليون عام وهو الوقت الذي عاشه أسلافنا، لا شك أن الموضوع قابل للجدل والنقاش وخاصة أننا لا نملك دليلا عمليا مؤكدا عليه.

قام العالمان فيليب ليرمان، وإيموند كريلين^(٥) بتناول هذا الموضوع في سلسلة من الإصدارات، اختص عملهم بالنياندرتاليين^(٥)، وهم أناس يتميزون بقصر القامة وأمتلاء الجسم بصبورة واضحة وكانوا يسكنون أوروبا الغربية منذ ما يقرب من ٢٥٠٠٠ عام قبل أن يختفوا فجأة ويبدو أن اختفاؤهم هذا كان بسبب ما وقع عليهم من ضغط من قبل أسلافنا، قدم كيرمان وكريلين شكلا للجهاز الصوتي للنياندرتالي عن طريق استخدام حفرة الجمجمة أحدهم، كان الشكل مخالفا تماما لجهازنا الصوتي وقريبا لذلك الخاص بالشمبانزي، لذلك انتهى كل منهما إلى أن النياندرتاليين كانوا غير قادرين على إصدار الكم المناسب من الأصوات ومن هنا فهم غير قادرين على الكلام.

بالرغم من روعة المحاولة التي قام بها كيرمان، وكريلين إلا أن نتائجهما لم تسهم من الهجوم العنيف الذي أقر بخطأ هذه النتائج وقدم أدلة عدة على ذلك.

أولها تعرض تلك الجمجمة لتجارب عدة مما تسبب في تهشيمها، وثانيها مكانية إعادة تركيبها والخروج منها بشكل جديد كل مرة - غير الشكل الذي توصف إليه كيرمان وكريلين - وقد ينتج من أحد هذه الأشكال جهاز صوتي يشبه ذلك الخاص بإنسان العصر الحالي، كما ذكر بعض النقاد أن الشكل الذي قدمه كيرمان وكريين لم يكن يسمح لصاحب الجمجمة أن يفتح فمه، لذلك يبقى السؤال مطروحا، فلماذا لا نعرف الوقت الذي ظهرت فيه اللغة بالرغم من أن أغلب المتخصصين قاموا بتأريخ تقريبي يرجع إلى أقل من مليون عام.

الشمبانزي يشير :

حاول عدد من الباحثين في العقود الأخيرة النظر إلى أمر أصل اللغة من جهة لم يسمق لهم طرقها، برغم تأكيدنا مرارا على أن اللغة صفة مميزة للبشر دون غيرهم،

(٥) سمعة لوادي النياندرتال قرب دويسلدروف ببلانكا حيث وُجِدَ بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم

إلا أننا لا زلنا نتساءل هل من الممكن لحيوان ما تعلّم اللغة في حالة ترومر الفرصة لذلك ؟

تثار هذا التساؤل عدا هائلا من التجارب، كان بعضها محور الاهتمام بحيث تم كتنته بالخطوط العريضة في الصحف، حاول العديد من الباحثين (ليس كلهم) تربية حيوان صغير وسط البشر مثله مثل الطفل الرضيع، فبتم إحاطته باللغة بل نُحِت على استخدامها، واحتمت هذه التجربة صعوبات مستحكمة، لأنه لا يمكن لكل صغار لحيوانات الناقلم في البيئة البشرية، تم إجراء أغلب التجارب على صغار القردة - شيمبانزي بصفة تكاد تكون دائمة والفوريلا من وقت لآخر - نظرا لأنه من المستحيل تربية حوت صغير أو دلفين داخل المنزل، بالرغم من أنهما يعرفان بذكائهما الحاد، إيهما - القردة - بأشكالها القريبة الشبه بالإنسان ، والتي تستطيع التكيف في البيئة الإنسانية، بل إنها أكثر الفصائل الحيوانية قربا لنا فهي لذلك أولى وأجدر بتعلم لغتنا.

لكن نظرا لعدم تواجد جهاز صوتي للقردة، كانت احتمالية تعلمهم اللغة معدومة، كانت هذه الحقيقة القاسية ضربة قاضية للتجارب الأولى التي أجريت على الشيمبانزي "جوا" و"فيكي"، لاحظنا من قبل أن الكلام ليس الوسيلة الوحيدة الممكنة للتعبير عن اللغة، كما أننا نرى مدى المعاناة التي يكابدها المصابون بالصمم عند إنتاج الكلام وكذلك فهمه، وكانت الأنظمة التي تم اختراعها في القرن التاسع عشر مهيأة لهم للتغلب على تلك الصعوبة، كانت لغة الإشارة أحد تلك الأنظمة وفيها يستخدم الفرد يديه على لأطراف لإنتاج إشارات تمكنه من التواصل مع الآخرين، يعنى وضع طرف الإبهام على الشفاه في لغة الإشارة الأمريكية (ASL) - وهي المتبعة بالولايات المتحدة الأمريكية - (يشرب)، بينما يعنى دفع نفس الإصبع ومعه إصبعين آخرين بعيدا عن الشفاه العليا (قطة)، تُستخدم لغة الإشارة الأمريكية من قبل قاعدة عريضة من المصابين بالصمم والذين أصبحوا نارعين للغاية في استخدامها - مثلها في ذلك مثل الأنواع الأخرى من لغة الإشارة (مثل لغة الإشارة البريطانية BSL) والتي تعرض مجموعة مختلفة من الإشارات - حتى أن هناك أطفالا لأباء مصابين بالصمم يستخدمون لغة الإشارة كلفتهم الأولى وهم بذلك مشيرون أصليون، لم تعد لغة الإشارة مجرد شكل يشبه اللغة البشرية - مثلما هو متعارف عليه - كما لم تظل تلك الرؤية المشعرة من اللغة الإنطيرية، فقد لاحظ اللغويون في السنوات الأخيرة أن لغة الإشارة التي يستخدمها لمشيرون الأصليون أصبح لها من الصفات الحيوية ما يعادل صفات اللغة البشرية.

ومن تلك الصفات الأنظمة التحوية الثرية بأشكال كالعبارات الفرعية وتصريفات الأعمال، لاحظ أن القرود لها أيدٍ تماثل الأيدي البشرية كثيرا.

وصنع كل من على النفس آلياً، وبما ترك حارنفر شميلنزي صغير السن سمي واشو وسط مجموعة من البشر البالغين والمستخدمين لغة الإشارة وذلك في عام ١٩٦٠، بدلت المجموعة جهوداً مضمّنة من أجل أن يفهم "واشو" الإشارات ويستخدمها، جاءت التحرية نتائج مبشرة حيث أضيف إليها عدد آخر من الشمبانزي، كما حكوت مجموعات بشرية جديدة بالنعلون مع الشمبانزي وأحياناً الغوريلا، بالإضافة إلى ذلك حاولت مجموعات أخرى فعل شيء مشابه عن طريق استخدام اللغات المخترعة التي تتكون كلماتها من عدد من القطع المغناطيسية ذات الألوان والأشكال المتنوعة الملصقة على لوحات، أو الأشكال الهندسية المعروضة على شاشة الحاسب الآلي.

حققت هذه التجارب نتائج مذهلة في الفترة ما بين نهاية عام ١٩٦٠ وبداية العام التالي له، استطاعت الحيوانات استيعاب اللغات من الإشارات أو الرموز، والاستجابة الصحيحة للجميل الجذلية المكونة من مجموعات جديدة من الإشارات والرموز، وكذلك إنتاج مقاطع خاصة بها بطريقة تلقائية، واستيعاب الكلمات ذات المعاني المجردة، وتكوين كلمات جديدة باستخدام مجموعات من الإشارات والرموز الموجودة من قبل أيضاً، وكذلك تعليم لغة الإشارة لأولادها، فوالت تلك النتائج باحتفاء شديد كما أثارت حفيظة كثير من النقاد.

وجد النقاد جوانب ضعف كثيرة بالأدلة التي تؤيد التجارب السالفة الذكر

أولاً : جاءت كثير من تلك الأدلة معتمدة على حصر الحكم تماماً، لقد تألفت من عدد من الشواهد التي أفادت بأن الحيوان قد يقوم بفعل غير متوقعة في بعض المواقف، ولكن الأدلة الحكائية تكون عديمة القيمة في مجال العلم، فقد تنتج الكثير من التفسيرات عن فعل ما يقوم به الحيوان وقد تكون بعضها غير مرصية بالمرّة، أما الأدلة التي تستند إلى تقارير دقيقة عن سلوك منتظم يصدر عن الحيوان هي فقط الأدلة الهامة.

ثانياً : طبق العديد من الباحثين معايير غير دقيقة في تحاربهم على الحيوانات، فعندما كان يُسأل الشمبانزي بلغة الإشارة الأمريكية عن شيء ما وليكن تفاحة، كان البحث يقر بصحة أية إجابة يصورها الحيوان طالما اشتملت تلك الإجابة على كلمة تفاحة، كان تأتي تلك الإجابة على النحو التالي إصبع موز أصفر جاتع تفاحه

إصبع موز تفاحة ، تتشابه هذه الإجابة مع صبيحة يطلقها طفل صغير لآلال يتعم لغته الأولى.

مثالنا : بلنما ما يردد الباحثون أن القردة تقوم بإصدار إشارات بالفعل، ولكن عندما طُلب العون من أحد مستخدمي لغة الإشارة للملاحظة سلوك الحيوانات، كان ينتهي إلى أن الحيوان لا يصدر أية إشارة مفهومة اللهم إلا بعض الإيماءات عنيدة المعنى و التي أصدرها البشر المحيطون به من قبل.

أخيراً : اكتشف النقاد فرضية الإجراءات التي استخدمت في اختبار الحيوانات، فالحيوان يرى من يعلمه اللغة يصدر إشارات يديه فيقلدها هو دون وعي، ففي القرن التاسع عشر تمكن فرس من الإجابة على أسئلة حول علم الحساب فقط عن طريق استقاء العون من صاحبه الذي كان يشير له بالإجابة، لذلك عندما نصب مصدر العون أو صاق مجال المساعدة جاء أداء الحيوان سيئاً، أما إذا جاء به بشيء من الصحة فيكرن ذلك من قبيل الصدفة.

نتيجة لذلك النقد عدل بعض الباحثين عن أمر تعليم اللغة للحيوانات، بينما فضل البعض دراسة القدرات الإدراكية العادية لحيواناتهم دون محاولة تعليمها أنواع جديدة من السلوك ، في حين أصر البعض على استكمال ما بدأوه، إلى الآن فالتجارب في هذا المجال مستمرة ولا زال الباحثون يبلغون أن حيواناتهم تمكنت من استيعاب مائتي أو ثلاثمائة إشارة ثم لا يلبث أن يتراجع أداؤهم في نفس النقطة التي يبدأ عندها الطفل إحراز تقدم هائل في تعلمه للغة ، كانت الاستفادة القصوى من كل هذه التجارب هي الخروج بالدليل القاطع الذي يقول أن الهوة واسعة بين السلوك اللفوي للطفل وغيره من الحيوانات الأخرى، أي مازالت اللغة حكراً على البشر وسمة مميزة لهم .

الفصل الثاني

الأساس النحوي

بعد علم النحو من أهم الخصائص التي تميز أية لغة، إنه ببساطة الطريقة التي تجمع بها العناصر الصغرى (كالكلمات) لتكوين عناصر أكبر (كالجمل)، تشتمل كل لغة بشرية على علم النحو بل على العديد من القواعد النحوية، وذلك بلا استثناء لأية لغة من اللغات.

إن اعتقادك بأن بعض اللغات لا تشتمل على قواعد نحوية أو تشتمل على القليل منها لا أساس له من الصحة، فمن نرى أنه حتى اللغات التي نتحدثها أقل الشعوب تقدماً وقصها بعداً عنا في المسافة تشتمل على كم هائل من القواعد النحوية، نستشهد في ذلك بكتاب "جون هايمن" الذي يصف فيه نحو لغة "الهوا" - لغة مستخدمة في قرية نائية بجنوة الجديدة من قبل أناس حجريين لم يتصلوا بالعالم الخارجي إلا منذ عقود قليلة - وهو يحتوي على مئات من الصفحات المكتظة، ومما لا شك فيه أن "هايمن" لم يعلن عن انتهاء ذلك الوصف، بالمثل يصل أكبر وصف لنحو اللغة الإنجليزية إلى عدد ألفين من الصفحات ولم ينته حتى الآن (لا يعني هذا أن اللغة الإنجليزية تشتمل على قواعد نحوية أكثر من لغة الهوا، بل يعني أن نحو اللغة الإنجليزية تلقى من دراسة واهتمام القدر والوقت الأكبر مقارنة بنحو لغة الهوا)، بل الأكثر من ذلك تشتمل اللغات الاصطناعية^(٦) مثل لغة "الإسبرانتو"^(٧) على العديد من القواعد النحوية، في حين أن أنصار تلك اللغات لا يدركون هذه الحقيقة.

يأخذ علماء اللغويات - أخصائيو علم اللغويات أو الدراسة العلمية للغة - على عاتقهم مهمة اكتشاف القواعد النحوية للغات البشرية، أما النحاة فهم علماء اللغويات الذين تخصصوا في دراسة علم النحو، وكل ما يحاول النحاة فعله هو تعريف القواعد النحوية التي تحكم كل لغة.

(٦) لغة غير مبنية على لغات طبيعية .

(٧) لغة مصطنعة معروفة أنها من أنجح اللغات الاصطناعية تتكون مفرداتها من خطط من كلمات مشتقة من اللغات الرومانية والألمانية .

إسبا بحاجة إلى توضيح فكرة القواعد النحوية حيث أُسيء فهمها مراراً، ربما يصدر مدرس اللغة الإنجليزية الخاص بك بعض التحذيرات مثل "لا تُنه الحمّة بحرف حر" أو "لا تستخدم المصدر المنشطر"^(٨) أو "يبغى أن تقول I's a وليس "It's me" (ربما لا يحدث ذلك، فالعديد من المعلمين لا يبدلون جهداً في تدريس قواعد اللغة الإنجليزية هذه الأيام)، لكن العبارات السابقة - سواء كانت مألوفة أو لا - لا تمثل ما نسميه "قواعد اللغة"، إنها مجرد آراء شخصية ترشد إلى الاستخدام الأمثل للغة الإنجليزية وليست بقواعد على الإطلاق.

تختلف القواعد عما سبق ذكره، فعندما تبحث مسألة قيادة السيارة مثلاً نرى أنه عند الضغط على نواصة البنزين تزداد سرعة السيارة، في حين أنه عند الضغط على لقراميل نقل السرعة، أما عند إدارة عجلة القيادة جهة اليسار فإن السيارة تتجه يساراً، تلك بعض قواعد القيادة، أي الطريقة التي تسير بها السيارة والتي لا يمكنك تغييرها.

أما عن بعض النصائح الخاصة بإتقان القيادة فهي كالتالي: توقف عند رؤية الضوء الأحمر، استخدم سرعة من الدرجة الثانية عند الاتجاه لأحد الأركان، زد من سرعة السيارة عندما يتغير اللون إلى الأصفر، لا يوجد ضمان بصحة كل هذه النصائح، مثلها في ذلك مثل اللغة الإنجليزية، فليس هناك ضمان بأن الآراء السابقة وخاصة بالتعامل مع اللغة الإنجليزية هي الآراء الصائبة (سوف نبرهن - بالفصل الثامن - على خطأ هذه الآراء الثلاثة)، على أية حال فإن القواعد الخاصة بنحو اللغة الإنجليزية تختلف تماماً عن مجرد نصائح الاستخدام، والآن دعونا نلقى نظرة على قواعد اللغة الإنجليزية.

ربما يتراءى إلى سمعك أحياناً ما يفيد بأن اللغة الإنجليزية لا تشتمل على كثير من القواعد النحوية، لا يبطوئ هذا القول على أنني قد مر من الصحة، فاللغة الإنجليزية - كأي لغة أخرى - تحتوي على عدد كبير من القواعد النحوية. في الوقت الذي نلتفت فيه إلى تواجد كثير من النهايات تختلف الإنجليزية عن اللغات الأخرى في أنها لا تستخدم النهايات بكثرة من أجل أغراض نحوية، ولكن النهايات تمثل مكوناً واحداً من النحو، كما أنه ليس بالجزء الكبير.

(٨) مصدر مفصل بينه وبين to كلمة really (to really)

قد تصاب باضطراب عندما نقول لك أن اللغة الإنجليزية تشتمل على العديد من القواعد النحوية ربما لأن كلمة النحو تخيفك أو ربما لأنك متدقق بعدم معرفتك لتلك القواعد النحوية على الإطلاق بالإضافة إلى اعتقادك بأنك لن تقوى على استيعابها، إذا تطرق تفكيرك إلى هذا الحد فإن مفاجأة في انتظارك وهي إنك بالفعل تعرف الكثير من تلك القواعد النحوية، بل إنك تعرف الكثير من نحو لغتك بما يقوى ما هو مكتوب في أصدحك لكتب، برحو أن تقوى معنا حتى نثبت لك صحة العبارة السابقة.

سنبدأ بتوضيح بسيط لبعض قواعد اللغة الإنجليزية.

نظر إلى المثال (١-٢)

There's a spider in the bath. (١-٢)

(يوجد عنكبوت في دورة المياه)

لا يوجد ما هو لافت للنظر في هذا المثال إنه جملة إنجليزية عادية تتكون من عدد من الكلمات الإنجليزية، بالرغم من قلة عدد النهايات بالجملة إلا أنها تصمم قاعدة نحوية، لتوضيح الأمر نعيد ترتيب الكلمات على النحو التالي

*Bath the in spider a there's. (٢-٢)

تستخدم النجمة للإشارة إلى وجود خطأ نحوي بالجملة، فالجملة السابقة لا تمت للإنجليزية بنية صلة إنها مجرد لفظ لماد ؟ لوجود خطأ بترتيب كلماتها، يمثل ترتيب الكلمات جزءاً هاماً من النحو الإنجليزي ففي أغلب الوقت يفقد متحدثو الإنجليزية إلى الحرية في اختيار ترتيب الكلمات حيث تلزمهم القواعد النحوية باتباع ترتيب معين، ألو نظرة على ترجمة الجملة (١-٢) إلى اللغة الباسكية

Bainuan armizema bat dago. (٣-٢)

bath-the-in spider a there s. (دورة المياه-الفي عنكبوت يوجد) (ترجمة حرفية)

إن الجملة الباسكية جملة صحيحة تماماً طبقاً للقواعد النحوية لتلك اللغة، إنها تشابه في ذلك مع الصلة الإنجليزية (٢-٢) باستثناء اختلاف بسيط وهو تلك المواصل بين الكلمات الإنجليزية والتي تمثل اللواحق^(٩) في اللغة الباسكية، ماذا لو قمنا بترجمة الكلمات الإنجليزية السابقة بنفس ترتيب كلماتها إلى اللغة الباسكية ؟

(٩) عنصر النحو بهيات الكلمات

*Dago bat armiarma-n-a bainu .

(٤-٢)

ستحول الجملة إلى كلام غير مفهوم طبقا للغة الباسكية، أي أن كلا من اللغتين الإنجليزية والباسكية نشتملان على قواعد تحكم ترتيب الكلمات وتختلف تلك القواعد في كليهما، وبخلاف تباين اللغات في تسميتها للأشياء تتباين أيضا في قواعد النحوية، لنواصل مقارنة اللغتين الإنجليزية والباسكية

John hit Peter.

(٥-٢) ضرب جون بيتر.

جملة إنجليزية أيضا وترجمتها إلى الباسكية هي :

Jonak kepa jo du .

(٦-٢)

(Jon و Kepa هما الترجمة الباسكية لكل من "جون" و "بيتر"، أما jo du فهي ترجمة لفعل "is" يكون) أي أن الترجمة الباسكية الحرفية تعني جون بيتر ضرب وهي شيء مستحيل تواجد في اللغة الإنجليزية، أما عند تبديل موضع الأسماء

Peter hit John.

(٧-٢) ضرب بيتر جون.

تتكون جملة إنجليزية صحيحة تختلف في المعنى عن الجملة (٥-٢)، ماذا لو بدلا موضع الأسماء في الجملة الباسكية ؟

Kepa Jonak jo du .

(٨-٢)

تتكون جملة باسكية صحيحة أيضا ولكنها لا تعني "ضرب بيتر جون" بل تعني نفس المعنى السابق بالجملة (٦-٢) "ضرب جون بيتر" (الترجمة الأمثل للجملة هي إنه جون الذي ضرب بيتر)، لا تعبأ اللغة الباسكية بترتيب الكلمات لأن - بخلاف اللغة الإنجليزية - النهايات النحوية تستخدم بها بكثرة وذلك لخدمة الأغراض النحوية، توضع النهاية ek - في الأمثلة السابقة - الموجودة في الاسم "Jon" أن "Jon" هو الذي يقوم بفعل الضرب وليس "Kepa" ولذلك يستطيع متحدث الباسكية تمديد موضع الكلمات دون المساس بالمعنى، أما اللغة الإنجليزية - بافتقارها لتلك النهايات - تستخدم ترتيب الكلمات لخدمة الأغراض النحوية، ومن هنا فاللغة الإنجليزية أكثر التزاما باتباع قواعد ترتيب الكلمات عن اللغة الباسكية.

لنترك الآن اللغة الباسكية ونعبر النظر قليلا في قواعد اللغة الإنجليزية

قاعدة نحوية إنجليزية :

تتمثل الجمل الأربعة التالية، والتي تتكون من نفس الكلمات وتتشابه ظاهريا في تركيب

بعد أن استيقظت ليزا أخذت حماما. (٢-٩) After Lisa got up, she had a shower

أخذت ليزا حماما بعد أن استيقظت. (٢-١٠) Lisa had a shower after she got up .

بعد أن استيقظت أخذت ليزا حماما. (٢-١١) After she got up, Lisa had a shower .

أخذت حماما بعد أن استيقظت ليزا. (٢-١٢) She had a shower after Lisa got up .

ربما تشير كلمة "she" (هي) إلى شخص ما غير مذكور بالجمل السابقة، وسؤال هنا هو أي من هذه الجمل الأربع تشير (هي) إلى "ليزا" ؟

بالطبع لن تأخذ منك الإجابة وقتا كثيرا قبل النطق بها، والتي ستكون على النحو التالي من المحتمل أن تشير (هي) إلى "ليزا" في الأمثلة الثلاث الأولى وليس المثال الأخير، أليس كذلك ؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا المثال الأخير بالذات ؟ إنه موضوع نحوي بحث، فهناك قاعدة نحوية إنجليزية تحكم استخدام كلمات مثل (هي) والمُسَمَّاة بالضمائر، فهذا أريد أن تستخدم (هي) للإشارة إلى "ليزا" في المثال (٢-١٢) ستكون قد أخذت القاعدة في حين إذا استخدمتها في الأمثلة الثلاث الأخرى فلا غبار عليك في ذلك.

لنا هذه المرة بصدد مناقشة قاعدة نحوية فعلية وليس مجرد رأي شخصي، أي إننا نتعمد الطريقة التي تفسر عليها اللغة الإنجليزية، من المؤكد أنك لم تتعلم القاعدة لسبب طريقة مباشرة، كما أنه من المؤكد أيضا أنك لم تلاحظها أو تفكر فيها من قبل، ورغم وجود هذه القاعدة باللغة منذ قرون لم ينجح أحد في صياغتها حتى تمكن عالم اللغويات الأمريكي "روبالد لانجكر" من ذلك في عام ١٩٦٩، علاوة على ذلك فانت تطبق هذه القاعدة أنوماتيكيا بمجرد تحدثك للإنجليزية أو سماعك لها، وتبعا لذلك، على سبيل المثال - لا تفكر أبدا في استخدام "هي" للإشارة إلى "ليزا" في الجملة (٢-١٢)، أي إنك تعرف القاعدة وتطبقها بالرغم من عدم تمكنك من صياغتها، فمثلا بعد مرور عدة القنادل حرا من السيارة تعد أيضا القواعد النحوية جريا من اللغة.

السؤال هنا ما هذه القاعدة ؟ لا شك أنك متلهف لمعرفة معناها ولكن قبل أن نقدمها يجب أن نحذرك من خيبة الأمل التي قد تصيبك عند معرفتها. إنها كالتالي

(٢-١٣) لا يجب أن يتقدم التابع على متبوعه أو يسبقه.

لأنك تعرف معنى كلمة (يسبق) ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في الكميات (التابع)، و(يتقدم)، و(المتبوع أو الاسم الذي يعود إليه الضمير)، ترى ما السبب وراء تقديمنا لهذه القاعدة بتلك الطريقة الغامضة ؟ لماذا لا نضعها بلغة إنجليزية بسيطة ؟ السبب الرئيسي هو صعوبة الصياغة بلغة واضحة، لكن بالرغم من تلك الصعوبة لا زال أمامنا محاولة لتقديم رؤية أكثر وضوحاً فيما يلي .

(٢-١٤) إن كلمة (مثل هي) والتي نتخذ معناها بالكامل من كلمة أخرى هي نفس الجملة (مثل ليزا) لا يمكن لها أن تأتي قبل هذه الكلمة الثانية إذا تواجدت تلك الكلمة الثانية داخل عبارة فرعية أو تابعة^(١٠)

هل وضحت الصورة الآن ؟ في الحقيقة تقل هذه الرؤية وضوحاً عن الرؤية الأصلية، فهي أطول وأكثر في عدد الكلمات وأقل تركيزاً كما أنها أقل دقة لاقتحامها لبعض التفاصيل الهامة، لكن على أية حال ربما تتجلى لك الفكرة في حال معرفتك بمعنى العبارة الفرعية، والتي هي مصطلح نحوي مثل التابع والمتبوع، وإن كان أقدم منهما بكثير إلا أن ذلك لا يمنع كونه مألوفاً لك، أما إذا كان هذا المصطلح غير مألوفاً لك فلا شك أنك ترعب في معرفة المزيد من التفاصيل عنه، لكن الأمر ليس بسيطاً، فكي نشرح معنى العبارة الفرعية يجب أن نشرح أولاً معنى العبارة، ولكي نشرح معنى العبارة يجب أن نشرح أولاً معنى الفعل المصروف أو الفعل غير المصدرى، ولكي نشرح معنى الفعل غير المصدرى يجب أن نشرح أولاً معنى الفعل، وهكذا.

لأنك قد أدركت الآن حجم المشكلة، والتي تخلص هي أن قواعد اللغة أمر معقد ومتداخل التركيب، فهي تبدأ في العمل من خلال بعض الأفكار والطبقات التي يتم تعريفها من خلال أفكار وطبقات أخرى والتي بدورها تعرف بنفس الطريقة، لذا فإن الطريقة الوحيدة التي يمكنك بواسطتها البحث وإحراز النتائج هي علم النحو هي لعدد معدود مناسب من المصطلحات الرئيسية واستخدامها في تعريف مصطلحات أخرى

(١٠) العبارة التي تعتمد على الجملة الأساسية

و لنرى دورها تصبح متاحة لتعريف مصطلحات أكثر تعقيدا، وهكذا، إننا لو أردنا تبديل مصصح العبارة القرعنة بالمثال (٢-١٤) بتعريف كامل له يمكننا من تبسيطه لأقصى درجة ممكنة سيأخذ ذلك منا صفحة كاملة يكون من الصعب مراعاتها، إذن ما مصطلحات الفنية لا يمكن العمل بدونها شريطة أن تكون مصطلحات مناسبة.

من هذا المنطلق لا تعد دراسة علم النحو أو اللغة بصعوبة عامة مختلفة عما عداها من الدراسات الأخرى ذات الأهمية، فأتى شخص يدرس الفيزياء أو الموسيقى أو علم النفس أو علم الوراثة أو أي فرع من فروع العلم المعقدة يكون ملزما بإعداد طلبات متزايدة من الأفكار والتصويرات المعقدة ثم يعطيها أسماء معينة أو ما نسميه بالمصطلحات الفنية، وبخلاف ذلك يصبح الأمر كله إخفاقا لا غير

جدير بالذكر أن العديد من الناس الذين يسمعون بالحقيقة السابقة ويطبقونها على علوم مثل الفيزياء والموسيقى يرفضون تطبيقها على دراسة اللغة وحجتهم في ذلك هي أن علماء اللغويات (وبخاصة النحاة) يحاولون عامدين أن يزيدوا من غموض دراستهم بإضافة الكثير من الرموز المبهمة، هؤلاء الناس يتبنون فكرة تذهب إلى أن النحو أمر بديهي" ويسلمون باستطاعتنا أن نقول كل ما نريده "بلغة إنجليزية بسيطة"، هؤلاء الناس مخطئون، فاللغة ليست سهلة وكذلك علم النحو، كما أن النحويين لا غنى لهم عن مصطلحاتهم مثلهم في ذلك مثل عالم الفيزياء السورية.

كل ما في الأمر أن أهمية تلك المصطلحات الفنية تكمن في استخدامها لصياغة لقواعد النحوية، إنك غالبا لا تعرف كل هذه المصطلحات ولكنك بالفعل تعرف كثيرا عن لقواعد النحوية الإنجليزية، فأنت تعرف - على سبيل المثال - قاعدة "لأنجاكر" وتتبعها عند حديثك أو عند استماعك لأشخاص آخرين، أليس ذلك شيئا مستمعا ؟ هل لازلت تعتقد أنك لا تعرف شيء عن القواعد النحوية الإنجليزية ؟

من معرفة التحدث بأي لغة تماثل تماما معرفة قيادة الدراجة أو التزحلق على الحديد أو ربط رباط الحذاء، مع العلم بأن التحدث يفوق تلك الأمور تعقيدا، إنك - كما ذكرنا من قبل - باستطاعتك تطبيق كافة القواعد النحوية وإن كنت تجهل طريقة صياغتها، إنك تستطيع قيادة الدراجة بكفاءة بدون معرفتك لسبب سيرها، فهذه وظيفة لغويين الذي يقوم بإعداد مجموعة من المصطلحات والمعادلات من أجل تعريفك عما تعمل بنفس الطريقة علوم اللغوى بإعداد مجموعة من المصطلحات الفنية حتى يصف لك بدقة ما تفعله عند حديثك باللغة الإنجليزية.

دعونا نؤكد على نقطة واحدة قبل الانصراف عن قاعدته لانجاكر وهي أن لانجاكر يختلف عن تلك المنظم الذي يخبرك بالآلة تستخدم المصدر المشطر، فهو لا يعبر عن رأيه في أي شيء إنه لا يقترح عليك أن تستخدم قاعدته نظرا لأهميتها، ولا سيهت إلى أن الناس سوف يحقرون من شأنك إذا لم تتبعها، إنه ببساطة يصنع قاعدة موجودة فعلا في اللغة الإنجليزية ويستخدمها كل متحدثيها، أي إنه اكتشف حقيقة ما بشأن اللغة الإنجليزية . قاعدة نحوية إنجليزية كانت في انتظار من يكتشفها، بالبيع لم يكن لانجاكر الشخص الوحيد الذي لاحظ اختلاف المثال الأخير عن الثالث لأول، ولكنه كان الشخص الوحيد الذي أشار إلى ما يجري، وهذه الإشارة هي كل ما يفعله علماء اللغويات.

قاعدة أخرى :

إننا الآن بصدد الحديث عن قاعدة أخرى حتى لا يرد إلى ذهنك أن قاعدة لانجاكر حالة خاصة، تسمى هذه القاعدة بقاعدة روس نظرا لأن عالم اللغويات الأمريكي جون روس هو أول من قام بتعريفها عام ١٩٦٧، انظر إلى الجملة البسيطة التالية .

(١٥-٢) اشترت ليزا سيارة. Lisa bought a car. (2.15)

لا تشتمل الجملة على شيء غير عادي كما يبدو، الآن سنكون سؤالا عن كلمة 'سيارة' باستخدام العبارة "which car" أي سيارة

(١٦-٢) أي سيارة اشترتها ليزا ؟ Which car did Lisa buy ? (2.16)

توضح الجملة السابقة الطريقة المتبعة في تكوين الأسئلة في اللغة الإنجليزية والتي تعد أمرا غاية في التعقيد . تأتي العبارة أي سيارة في بداية الجملة بينما تأتي 'سيارة' في نهاية الجملة. تظهر الكلمة "did" (التصريف الثاني للفعل "do" يفعل) استخدم الفعل "buy" (يشترى) بدلا من "bought" (اشترى). إذا كنت لا تعرف مدى تعقيد العملية السابقة عليك بسؤال شخص يتعلم الإنجليزية كلغة أجنبية عن مدى الصعوبة، لا تهتم قاعدة روس بطريقة تكوين الأسئلة بل بالأحرى تهتم بالطروقات التي عندما يمكن صياغة السؤال، فلتتبع الطريقة السابقة مع الأمثلة الآتية

(2.17) Tim said Lisa told him Larry bought a car.

(١٧-٢) قال تيم أن ليزا أخبرته بأن لاري اشترى سيارة.

(2.18) Which car did Tim say Lisa told him Larry bought yesterday ? (١٨-٢)

أية سيارة التي قال تيم "لليزا" أن "لاري" اشتراها بالأمس ؟

(2.20) (She was describing a car to the police when it suddenly drove (١٩-٢)

past

(2.19) عندما كانت تصف السيارة للشرطة فوجدت بها تمر أمامها .

Which car was she describing to the police when it suddenly (٢٠-٢)

drove past ?

(2.20) أية سيارة مرت أمامها في أثناء وصفها لها .

(2.21) The guests who arrived in a car are ready to go home . (٢١-٢)

إن الضيوف الذين أتوا في سيارة مستعدون للرحيل .

"Which car are the guests who arrived in ready to go home ? (٢٢-٢)

أية سيارة الضيوف الذين حضروا بها مستعدون للرحيل ؟

ثمة خطأ حدث بالجملة الأخيرة، لكن لماذا حدث هذا الخطأ ولماذا جاءت الجملة

(٢٢-٢) غير صحيحة نحويًا برغم اتباعنا لكل القواعد اللازمة لتكوين الأسئلة ؟

إننا في ركاب عملنا لصياغة القواعد الخاصة بتكوين الأسئلة في اللغة الإنجليزية (لن نفعل هذا الأمر الآن) نكون ملزمين بتعقيد تلك القواعد عن طريق إضافة بعض الفقرات، ولكن يستثنى من ذلك الجملة (٢٢-٢) التي يكون من الصعوبة بمكان تكوين سؤال بها، إذ في ما الحالات التي تتشابه مع الجملة (٢٢-٢) ؟ لماذا تختلف تلك الحالات وتتميز عما عداها ؟

هذا هو السؤال الذي نجح "جون روس" في الإجابة عليه عام ١٩٦٧، سنذكر قاعدته فيما يلي وبذكرك بالأثر عليك :

(٢٢-٢) ما العبارة الاسمية المعقدة إلا جزيئة .

مرة أخرى تظهر المصطلحات الغامضة وتظهر معها مشكلة تفسيرها، فكي شرح المقصود بالعبارة الاسمية المعقدة يجب أن نشرح أولاً المقصود بالعبارة

الاسميه، ولكي يتسنى لنا ذلك يجب أن نفسر المقصود بكل من الاسم والعبارة، ونُص
لكي مشرح معنى الحزيره يجب أن نشرح أولا المقصود بالتبعية ، من المؤكد أن
لصورة قد تحلت لك الآن كاملة، أما نحن بدورنا فما علينا إلا تقديم صياغة تقريبية
لقاعدة "روس" باستخدام لغة إنجليزية بسيطة وإن كانت غير كافية

(٢-٢٤) لا يمكنك السؤال عن شيء ما بداخل جملة الوصل.

إذا كنت تعرف المقصود بجملة الوصل (هي مصطلح هنى قديم) فإنه يمكنك
فهم أن العبارة "سيارة" تقع بداخل جملة الوصل الذي حضر بالسيارة، إذ تكون
لجملة (٢-٢٢) غير صحيحة نحويا طبقا لقاعدة "روس"، أما إذا لم يتسنى لك معرفة
المقصود بجملة الوصل فتقبل كلامنا كما هو لأنه ليس لدينا متسع من الوقت لشرح
المريد من القواعد النحوية.

إن تفسيرنا لقاعدة "روس" بالجملة (٢-٢٤) لا يسير في جميع الأحوال، انظر إلى
المثال التالي

(2.25) The rumor that John has stolen a car is completely untrue.

(٢-٢٥) الإشاعة القائلة بأن "جون" سرق سيارة غير صحيحة بالمرة.

(2.26) Which car is the rumor that John has stolen completely untrue ?

(٢-٢٦) أية سيارة الإشاعة القائلة بأن "جون" سرق غير صحيحة بالمرة ؟

كما يبدو بوضوح فإن الجملة (٢-٢٦) غير صحيحة تماما بالرغم من عدم تواجد
أى جمل وصل، إن هذه الحالة الجديدة هي السبب في احتواء قاعدة "روس" على
مصطلح "الجملة الاسمية المعقدة"، كما أنها السبب في اعتنا تفسيرنا السابق
(٢-٢٤) غير كاف.

تأكيدا على كلامنا السابق نقول إنك تعرف قاعدة "روس" بدليل أنك لا تسأل
سؤالا مثل (٢-٢٢)، وإذا حدث وأخطأ أحد الذين يتعلمون الإنجليزية كلغة أجنبية مثل
هذا الخطأ فإنك سوف تلاحظه على الفور، مرة أخرى نتذكرك بأن هذه القاعدة ليست
وجهة نظر شخصية إنها قاعدة نحوية لا محيص عن اتباعها.

إن قاعده "انتجاكر" (المسماة بحالة التاسع والمتنوع) وكذلك قاعده روس (حالة
العبد بانجمله الاسمعة المعقدة) ما هما إلا قاعدتان من العديد من القواعد التي تتحد
وتتفاعل حتى تكون علم النحو الإنجليزي برمته، تتواجد كل تلك القواعد في السعة ولا
تحلبها سوى الأبحاث المضنية والمثقة من قبل علماء النحو على مر العصور، وهذا ما
فعله كل من "انتجاكر" و"روس" أسهموا بجهودهم في وصف نحو النحاة الإسطرية
والذي لم يكتمل حتى يومنا هذا، من يدري ربما مكتشف بعض عارثي كتابا هذا قواعد
نحوية تسمى باسمهم ؟

الفصائل النحوية :

ينقسم علم النحو في أية لغة إلى عدد معين من الفئات والوحدات والأشكال تسمى
بالفصائل النحوية، تنقسم هذه الفئات بدورها إلى العديد من الأنماط المختلفة،
لا يسعنا الوقت هنا إلا للحديث عن فصيلة واحدة من هذه الفصائل ويمكن اعتبارها
كمثال، بداية نقول أن البناء المعجمي لأية لغة يشتمل على عشرات من الآلاف من
الكلمات، ونؤكد هنا على كلمة أية لغة، لأن بعض الاعتقادات الغربية - القائلة بأن بعض
لمجتمعات البشرية تستخدم عدداً قليلاً من الكلمات المستمدة من الإشارات والأصوات -
تظهر من حين لآخر نتيجة لسوء الفهم والجهل والأحكام العامة السريعة.

بالرغم من ذلك تقع كلمات أي لغة في عدد ضئيل من الفئات والتي تسمى
بالفصائل المعجمية أو فئات الكلمة أو أجزاء الكلام، إذن كم يبلغ عدد تلك الفصائل
المعجمية ؟ تبغ هذه الفصائل في اللغة الإنجليزية حوالي خمس عشرة فصيلة لأن لرقم
بعض ما زال محل نقاش، من بينها تلك الفصائل التقليدية كالاسم والفعل والصفة
وحرف لحر والتي تم تعريفها من قبل النحاة اليونانيين منذ آلاف السنين، كما نجد
أيضا الفصائل الحديثة التي تم تعريفها في القرن العشرين ومن أمثلتها المكملات (مثل
إيا) والمحددات (مثل الـ وهذا).

كيف يمكن تحديد الفصيلة التي تنتمي إليها كلمة ما ؟

حاول النحاة التقليديون الإجابة على هذا السؤال مرارا عن طريق إيراد معانٍ
لكلمات، وأعدوا طبعاً لذلك تعاريف مثل "الاسم هو إما اسم إنسان أو مكان أو شيء".

الصيغة هي الكلمة التي تدل على كصفة، هذه المعارف لا توحي بالعرض، فطيف لإحداها تصف كلمة "red" أحمر كاسم، في حين أنها في الجملة "Lisa bought a red skirt" اشتريت ليزا جوبلة حمراء بعد صفة، تواجه كل التعريفات القائمة على المعنى نفس المشكلة لأن الفصائل المعجمية في الواقع لا تعتمد على المعنى بأي حال من الأحوال إنها فصائل نحوية واذلك يجب تعريفها سعا لخصائصها النحوية.

إس كيف يمكن تعريف تلك الفصائل المعجمية طبقا لخصائصها النحوية؟

نقدم فيما يلي بعض الافتراضات يمكن استخدامها في تعريف فئة الاسم.

أولا : للأسماء خصائص توزيعية محددة ، فهي تتحقق في مواقع معينة بالجملة لا تتحقق في غيرها، تأمل المثالين التاليين

(٢٧-٢) كان ظريفاً The was nice. (2-27)

(٢٨-٢) كانوا طرما The were nice . (2-28)

يجب أن تكون الكلمة التي تحل محل الفراغات في الجمل السابقة أسماء، لأن النحوي الإنجليزي يسمح للأسماء بون غيرها باحتلال المواقع السالفة الذكر، لهذا يمكن لكلمات "خمر ، عشب ، كتاب ، نمار ، تقدم ، امتحان" أن تحل محل الفراغ بالجملة الأولى، في حين تأتي كل من الكلمات كذب ، مقص ، بوليس ، خراف ، ظوهر بالجملة الثانية، كل هذه الكلمات تعد من الأسماء، (يرجع السبب في احتيار لنموذجين من الكلمات إلى تداخل فئة الاسم مع فئة أخرى سيتم مناقشتها فيما يلي)، هناك كلمات أخرى لا يمكن أن تحل محل الفراغات وبالنسبة لا يمكن اعتبارها من لأسماء ومن أمثلتها "سعيد ، يصل ، مع ، ال ، يبطه ، لذلك".

ثانياً للأسماء خصائص تصريفية معينة، فشكلها يتغير داخل الجملة طبق للأغراض النحوية، تعد حالتى المفرد والمذكر من أهم الحالات التي يظهر فيها شغير أو التسوع - في الأسماء - من بين هذه الحالات - "dog / dogs" (كلب / كلاب)، "box / boxes" (صندوق / صناديق)، "library / libraries" (مكتبة / مكتبات)، "child / children" (طفل / أطفال) "radius / radii" (نصف قطر / أنصاف أقطار)، "person / people" (شخص / أشخاص). لاحظ أن الأشكال المفردة تصلح للمعنى مع الجملة (٢٧ ٢) بينما تصلح الأشكال الجمع للمعنى مع الجملة (٢٨-٢).

حصير بالذكر أنه بعض الأسماء الإنجليزية لا تمتلك هذين الشكلين - المفرد والجمع - فالأسماء مثل "wheat" (قمح)، furniture (أثاث)، "spaghetti" (اسباجتى) بها شكل مفرد فقط، بينما للأسماء مثل "oats" (شعير)، "police" (بوليس)، "pants" (سروال)، "scissors" (مقص) شكل واحد فقط وهو الجمع، تعد كل هذه الأسماء دالرمع من ذلك أسماء عادية بغض النظر عن التغيرات الطفيفة التي تتناولها.

ثالثاً - للأسماء خصائص اشتقاقية معينة - أى يمكن تزويدها ببعض السوابق^(١١) و اللاحق لاشتقاق كلمات أخرى منها، ودائماً تكون هذه الكلمات من فئات معجمية مختلفة، على سبيل المثال لا الحصر تضاف اللاحقة -like لتكوين الأسماء لتكوين صفات مثل "dog / doglike" (كلب / شبيه بالكلب)، "box / boxlike" (صندوق / شبيه بالصندوق)، "child / childish" (طفل / طفولى)، "spaghetti / spaghetti like" (اسباجتى / شبيه بالاسباجتى) (ربما لا نسمع هذه الكلمة فى الحياة اليومية ولكنها تروق لكاتبنا كثيراً)، على الجانب الآخر يمكن إضافة السابقة un لبعض الصفات مثل "happy / unhappy" (سعيد / غير سعيد)، "interesting / uninteresting" (ممتع / غير متمتع)، بينما لا يحدث ذلك فى بعض الصفات الأخرى مثل "dog / undog" (كلب)، "joy / unjoy" (فرح)، "oats / unoats" (شعير)، "destruction / undestruction" (دمار)، (كما اعتدنا تشير النجمة إلى شكل غير صحيح نهوياً).

نجد النحويين بجدارة فى تعريف الخصائص المختلفة للفصائل النحوية الإنجليزية الخمسة عشر مع وجود خلافات على بعض التفاصيل البسيطة، ظهر - فى خضم عمل النحويين - اكتشاف ظريف يذهب إلى أن عدداً قليلاً من الكلمات الإنجليزية لا ينتمى إلى أية فصيلة بالمرّة، من هذه الكلمات "please" (من فضلك)، "not" (لا)، "to" المصدرية بصفة خاصة والتي تتحقق بالمثال "I want to be alone" (أريد أن أكون بمفردى)، تمثل تلك الكلمات سلوكاً نحوياً مختلفاً تماماً؛ لذلك لا يمكن لها أن تحتص بعنة معجمية معينة، اعتاد بعض النحويين التقليديين خطأً أن يطلقوا على أمثال هذه الكلمات "أحوال" هذا لأنهم استخدموا فصيلة "الأحوال" كسلة مهملات لكل الكلمات المحولة العصبيلة.

(١١) طريقة لتكوين الكلمات عن طريق إضافة بعض العناصر قبل أصل الكلمة

فصلة العدد :

تتداخل فصلة الاسم كما ذكرنا آنفاً - مع فصلة أخرى يطلق عليها فصلة العدد، وهي فصلة هامة في اللغة الإنجليزية بخلاف الفصلة المعجمية، تتداخل فصلة العدد مع مصطلح معجمية معينة وتؤثر في أشكالها في حمل بعينها، فنحن نعرف أن العدد يظهر تأثيره جلياً على الأسماء، وقد رأينا فيما سبق أن معظم الأسماء الإنحليزية تأتي في صيغة المفرد والجمع، في حين تأتي البقية الباقية في شكل واحد، بالطبع يتحدد اختيار أحد الصيغتين وفق العدد المقصود.

(2-29) The dog is hungry. الكلب جوعان.

(2-30) The dogs are hungry. الكلاب جائعة.

يبدو واضحاً في المثال (2-29) أن الحديث يقصد به كلب واحد بينما يبلغ عدد الكلاب في المثال (2-30) اثنان على الأقل وربما أكثر من اثنين، لكن الأمور لا تسير دائماً حسبما نتوقع

(2.31) The dog is clearly related to the wolf .

(2-31) بتشابه الكلب إلى حد كبير مع الذئب.

يتجلى لنا عند قراءة المثال (2-31) أن الحديث لا يقصد به كلب واحد بل كل فصيلة الكلاب بالرغم من استخدام صيغة المفرد، نستنتج من ذلك أن استخدام صيغة المفرد تكون إجبارية عند الحديث عن فرد واحد وتكون اختيارية عند الحديث عن كل الأفراد.

علاوة على ذلك يظهر في فئة العدد بعض الحالات الخاصة، تظهر كلمات مثل "scissors" (مقص)، "pants" (سروال) مفردة ولكنها في الواقع كلمات جمعية ليس لها صيغة مفردة على الإطلاق

(2-32) "This scissor(s) is very sharp . هذا المقص حاد .

(2-33) "This pant(s) is nearly dry . هذا السروال جاف تقريباً .

تأتي كلمة "bra" (صدرية التينين) في صيغتي المفرد والجمع، ترى ما الفرق بين هذه الكلمة وبين كلمة "pants" (سروال) التي تأتي جمعاً دائماً ؟ لا سحب سوى أن

هذه سمة مميزة في اللغة الإنجليزية يقابلها سمة أخرى تتمثل في كلمة "furniture" (أثاث)، عند الحديث عن "أثاث الغرفة" يكون المقصود عدة عناصر مختلفة ورغم هذا تأتي الكلمة دائماً مفردة

(٢٤ ٢) ذلك الأثاث بديع حقاً . These furniture(s) are rather nice . (2-34)

مبدأ عن كلمة "grain" (عشب) ؟ هل عند النظر إلى حقل مليء بالعشب يكون المركب على عنصر واحد أم عدة عناصر ؟ الإجابة هنا منهمة لأنه عند الحديث عن العشب يكون من الصعب التفرقة بين عنصر أو عدة عناصر، ولكن النحو الإنجليزي يفرص علينا اختيار صيغة عددية لكل كلمة فلا يسعنا سوى الاختيار اعتباطياً كلمة "wheat" (قمح) مفردة بلا جمع، كلمة "oats" (شعير) جمع بلا مفرد، كما رأينا يجب أن تأتي كل كلمة إما جمعا أو مفردا ولا مفر من الاختيار.

نخلص مما سبق أن فصيلة العدد تؤثر على أشكال كلمات بعضها، فمتى توجد الفصيلة يتتبع ذلك ظهور الكلمة في إحدى الصيغتين - المفرد أو الجمع - ولا مفر من حدوث ذلك.

السؤال الآن هو هل فئة العدد عالية ؟ الإجابة هنا لا، معظم اللغات الأوروبية تتشبه مع اللغة الإنجليزية في وجود صيغتين المفرد بها، (بجد - مع وجود اختلافات طفيفة - أن الكلمة الفرنسية التي تعني "سروال" تأتي في كلتا الصيغتين، وكذلك الكلمات الإسبانية المرافقة لكل من "الهلون"^(١٢) و"السباح"، أما الكلمة اليابانية التي تعني "كرنب" تأتي في الجمع فقط، أما "عيب" فتأتي مفردة فقط.

تفتقد بعض اللغات فصيلة العدد تماماً، أو على الأقل لا تتمثل هذه الفصيلة في أسماء بعض اللغات، فعلى سبيل المثال لا تميز اللغات اليابانية أو الصينية بين المفرد والجمع، وبالمثل اللغة "المالية" (اللغة الرئيسية في ماليزيا)، لا تعتبر فصيلة العدد في تلك اللغات جزءاً من النحو، أما إذا اقتضت الضرورة ظهورها فتستخدم للدلالة عليها كلمات مثل "واحد"، "اثنان"، "كثير".

على النقيض من اللغة الإنجليزية تمتلك بعض اللغات نظام مفصل لفصيلة العدد، فمثلاً تمثل في اللغة العربية نظام ثلاثي العدد بالأسماء : المفرد والمثنى والجمع "هناك"

(١٢) ساء، توكيل، سيقان

"مالكان" "مالكون"، تضيف اللغة الباسيفيكية اللاركية صيغة رابعة هي الصمائر فقط وليس في الأسماء: "mane" (هو أو هي) - "manam" (هما الاثنان) "matido" (هم الثلاثة) "matl" (هم) (للأربعة فلكثر)، يمثل في لغة شرق إفريقيا "تيجر" ثلاثة صيغ مختلفة للأسماء: المفرد والجمع و "paucal" أو الجمع القليل - "tarāa" (حصال)، (حبول قليلة) (خيول) ، (تدل في الكلمات السابقة على الهمزة)، أخيرا بقول أن لغة لها مطلق الحرية في تكوين الصيغ العديدة الخاصة بها أو تجاهها على الإطلاق وننقلص مساحة هذه الحرية في حالة تواجد تلك المصغ بالفعل في نحو هذه اللغة، ويلزم اتباع تلك الصيغ اتباعا دقيقا.

النوع :

يعد النوع من أهم الفصائل النحوية وأكثرها غرابة، نظرا لأنه من أكثر الفئات التي يصعب تفسيرها، فإننا سنحاول توضيح معناه قليلا.

تنقسم الأسماء في كل اللغات التي تتمثل فيها فصيلة النوع - قليل من اللغات يتمثل فيها ذلك - إلى قسمين أو أكثر تسمى أقسام النوع، يختلف السلوك لتحوي من قسم إلى آخر اختلافا ملحوظا.

تشتمل اللغة الفرنسية على متين من النوع المؤنث والمذكر (قد تكون المسعيت خادعة في بعض الأحيان)، يظهر الاختلاف بين هاتين الفئتين نحويا في عدة جوانب، فعلى سبيل المثال تستخدم أداة التعريف الفرنسية "le" أمام الاسم المنكر بينما تستخدم الأداة "la" أمام الاسم المؤنث، فبما لذلك توضع أداة التعريف "le" أمام كلمة "livre" (كتاب) باعتبارها كلمة منكورة، في حين توضع أداة التعريف "la" أمام كلمة "table" (منصدة) باعتبارها كلمة مؤنثة، تتبع كل كلمة من كلمات اللغة فئة واحدة من هاتين الفئتين، انظر الكلمات الآتية "le chien" (الكلب)، "le mot" (الكلمة)، "le bit" (leck) (اللحم)، "le mystère" (الغموض)، "la maison" (المسزل)، "la voiture" (لسيارة)، "la moutarde" (المسطربة)، "la découverte" (الاكتشاف).

يرجع السبب في تصفية النوع بهتين المسعيتين إلى أن معظم الأسماء التي تدل على المذكر تنتمي إلى فئة النوع المذكر وبالمثل تنتمي معظم الأسماء التي تدل على المؤنث إلى فئة النوع المؤنث، تتكون كل من الكلمات "homme" (رجل)، "taureau"

(ثور) ، "maître" (سيد) منكرة، وتكون كل من "femme" (امرأة)، "vache" (بقرة)، "maitresse" (سيدة) كلمات مؤنثة، لكن هذا التناقض لا يسير دائماً، فكل من "sentinelle" (حارس أو حير) مؤنثة مع العلم بأن الغالبية العظمى من الحفراء رجال، على الجانب الآخر تكون كلمة "contralto" (المرنة)^(١٣) منكرة في حين أن كل المرباب من لساء، على أية حال لا تنتمي الغالبية العظمى من الأسماء الفرنسية إلى منه المذكر أو المؤنث، بل تنتمي إلى فئة أو أخرى على أساس اعتباطية - اعتباطية من حيث معانيها، أي أنه ليس هناك سبب رئيسي يجعل كل من، كتب، كلمات، غصوص كلمات مذكرة، أو كل من سيارات، مصطربة، اكتشافات مؤنثة.

نخلص مما سبق أنه لا توجد علاقة خاصة بين الجنس والنوع، فالعلاقة وثيقة بين الجنس وعلم الأحياء، بينما يختص التحو بالجنس ولا يوجد سبب يجعل كلاً من النوع و لجنس مرتبطين اللهم إلا بعض الطرق الواهية غير المترابطة ، والتي نجدها باللغة الفرنسية.

كما رأينا لا توجد أية علاقة بين الجنس والنوع في كثير من اللغات، وأكثر من ذلك قد لا توجد علاقة بين المعنى والجنس بالمرّة، تتضمن اللغة الإفريقية السواحيلية - على سبيل المثال - ثمانية فئات للنوع تنتمي معظم الأسماء الدالة على البشر من الجنسين إلى فئة نوعية واحدة يطلق عليها الفئة رقم واحد وتصم هذه الفئة أيضاً معظم أسماء الحيوانات، تشتمل الفئة الثانية على العديد من الكلمات الدالة على الأشياء ذات الحجم الكبير، في حين تشتمل الفئة الثالثة على الأشياء الصغيرة الحجم، بالرغم من ذلك نجد أن الجنس في اللغة السواحيلية لا يرتبط بالنوع على الإطلاق ويكاد يكون ارتباطه بالمعنى لا يذكر، لذا فعلاقاته بالنوع والمعنى اعتباطية وغير متوقعة.

تشتمل لغة "نافاهو"^(١٤) - لغة أمريكا الشمالية - على عشر فئات للنوع، في هذه اللغة يمكن التنبؤ بالجنس عن طريق المعنى بينما لا يلعب النوع أي دور في ذلك، تنقسم فئة النوع إلى فئة للكائنات البشرية وأخرى للسوائل وثالثة للأشياء المستديرة كالحجارة ولكرات ورابعة للأشياء الطويلة كالأقلام وخامسة للأشياء الطويلة المرنة كالخبال ولأحرمة وهكذا.

(١٣) سطرية لها صوت رنان .

(١٤) لغة مستخدمة في الأورويا

أما اللغة غير الأوروبية التي لا يوجد بها علاقة بين الجنس والنوع فهي لغة الأسرالية "بيريل"، سنتلقى فيما يلي نظرة على فئة النوع الشهيرة والحديثة بالاهتمام في اللغة الأسرالية، تشمل تلك اللغة على أربع تصنيفات للنوع من السهل توقعها، معرفة بعض المعلومات، فيما يلي ملخص لمجموعات الكلمات التي تنتمي لكل تصنيف

النوع (١)	النوع (٢)	النوع (٣)	النوع (٤)
الرجال. الكنغر. الأبوسوم. العنقاء. معظم الثعابين. معظم الأسماك. بعض الطيور. معظم الحشرات. القمر. العواصف، قوس. قزح. حرب المراك. حرب الصيد.	النساء. البندقية (١٥). الكلاب. منقار البط. الثعابين الخطيرة. الأسماك الخطيرة. معظم الطيور. القرش، الصراصير. العقارب. بعض الحشرات القرمزية. كل الكلمات المرتبطة بالنار والماء. والشمس والمجسم. القروش. البياتات الصارة.	كل الأشجار والنباتات الصالحة للأكل.	أجزاء الجسم. الحم. البحر والعفس. الرياح. العصى. الأشجار والنباتات غير الصالحة للأكل وغير الصارة. الطين، الأحجار والضوضاء، اللغة وغيرها.

تتنوع أداة التعريف "الـ" في تلك اللغة - مثل اللغة الفرنسية - فهي تشمل على أربع أشكال منها "beyl" لتصنيف الأول "balon" لثاني، "balon" لثالث، "bela" للرابع.

سنذكر الآن القواعد التي يتحدد الجنس وفقاً لها في اللغة "البرمالية"

١- الفئة الأولى : للكلمات الخاصة بالرجال والمخلوقات غير البشرية.

٢- الفئة الثانية : للكلمات الخاصة بالنساء والنار والماء والمراك.

(١٥) من مسمى ضخم

٢ - الفئة الثالثة للكلمات الخاصة بالنباتات الصالحة للأكل.

٤ - الفئة الرابعة ما يتبقى من كلمات.

هناك عدة قواعد أخرى لها من الأهمية ما يفوق تلك القواعد الأربعة الأساسية وهي

٥ - أية كلمة تتعلق بالرياضيات وتخصص الرجال أو النساء توضعها الفئة الأولى والثانية على الترتيب.

٦ - أية كلمة تدل على شيء خطير توضعها الفئة الثانية.

٧ - أية كلمة تدل على شيء ذي أهمية خاصة في المجتمع الديري بالي توضعها فئة غير معروفة.

دعونا نطبق القواعد السابقة على كلمات التصنيفات الأربعة طبقا للقاعدة الأولى تحتص فئة النوع الأولى بالكلمات الدالة على الرجال أو الكائنات غير البشرية، فإذ جئت للأنواع التي تستخدم في عملية الصيد كالبحريرج^(١٦) والحرايب والتي يقوم بها الرجال فقط نجد أنها تندرج تحت الفئة الأولى، يعتبر كل من القمر والعواصف وقوس قزح رجال في الأساطير الديريالية، لذلك طبقا للقاعدة الخامسة تكون هذه الكلمات ضمن الفئة الأولى أيضا، طبقا للقاعدة الثانية تحتص الفئة الثانية بالكلمات الدالة على النساء ولذر والماء والحرب، طبقا للقاعدة السادسة تحتص الفئة الثانية أيضا بالأشياء الخطيرة حتى وإن كانت تلك الأشياء دالة على نوع آخر، فتكون كل من الثعابين السامة والقراص^(١٧) والنويدات اللاذعة ضمن كلمات الفئة الثانية. تعتبر الطيور في الأساطير أرواحا للنساء لذا تتضمن الفئة الثانية أسماء الطيور طبقا للقاعدة الخامسة باستثناء قليل منها والتي تعتبر ذكورا في الأساطير وتكون معها لذلك ضمن الفئة الأولى، تعد الشمس أسطورة من الإماء يتبعها في ذلك النجوم ونظرا لأنها تحمل صفة التوهج فهي تتبع الفئة الثانية، أما عن سبب تواجد كلمات مثل البندقوق والكلاب ومنقار البط والنساص (قنفذ السم) بالفئة الثانية فهو غير معروف، ربما يكون ذلك بسبب ارتباطهم بأحد الأساطير غير المعروفة أو لأن مجيئهم في تلك الفئة مجيئا اعتباطيا

(١٦) قوس حشبي معروف يقذف ويسقطه سكان لشرقنا الأصليين

(١٧) نبات يرى له أوراق شائكة

أو غير مقيد بقاعدة ما كالكلمات الفرنسية "حارس" و"مرّة"، تختص الفئة الثالثة بالصفات الصالحة للأكل، أما الفئة الرابعة فهي فئة البواقي التي تضم كل الكلمات التي لا يستقيم مجيؤها في الفئات الثلاث الأولى، نجد أن الحبل والعسل يتبعان تلك الفئة طيفا للقاعدة السابعة وهذا بسبب أن العسل هو الطعام الطو والمورد الوحيد للشرب بعد الماء مما يمثل أهمية خاصة للمجتمع الديرالي، أخيرا نقول إن في هذا النظام المدفئ يكون من السهل التوقع بالنوع بخلاف النظام المتسع في لغات أخرى مثل الفرنسية والسواحيلية، ولكن المشكلة تكمن في القواعد السبع المتسمة بقليل من الفصوص.

السؤال الأخير هو: ماذا عن اللغة الإنجليزية؟ لا تشتمل اللغة الإنجليزية على نظام الجنس، صحيح أنها تشتمل على بعض الكلمات الدالة بصيغة أساسية على المذكر مثل "ثور" و"نوق"، وكذلك كلمات أخرى دالة على المؤنث مثل "بقرة" و"نوقة"، كما أنها تفرق بين الصمائر المذكرة "he" (هو) والمؤنثة "she" (هي) والصمائر التي تشير إلى الجمادات والأطفال "it" (هذا)، ولكنها تختلف عن الفرنسية والسواحيلية^(١٨) والديرالية في أنها لا تقسم كلماتها إلى فئات تتطلب كل منها سلوكاً نحوياً مختلفاً، تشتمل اللغة الإنجليزية - ككل اللغات - على الوسائل اللازمة لتوضيح الفرق بين الأجناس المختلفة، ولكنها لا تشتمل على النوع.

(١٨) اللغة الرسمية في ثرلندا وكندا

الفصل الثالث

اللغة والمعنى

بعد سؤال معظم الناس عن الوظيفة التي وجدت من أجلها اللغة تكون إجابتهم هي اللغة وسيلة التعبير عن المعاني وتوصيلها إلى الناس، إن القدرة على التعبير عن المعنى جانب لا يمكن إغفاله كوظيفة للغة، فإذا جاء كلامنا قاصرا في توصيل المعاني لمراعاة منه تكاد تكون فرصة قيام اللغة بوظائفها الأخرى منعدمة، إذن ما المعنى وكيف يتسنى لنا التعرف عليه ؟

لا يعد السؤال السابق بسيطا، فليس هناك سؤال يحس اللغة تكون إجابته أقل وضوحا وأكثر إثارة للجدل من إجابته، يطلق على دراسة المعنى "علم الدلالة"، وهو فرع من فروع علم اللغويات والذي كان - أكثر من أي فرع آخر - من الصعب على الإطلاق، حرز أي تقدم به، فكثيرا ما اختلف علماء الدلالة حول الأسئلة المطروحة، ناهيك عن الطريقة التي من المفروض أن تكون عليها الإجابات، أصبح العديد من اللغويين بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ١٩٤٠ وحتى ١٩٥٠ غير عابئين بكل ما يخص علم الدلالة حيث قاموا بتعريف علم اللغويات مستثنين من علم الدلالة وحجتهم في ذلك أن دراسة المعنى أمر تافه لا يجب أن يقام له وزن، لحسن الحظ أن هذا الرأي لم يكتب له الانتشار مما أتاح لذلك العلم أن يصبح الآن واحدا من أكثر المناطق المطروقة في علم اللغويات، لكن تبقى مشكلة صعوبة الأسئلة، وفي هذا الفصل سننظر إلى قليل من الطرق التي من خلالها يتم التعبير عن المعاني في اللغة.

صعوبة تعريف الكلمات :

يعتمد معنى أية جملة على عنصرين على الأقل معاني الكلمات بالجملة، والتركيب النحوي لتلك الجملة، انظر إلى الأمثلة الآتية :

(٢ ١) عقر الكلب الرجل الذي يبيع اللبن. (3-1) The dog bit the milkman.

(٢-٢) عقر الكلب ساعى البريد.. (3-2) The dog bit the postman .

(٢ ٢) يعقر الكلب ساعى البريد.. (3-3) The dog is biting the postman .

(٢ ٤) عقر ساعى البريد الكلب . (3-4) The postman bit the dog.

سطاق التركيب النحوى لكل من المثال الأول والثانى، ولكنهما يتصمان كلمات مختلفة، لذا فالمعاني التى يعبران عنها تكون مختلفة، يشتمل المثالان الثنى و الثالث على نفس الكلمات تقريبا فى حين يختلف تركيبهما النحوى فتكون المعاني التى يعبران عنها مختلفة كذلك، أما المثالين (٢-٢)، (٤-٢) فيتطابقان فى كل من التركيب النحوى والكلمات ولكن ما زالت المعاني الناتجة منهما غير متطابقة لأن الكلمات انحطت فى لتركيب النحوى بطرق متباينة.

طبقا لما تقدم يكون من الضروري توافر عنصرين على الأقل حتى يتسنى لـ التعرف على معنى جملة ما، هذان العنصران هما معرفة معاني كل الكلمات التى تتكون منها الجملة وفهم أدق التفاصيل الخاصة بالتركيب النحوى لتلك الجملة، هل هذا كل ما نريد معرفته ؟ يجيب بعض الناس على هذا السؤال بالإيجاب، ولقد كن لوجهة النظر الإيجابية هذه تأثير كبير على علم الدلالة وأطلق عليها "قاعدة التكوين لفريج" نسبة للفيلسوف الألماني الذى كان أول من أشار إليها.

كما سيتضح لنا من خلال الفصل الحالى من الكتاب، قد لا تبدو الأشياء بسيطة مثلما توحي قاعدة "فريج"، فى ذات الوقت - بالرغم من ذلك - دعونا نفترض أن لتاحة لذين تحدثنا عنهم فى الفصل الثانى قد سمعوا خيرا كثيرا بشرحهم للقواعد اللغوية وليكن دورنا الآن تفسير مشكلة معاني الكلمات.

يطلق على دراسة معاني الكلمات "علم الدلالة المعجمى" وهو يختص - بالإضافة إلى المعاني المفردة - بالطريقة التى ترتبط بها معاني الكلمات المختلفة، لسدأ فليبدأ بسؤال بسيط: ماذا تعنى كلمة كلب ؟

ليتضح السؤال قليلا تخيل أن شخصا من المريخ هبط لتوه على كوكب الأرض وتسمى له تعلم القليل من الإنجليزية عن طريق مشاهدة البرامج التى يبثها التلفزيون على الأرض، ولكن لم يسبق له رؤية الكلب، إنه حتى لم يسمع الكلمة ويريد من إعطاه تعريفها كاملا لها، سيجوب هذا الشخص الأرض جملة ودهانا على كل مره

بصانف فيها شيئاً جديداً، ويرجع إلى تعريفك ليعرف ما إذا كان هذا الشيء الجديد
كلماً أم لا، لذلك فهو منوط أن يعطيه التعريف الفتيحة التي يبغيها، وإذا ما خذله ذلك
تعريف ذات مرة سيصاب بالضيق، الآن نمهلك بفتيتين من الوعت كي تكتب له تعريفاً
لكلمة كلب.

قد نرعب هي مقارنة تعريفك بآخر ورد بأحد القواميس الحديثة، لذا فإننا نقدم لك
تعريفاً من "قاموس كولينز الإنجليزي" (قمنا بحذف بعض المعاني الإصافية التي لا تمت
لوصوعنا بصفة)
كلب : اسم .

١ - من الثدييات النابية المستأنسة - تتوافر منه سلالات عديدة ذات تنوعات
هائلة في الحجم والشكل .

٢ - من أكلات اللحوم ، ينتمي إلى الفصيلة التي تضم الدئج^(١٩) والقيوط^(٢٠).
لابد أن تعريفك مختلف تمام الاختلاف عن ذلك التعريف وعلى أي حال فإننا
سنفنده فيما بعد ولكن الآن دعنا نفترض أن ذلك الشخص المريح قد استخدم تعريف
لقاموس.

في أبدأية، سيواجه ذلك الشخص مشكلة وهي أن القاموس يعطي معنيين لكلمة
كلب، بالطبع سيجعل ذلك الأمور أصعب، لذلك علينا إخباره بأن يتجاهل المعنى الثاني،
فعلى الأرجح أنك لم تفكر بالدئج أو القيوط عند كتابتك للتعريف.

إن رحمة المريحى للبحث عن المعنى طويلة، إنه يفند تعريف القاموس ويبحث أولاً
إن كان لشيء الذي يراه ثدياً أم لا، ليس هذا بسيط أيضاً لأن كثير من علماء
الأحياء رفضوا الاعتراف بأن حيوان منقار البط من الثدييات - فامتلاكه
للأرجل لتشابكة ورقوده على البيض ليست من الصفات المميزة للثدييات، لكن
فلفترض أن ذلك المريحى ماهر في علم الحيوان ويسلم بشئ ما يراه ما هو إلا
هيو ما ثديياً.

(١٩) كلب أسفرالى صابر

(٢٠) دئج شمال أميركى صغير .

السؤال التالي هل هو نابي شبي من فصيلة الكلاب ؟ مستحيل الإجابة على السؤال لأن نابي كلمة أخرى تطلق على الكلاب إذا عرفت أنه كلب ستعرف تبعاً لذلك أنه نابي، أما إذا كنت لا تعرف أنه كلب فلا جدوى من السؤال.

هل هو مستأنس ؟ وكيف يتسنى للمريض معرفة ذلك ؟ ربما مرندى طوقاً - ولكن الطوق لم يذكر في التعريف كما أن الكثير من القطط يرتدون الطوق، افترض أن ذلك الشيء الذي يراه المريض يهدر بطريقة تهينية، أو أنه يجري مديحاً قاصداً لفك بعق المريض، هل يدل هذا على أنه مستأنس ؟ هل هذا السلوك لا يؤهله لأن يكون كلباً ؟

بعد ذلك يكمل المريض التعريف بحق، هل يتوافر من هذا الشيء سلالات عدة مختلفة الأحجام والأشكال ؟ ذلك غير جلي فالشيء الذي أمامه له حجم واحد وشكل واحد، وحتى إذا ما تعرف على أشياء أخرى تختلف في شكلها عن الشيء الذي يراه أمامه كيف يعرف أنها من نفس سلالة الكلاب وهو لا يستطيع الجزم بأن أحدها كلب ؟

كما نرى لم نتتمكن من إحراز أي تقدم مما سبق ذكره، ويبقى لنا تفيد تعريفك فمانا كتبت ؟ افترض أن ما كتبت يكون كالتالي .

الكلب حيوان من ذوات الأربع، جسمه مغطى بفرو سميك، وله أنف طويل، وأذان طويلة، ومخالب بدمية، وذيله يتكل اللحم ويطارد الحيوانات الصغيرة ويصدر نباحاً مميزاً مزعجاً، إذا ما تربى مع البشر منذ صغره يظل معهم.

هل سيلقى هذا التعريف قبولا لدى المريض أكثر من تعريف القاموس ؟ برغم وجود بعض المشكلات الهامة يظل هذا التعريف محاولة لا بأس بها، تتمثل هذه المشكلات في عدد من الأسئلة أولها ماذا عن الفرو ؟ هل الحيوان الذي لا يغطي أنفه أو قدماء أو أذناه أو مناطق أخرى بجسمه بالفرو لا يزال يغطي جسمه بالفرو ؟ ماذا إذا فقد فروه كله بسبب أحد الأمراض، هل يعدم كونه كلباً ؟ كم يبلغ طول الآن حتى يمكن اعتبارها طويلة ؟ أربع بوصات ؟ ست بوصات ؟ وماذا إذا كان الحيوان ذا أذان قصيرة، هل يفقد بسبب ذلك صفة كونه كلباً ؟ وماذا عن الأنف المصويل ؟ برغم عدم تراحد تلك الصفة الأخيرة في البلد^(٢١) وكلب بكين^(٢٢) فهما لا يزالان من الكلاب.

(٢١) كلب قوي حريء ضد الرأس قصير الشعر

(٢٢) كلب صغير قصير القوائم مريض الوجه طويل الشعر ناعم .

ماذا معنى ضوضاء النباح ؟ إننا نطلق على صوت كل من الكلب البوليسي والكلب الصغير المستأنس نباحاً، كيف يمكننا معرفة أن هذه الأصوات نباح ؟ يتم ذلك عن طريق تقيسنا متى ذلك الشيء الذي يصدر الصوت ما هو إلا كلب - بالطبع لن يجدى ذلك كثيراً مع المربى.

لا يطبق التعريف على سلالات معينة من الكلاب - مثل الكلاب المكسكة البعيدة الشعر - لأنها لا تملك فرواً على أجسادها ولكنها برغم ذلك لم تعد صفة كونها كلاب، بالمثل يعد البارنجي^(٢٣) كلباً برغم عدم قدرته على النباح، كما أن الكثير من الكلاب ليس لها ذيل وما زلنا نعتبرها من الكلاب، كما نرى أحقق التعريف في توصيل فكرته.

ماذا عن النغ والقيوط اللذين ذكرهما تعريف القاموس، أو الذئب والثعلب والصبي وابن أوى ؟ هل تحسب من الكلاب ؟ وإذا لم تكن من الكلاب، فما سبب ذلك ؟ أى جزء من تعريف لم ينطبق عليها ؟ نجد أن كل حيوان منها يصدر عواء معيناً من الممكن اعتباره نباحاً، كما أنه من الشائع تسمية عواء الثعلب بالنباح، علاوة على ذلك يتم استئناس الذئاب وبعض من الحيوانات الأخرى، فالكلاب في الأصل ما هي إلا ذئاب مستأنسة، وفي الوقت الحاضر يمكن تربية الكلاب والذئاب مع بعضها بعضاً.

أما عن الجزء الوحيد من التعريف الذي لا يمكن تطبيقه على القطه هو الجزء الخاص بالنباح، بالرغم من ذلك إذا صادفك بعض القطط ذات الطبيعة الخاصة والتي قد تصدر عواء يشبه نباح الكلب هل يؤهلها ذلك لأن تصبح من الكلاب ؟ لماذا لا ؟

ما رأيك في كلب ميت ؟ كلب محنط ؟ أو تمثال لكلب ؟ أو صورة لكلب ؟ أو لوحة مرسومة لكلب ؟ لا تمس هذه الأشياء تعريفنا بأى صورة من الصور، ولكننا ما زلنا نطبق لكلمة كلب على كل ما فيها، حتى "سوي" كلب الصيد الكرتونى الذى يتكون من مجرد خطوط من الحبر على الورق يعد من الكلاب.

يريد كل ما تقدم الإحساس بالإحباط وعدم الرضى عند المربى، إنه يسأل فى حيرة كيف يمكنك استخدام كلمة كلب بهذه السهولة وأنت لا تعرف معناها بالضبط ؟

(٢٣) كلب هبذ أفريقى صغير نادراً ما ينبع

إبنا - على العكس . نعرف ما تعنيه الكلمة بالضبط ، فإذا قال لك شخص ما "يوجد كلب غريب في الحقيقة"، فإنك ستفهم على الفور أن ما ستراه كلبا وليس فيوطا أو قطا، أي إبنا نعرف معنى الكلمة برغم عدم قدرتنا على تعريفها، الشيء الذي يسكب مشكل أو يثير مما تم مناقشته في الفصل الثاني . معرفتنا بالقواعد البحيوية برغم عدم معرفتنا على تعريفها، نقابل هنا نفس المشكلة أمام كل كلمة نحاول تعريفها

لا يعني ذلك أنه ليس من الممكن تعريف كل الكلمات، لأنه بإمكاننا إعطاء تعريفات لعدد قليل من الكلمات بدون مواجهة ما سبق ذكره من عقبات، على سبيل المثال كانت كلمة "متر" يتم تعريفها منذ فترة قصيرة بأنها المسافة بين نقطتين في ساق معدنية معينة موضوعة سرداب معين بباريس، وإذا أرادت معرفة إذا ما كان مترك يطابق طول المتر الأساسي ما عليك إلا أخذه ومقارنته بذلك المتر الكائن بباريس، ما انطبق على كلمة "متر" لا ينطبق على كلمات أخرى كثيرة، فإبه - على سبيل المثال - يصعب الاحتفاظ بكل ما يجعله مقياسا موضوعا في مكان معين لمقاربة الكلاب الأخرى به، ينطبق الأمر ذاته على أشياء مثل الكرسي أو الابتسامه.

السؤال هنا كيف يمكننا استخدام كل الكلمات بنجاح وبلا أدنى جهد ونحن نجهل طريقة تعريفها ؟ وهو سؤال ليس سهلا وطالما طرقه علماء اللغويات وعلماء النفس، تعد "نظرية القالب" من أكثر الاقتراحات - التي قيلت في شأن هذا السؤال - إقناعا، وتتلخص في أننا نعمل في أذهاننا نتاجا لتجارب مررنا بها، صورة قالب لكل معين يتم مقارنته دائما بلئى كلب يصادها حتى نصل إلى مدى مطابقة كل منهما للأخر، إذ كن التماثل بينهما كبيرا فإننا نأى نتيجة وهى أن ما نراه كلبا بالفعل ولعكس صحيح، تنعنا لذلك قد يكون المقياس أو المعيار غير قاطع مما يجعلنا نقبل كلبا بلا فرو أو آخر لا يشع طالما أن صفاته الأخرى تطابق القالب.

حسنا، ولكن كم يبلغ عدد الصفات التي لا يمكن انطباقها على الكلب، والتي عند توافرها لا يمكن اعتبار الشيء المقصود كلبا ؟ إلى أى مدى تنطبق القوالب على الأشكال المقصودة ؟ إننا أمام مشكلة كبرى، ولكن في وسعنا النجاة بالاستعانة بشيء لا يمكن اعتباره حقيقة لغوية على الإطلاق . إنها الطريقة التي تعبّر بها الأشياء في العالم الطبيعي، إن كل شيء نصنعه يكون إما كلبا أو غير ذلك، أي إنه قد يطابق القالب معانا أو لا يطابقه مطلقا، ليست العظم فقط هى التي تعتمد إلى الكثير من

صفات الكلاب، بل إن الدباب والقبوط تقتقد إلى تلك الصفات أيضا، تختلف الدباب عن الكلاب كثيرا ومن أكثر الصفات التي تميزها اعتمادنا على رؤية الكلاب في حياتنا اليومية، بينما نذر الدباب بل نعتهم فنكاد لا نراها في الحياة اليومية.

كحد أمي، يوجد معنى واحد ملزم فيه الجزم إما بصلاصة تواجد كلمة ما بموقع ما و عدم تواجدها إنه القانون، كثيرا ما نسمع أقوالا مثل يجب أن تلعب صربية على دحنت مما معنى الحل ؟ هل النقشبش دخل ؟ هل الهدانا دخل ؟ هل قوزك مبلغ من المال من لعبة البوكر (لعبة من ألعاب الورق) دخل ؟ إذا وجدت بعض المال في الشارع، فهل هذا يعد دخلا ؟ لكي تعرف قدر الصربية التي عليك دفعها، من الضروري أن يعطيت أحد الأشخاص إجابات محددة عن الأسئلة السابقة، لذلك نرى أن المحامين يقضون جل وقتهم في مناقشة أمثال تلك الأسئلة، كما يجتمع القضاة والمحلفون لإصدار أحكام في هذا الشأن، أي أننا في الوقت الذي نتطرق فيه الكلمات بلا قيد أو شرط نجد رجال القانون يهتمون بكل تفصيل دقيق.

معاني الكلمات وتركيب المفردات اللغوية :

لا تحمل الكلمات معانٍ وهي قائمة بذاتها، فبوجه عام يرتبط معنى أية كلمة بمعانٍ لكلمات أخرى بطرق قد تكون بسيطة أو معقدة، على سبيل المثال ترتبط الكلمة "صغير" بالكلمة "قديم" أكثر من ارتباطها بالكلمة "كسول"، وعلى غرار ذلك ترتبط كلمة "ورد" بكلمة "زهر" من جهة وكلمة "ثلاث" (بوع من الزهر) من جهة أخرى، وكلمة "أحمر" من جهة ثالثة، يحنص جزء كبير من علم الدلالة المعجمي بتوضيح هذه العلاقات بين المعنى.

يعد الترادف واحداً من أبرز الطرق التي يتم بها ارتباط معاني الكلمات، إنه الحالة التي تتماثل فيها معاني الكلمات، ولكن هل هناك كلمات تحمل نفس المعاني بالاصط ؟ نتأرجح لإجابة على هذا السؤال بين الإيجاب والنفي، لاحظ الكلمتين "pail" ، "bucket" (بالو)، أي شيء يمكن تسميته "pail" يمكن أيضا تسميته "bucket" والعكس بالعكس، فهم مرادفان لحد بعيد، ولكن لا يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر، تدل الكلمة، التي ستخدمها على المكان الذي تنتمي إليه، بصفة عامة تشيع "bucket" في كل من بحسرة وويلر وحبوب الولايات المتحدة الأمريكية، في الوقت الذي تعتبر فيه "pail"

قروية، أما هي اسكتلندا وشمال الولايات المتحدة فغالب استخدام "pail" ويعنبر "bucket" قروية.

ما بهما هنا بغض النظر عن مثل هذه التعقيدات هو أنه حتى إذا أشارت كلمتان إلى نفس الأشياء أو الأحداث فإنهما غالباً ما تحمّلان تداعيات مختلفة، بحرف الماسترو "ن صوفي متر" الكمان، بينما معزف قائد الرقصة التريبيعية^(٢٤) الكمنجة، تتشابه لالتان إلى حد كبير وتختلفان في السعر والأداء. تبدو الكلمتين "big"، "large" وكُتُبهما مترادفتان، ولكن عند تأمل الجملة الآتية نجد أنه لا بد من استخدام "big" وليس غيره "She got her big break in London, and now she's a big noise at the BBC and she's making big money" (لقد قضت عطلتها الطويلة في لندن، وهي الآن تصنع الكثير من الشهرة في هيئة الإذاعة البريطانية كما أنها اكتسبت أموالاً كثيرة).

هل تمثل هذه التداعيات جزءاً من معاني الكلمات؟ يتوقف ذلك على ما ترغب في فعله، فإذا كان كل ما يهمك هو تحديد الكلمة التي تشير إلى شيء أو ظاهرة ما فإنك في هذه الحالة تتجاهل التداعيات وتعلن أن كلا من الكمان والكمنجة كلمتان مترادفتان، أما إذا كنت مهتماً بالاستخدام الأمثل للكلمات في سياقها تكون التداعيات ذات أهمية.

يأتي الآن دور التصاد أو المطابقة كأحد العلاقات المألوفة بين المعاني، وهو تناقض معاني الكلمات، يبدو الأمر بسيطاً في البداية ولكن كما اعتدنا تتقوى الرياح دائماً بما لا تشتهي السفن، بادئ ذي بدء نقول إن كلا من المتضادات (ساذن وبارد)، (ميت وهي)، و(متزوج وأعزب)، و(مفتوح ومغلق) لا ترتبط بعضها على أسس متساوية، فنظر أولاً إلى الحمل الآتية ثم قرر أيها صحيح، لكي تتجنب أية تعقيدات نحن في غنى عنها، افترض أن كل الأسماء الواردة بالجمال تشير إلى أناس بالغين.

(3.5) This water is neither hot nor cold .

(٣-٥) ليس الماء بالساخن ولا بالبارد.

(3.6) This table is neither clean nor dirty .

(٣-٦) المنضدة ليست نظيفة ولا قذرة .

(٢٤) رقصة يؤديها الراقصون وهم على صورة مربع

(3.7) That door is neither open nor shut .

(٧-٣) الباب ليس مفتوحاً ولا مغلقاً .

(3.8) Janet is neither married nor single .

(٨-٣) لـجانيت "جائيت" متزوجة ولا غير متزوجة .

(3.9) My friend Sandy is neither male nor female .

(٩-٣) صديقتي "ساندى" ليست ذكراً أو أنثى .

(3.10) Your statement is neither true nor false .

(١٠-٣) عبارتك لا بالصحيحة ولا بالخاطئة .

(3.11) Her results are neither good nor bad .

(١١-٣) نتائجك ليست طيبة ولا سيئة .

ما رأيك في تلك الجمل ؟ بورنا الآن أن نخبرك أنه من ضمن تلك الجمل توجد جملتان فقط لا تتصارب عليهما الآراء وتبقى بقية الجمل محل جدال. يمكن لأي شخص تقبل عدد من الاحتمالات الواقعة بين "ساخن" و"بارد" أو بين "طيب" و"سيئ" لأنها من "المتضادات المتدرجة". يطبق بعض الناس صفة التدرج على كل من "نظيف" و"قذر" بينما يرفض البعض الآخر ذلك ويصررون شدة على أن أي شيء غير نظيف يجب أن يكون قذراً فلا تدرج بينهما، بالنسبة لهؤلاء الناس تسمى تلك الكلمات باسم المتضادات الثنائية، ويعنى هذا المسمى كلمتان غير متجانستين لا توجد بينهما أية احتمالات للتدرج، يرى بعض الناس في كل من (صحيح خطأ) و(ميت ، حي)، خير مشر لمتضادات الثنائية ولكن لا يخلو رأيهم هذا من جدال أيضاً

تقدم الكلمات (متزوج وأعزب) حالة جديدة بالانتباه حين يصر بعض الناس على أن أي شخص بالغ لابد أن يكون إما متزوجاً أو أعزب ولا يستمع هؤلاء إلى أي نقاش بشأن هذا الأمر، على الجانب الآخر يرى البعض - بنفس الدرجة من الإصرار - أن (متزوج وأعزب) يحدان ضمن عدد من الاحتمالات التي تشمل على "مخطوب" و"مرتبط" و"تعيش مع شخص ما" و"منفصل" و"مطلق" و"أرمل" وغير ذلك مما يجعل الجدال هنا حاداً بالفعل

تتفرد المقصادات المتبرجة بخاصة جدية بالملاحظة، افترض أن المرعى حتى أمر الكلب جاسا وجاعك يسأل كم تبلغ درجة الحرارة التي تجعل الشيء ساحب ؟ ، لا توجد إجابة محددة لهذا السؤال اللهم إلا إجابة واحدة وهي "يتوقف هذا على الظروف" ، تكون درجة الحرارة ٩٥ درجة سيلزية (تقارب من الطيار) ساحبة بالنسبة لبياه الاستحمام، ولكن عندما يصل القرن إلى درجة الحرارة ذاتها لا يكون سباحا كثيرا، كذلك تهب درجة الحرارة ٢٠ مئوية يوما سباحنا في ليلين بسما تحفل بنفس الدرجة الجو باردا في دالاس، يعتبر رجال القضاء الشمس نجما باردا مع العلم بأن درجة حرارة سطحها تصل إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية تقريبا، تستنتج من ذلك أن هذا الذي يتوقف عليه الظروف هو توقعاتنا، فنحن نصف ماء الاستحمام أو الأمر ن بأسفورية إذا بلغت درجة حرارتهما النهاية القصوى لتوقعاتنا بالنسبة لكل منهم، لذلك فإن كلمة "ساحب" ليس لها معنى مطلق مثلها في ذلك مثل الكلمات المتبرجة "جيد" و"كبير"، إننا ننقل بلا أدنى جهد بين تعبيرات مثل (قهوة ساخنة ، يوم ساهن)، و(فراشة كبيرة ، كلب كبير ، شاحنة كبيرة ، جزيرة كبيرة)، و(خمر جيد، أخبار جيدة طيب جيد، طقس جيد) حتى أن ما يفعله يمر علينا مرور الكرام- هذا هو الأمر الملهي و لجدير بالاهتمام فقد حاول العلماء والمهندسون تطوير ما يسمونه بالدكاء الاصطناعي وانتهوا أنه من الصعوبة - التي تصل إلى حد الاستحالة - برمجة حاسباتهم الآلية لاستخدام تلك التعبيرات والانتقال بينها بنفس طريقتنا في ذلك.

يأتى الآن دور العلاقة الكائنة بين الكلمتين "rose" (وردة) و"flower" (زهرة)، تعد أية وردة زهرة وليس العكس ربما تكون الزهرة وردة وربما تكون أيضا درحس أو سوسس، لذلك تعتبر وردة جزء من الزهرة بينما تعد الزهرة كلمة جامعة لجميع أنواع الورود.

إن علاقة الجزء بالكل شيء مألوف ولكنه لا يسير بطريقة واحدة في كل الحالات، ذكرنا أن وردة جزء من زهرة ولكن هل زهرة جزء من النبات ؟ إذا سألت عن الأجزاء التي تجمعها كلمة إباء ربما تذكر كلمات مثل صندوق، جرة، أو حقيبة، ماذا عن طرف، صندوق البريد، أو جيب ؟ هل تعد هذه الكلمات أنية ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فهذا ؟ تسع هذه الأغراض لأشياء عدة، فلامادا تفقد صفة الاحياء المعثلة هي كلمة إباء ؟

إن تحديد كلمة جامعة لعنة ما من مفرداتنا اللغوية ليس بالشيء الموثوق منه، فقد حرب العادة مثلا - إطلاق كلمة شجرة على أي نبات كبير الحجم يدخل الخشب في

مركبه بالرعم من أن الأشجار لا تحتل مجموعة بمفردها في تصنيف النباتات، ذلك لتصنيف الموضوع من قبل علماء النبات، كما أن بعض اللغات لا تدخل ضمن مفرداتها نفس الكلمة، كعص اللغات الأسترالية التي تصم أسماء لأنواع معينة من لأشجار بحسب، من ناحية أخرى تضم بعض اللغات مصطلح جامع وحيد بعد معنى الكائنات الطائرة ويطلق على الطيور والخفافيش والحشرات التي تطير، وعلى النقيض لا يمثل ذلك هي اللغة الإنجليزية، (مما يدعو للتحقق اتهام متحدثي اللغات غير الأوروبية البدائية من قبل الأوروبيين الجاهلين بعلم اللغة لأنهم لا يستخدمون كلمة مثل شجرة بحجة إحصائهم هي إحصاء تعميم واضح، كما أنهم نتيجة لإحفظهم في حدث تمييز بين الكلمات لجأوا إلى استخدام كلمات جامعة مثل الكائنات الطائرة، نأص بأن يتضح لقراء كتابنا هذا أمر ما وهو أن اتهام الناس لكونهم محتسبن عن الأوروبيين- لغويا أو غير ذلك- أمر عنصري مبالغ فيه ولا معنى له).

إن تحديد إذا ما كانت كلمات بعينها جزءا من مصطلح جامع أمر يشتر العدل في اللغة الإنجليزية في أغلب الأحيان، ينطبق الكلام ذاته على معظم اللغات فيما عد اللغات الأسترالية التي تعرض لما بوصف شديد الكلمات التي تتطلى بها صفة الحزنية، تشتمل كل لغة من هذه اللغات على طريقة فريدة للحديث لا مفر من استخدامها في حضور بعض الأقارب، تسمى هذه الطريقة أسلوب التجنب، تقع لحماية على رأس هؤلاء الأقارب ومن هنا يسمى الأسلوب بلغة الحماية، يتميز أسلوب التجنب باختلاف مفرداته عن مفردات اللغة الحياتية العادية، بالطبع نقل كلمات أسلوب التجنب كثيرا عن مثيلاتها في اللغة الحياتية وهذا سبب في اجتواء هذا لأسلوب على وفرة من المصطلحات الجامعة، حتى أن كل مصطلح من تلك المصطلحات يقوم بوظيفة واحدة تؤذيها مجموعة من الكلمات المختلفة لتصنعها اللغة الحياتية، يقدم ما سبق من كلام دليلا مباشرا بشأن علم الدلالة المعجمي- تعتبر كل الكلمات المشتلة عيها لغة الحياتية والمثلة بمصطلحات مفردة في أسلوب التجنب أجزاء لمصطلحات جامعة، حتى وإن لم تفصح اللغة الحياتية عن هذه المصطلحات الجامعة، سنوضح كلامنا هذا فيما يلي بأسئلة من اللغة الدريالية وهي لغة أسترالية يتمثل فيها أسلوب التجنب تمثلا حليا.

لا تصم اللغة الدريالية التومة مصطلحا جامعاً يمكن إطلاقه على السحالي ضمن مفرداتها، بل تحدد أسماء خاصة لكل نوع من تلك الزواحف "bangarra"

(اسحلية ذات اللسان الأزرق)، "blyu" (السطحية ذات الأهداب)، "buynyjau" (لأسحلية حمراء البطن)، "gagujau" (السفكفور أو السحلية الصغيرة الجسم)، على العكس يقدم أسلوب التجنيد مصطلحا واحدا لكل هذه الأنواع وهو "ijian"، لذا نخرج مما ذكر نتيجة وهي أن كل هذه المصطلحات تعمل أجراء من مصطلحات جامعة عند متخصصي اللغة الدربالية هي الوقت الذي تخلق فيه اللغة اليومية من هذه المصطلحات الجامعة.

المعنى وعلم النحو :

يتضح مما تقدم أننا اعتبرنا النحو والمعنى جانبين مختلفين تماما من اللغة، وهما بالفعل كذلك برغم ارتباطهما ببعضهما بعضاً في حالات أخرى، قد شهدنا في الفصل الثاني بعض الأمثلة التي توحي ذلك عندما تحدثنا عن الفصائل النحوية (لعدد، الجنس)، تعبر تلك الفئات عن حالات يعينها يكون فيها المعنى مرتبطاً بنحو لغة ما، يعضرنا هنا الحديث عن فصيلة نحوية وثيقة الصلة بالمعنى، وهي فصيلة يصعب شرحها : الزمن.

يُعرف الزمن بأنه الوقت من وجهة نحوية، هام أن تدرك التباين بينهما، بادي ذي بدء نقول أن الوقت لا يدخل ضمن مكونات اللغة لأنه مكون لعلم الفيزياء وعلم النفس، لا شك أننا نعرف جيداً معنى مرور الوقت وكيفية تقسيمه إلى الماضي والمستقبل، والمستقبل، كما يمكننا تقسيم الوقت إلى وحدات أكثر دقة من تلك الثلاث مما يجعلنا نعبر الماضي القريب عن الماضي البعيد والمستقبل القريب عن المستقبل البعيد، لأنه باستطاعتنا التفرقة بين دقائق قليلة مضت في يوم ما ووقت مبكر من ذلك اليوم، أو أمس وقيل أمس، أو الأسبوع الماضي والشهر الماضي والسنة الماضية، لا توجد حدود للتمييز الذي نستطيع القيام به - مائة وسبعة وعشرون عاماً مضت يختلف عن مائة وثمانية وعشرون، لاحظ أن هذا التمييز يتم باستخدام كلمات مناسبة أو مجموعة من الكلمات، لذلك لا يرتبط هذا التمييز بنحو اللغة الإنجليزية.

لكننا قد نرى بعض اللغات التي تعرض مثل هذه الفروق الزمنية في علم النحو الخاص بها ، ولا يسير ذلك على كل تلك الفروق لأنها كثيرة ، لذا نتضمن بعض اللغات - التي لا تدخل فصيلة الزمن ضمن محتويات نحوها - تلك الفروق الرسمية ذات العدد المحدد.

تعرض اللغة الإنجليزية - مثلها في ذلك مثل لغات عديده - الفروق الزمنية في أفعالها، فالأفعال الإنجليزية تقدم فروقا زمنية تسير بطريقة منظمة - الفعل "أحب" يفيد "أحب"، "يذهب" يقابله "ذهب"، "يقول" يقابله "قال"، لذلك تكون الطريقة التي تعبر بها الأفعال عن الزمن عبر قياسية، لا يهمنا ذلك كثيرا، ما يهمنا الآن هو العلاقة بين الزمن و الوقت والتي تبدو جلية منذ الوهلة الأولى. تشير جملة "إننى أحبها" إلى الزمن المضارع بينما تشير "أحببتها" إلى الماضى.

قد نندهش عندما نعرف أن بعض اللغات لا تمتلك فصيلة الزمن، ومن تلك اللغات اللغة الصينية، حيث لا يوجد بتلك اللغة ما يعادل الأفعال "يذهب" و"ذهب"، كل ما يفعله المتحدث الصينى عندما يريد التعبير عن الفرق في الوقت هو استخدام كلمات مناسبة تدل على الوقت مثل: "أذهب الآن"، "ذهبت الأمس"، "سأذهب غدا"، "سأذهب فى عشر دقائق"، "ذهبت منذ عشرين عاما"، إنهم يفعلون ذلك ببساطة ولا يشعرون بافتقارهم لتلك الفصيلة.

على العكس، تمتلك الكثير من اللغات فصيلة الزمن، فاللغة التركية على سبيل المثال تتضمن ثلاثة أزمنة - الماضى "gitim" (ذهبت)، المضارع "gidiyorum" (أنا ذاهب)، المستقبل "gideceğim" (سوف أذهب)، هذا هو النظام الشائع فى معظم اللغات ولكنه ليس الوحيد، تتضمن لغات عدة نوعين فقط من الأزمنة المتسحمة بالوضوح، تتضمن إحدى لغات جنوب إفريقيا أكثر من أحد عشر زمنا - خمس درجات مختلفة للماضى، خمس درجات مختلفة للمستقبل بالإضافة إلى الزمن المضارع، تظهر الفروق في الزمن عند متحدثي هذه اللغة وكذلك اللغات الأخرى التي تتمثل بها فئة الزمن، فهم لا يمتلكون الاختيار في استخدام أحد الأزمنة بون الأخرى، كل ما يجب عليهم فعله هو استخدام الزمن الملائم للوقت المتحدث عنه، ذلك تفسير لصارة الزمن هو وقت من وجهة نحوية.

تظهر الفروق الزمنية غالبا - كما رأينا - في الأفعال وليس دائما، فنجد أنها تتحلى في لغة "الهوبا" المستخدمة في كاليفورنيا بالأسماء، تشتمل كلمة "منزل" - مثلا - على ثلاثة أزمنة - المضارع في كلمة "xonta" (البيت الذي يتواجد حاليا)، الماضى في "xontaneen" (البيت الذي أصبح أنقاضا)، المستقبل في "xontate" (البيت الذي لم يسأ بعد)، لا يسير اللغة الإنجليزية بهذا النظام، بل تستخدم بدلا منه كلمات معربة

ربما يعتبر شخص ما كلمة "الزوجة السابقة" الزمن الماضي من كلمة "روحة"، و بالتالى تكون "خطيبة" الزمن المستقبل من نفس الكلمة.

حديثنا الآن عن اللغة الإنجليزية، كم عدد الأزمنة التى تتضمنها تلك اللغة ؟ ربما تصاب بالدهشة عندما تعرف أن الإنجليزية تشتمل على زمنين فقط ألا وهما الزمن الماضى والمضارع (من الأفضل أن نطلق عليه الزمن اللاماضى)، لا تشتمل الإنجليزية على زمن للمستقبل ولكن بالطبع توجد بها طرق متعددة للتعبير عن المستقبل، تستخدم هذه الطرق تعبيرات مضارعة (لاماضية) تنيع لنا التعبير عن قاعدة عريضة من الاتجاهات المختلفة للأحداث المستقبلية ولا تسمى أى منها بالزمن المستقبل، فيما يلى نموذج للتعبيرات التى نستخدمها للحديث عن المستقبل، وقد وضعنا فى كل جملة التركيب المضارع بجانب الماضى (باستثناء جملتين لا نظير لهما فى الماضى)

(3.12) (a) She goes to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن فى الغد .

(b) She went to London yesterday .

(ب) ذهبت إلى لندن بالأمس .

(3.13) (a) She's going to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن فى الغد .

(b) She was going to London tomorrow .

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن فى الغد .

(3.14) (a) She's going to go to London tomorrow .

(أ) من المقرر أن تذهب إلى لندن فى الغد .

(b) She was going to go to London tomorrow .

(ب) كان من المقرر أن تذهب إلى لندن فى الغد .

(3.15) (a) She has to go to London tomorrow .

(أ) يجب أن تذهب إلى لندن غدا .

(b) She had to go to London tomorrow .

(ب) كان يجب أن تذهب إلى لندن في الغد .

(3.16) (a) She must go to London tomorrow .

(ا) يجب أن تذهب إلى لندن غدا .

(3.17) (a) She will go to London tomorrow.

(ا) ستذهب إلى لندن غدا.

(b) She would go to London tomorrow .

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن غدا.

(3.18) (a) She shall go to London tomorrow .

(ا) ستذهب إلى لندن غدا.

(b) She should go to London tomorrow.

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن غدا.

(3.19) (a) She'll be going to London tomorrow.

(ا) ستكون في لندن غدا.

(b) She'd be going to London tomorrow.

(ب) كان من المفترض أن تكون في لندن غدا.

(3.20) (a) She wants to go to London tomorrow.

(ا) تريد أن تذهب إلى لندن غدا.

(b) She wanted to go to London tomorrow.

(ب) كنت تريد أن تذهب إلى لندن غدا.

(3.21) she ought to go to London tomorrow.

يسعى أن تذهب إلى لندن غدا.

(تمتلك بعض أشكال الزمن الماضي معان خاصة لا تسمح للحال تعدد، أن يكون متواجدا بالجملة، كما أن العلاقة في المعنى بين أشكال الزمن المضارع والماضي لا تكون مباشرة دائماً وبخاصة في الجملة (٢ ١٢))، إذا لم ينصح لك أن (الحص ب) كلها هي الزمن الماضي قم بإضافة كل من تخبرني جاتيت أن ... وأخبرتني حاتيت أن ... قبل تلك الجملة . ستجد أن الجزء الثاني الذي أضفناه أخبرتني حسب أن صحيح وأكثر طبيعية من الجزء الأول، هذا اختبار تقليدي لأشكال الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية.

ذكرت بعض الكتب التقليدية أحد أشكال الأزمنة . يتمثل في الجملة (٢ ١٧) . تحت مسمى اعتباطي وهو "الزمن المستقبل" وهذا يعد خطأ، لا يدخل الشكل "will" (سوف) ضمن الزمن المستقبل، وقد يخطئ الكثير من متحدثي اللغة الإنجليزية كلفة أنجبية ثابته في اعتبار الأشكال الآتية تعبر عن الزمن المستقبل "What will you do tonight ?" (ماذا ستفعل الليلة ؟) ، "I shall go to a film" (سوف أذهب لمشاهدة فيلم) ، "When Janet will get there ?" (متى ستذهب جاتيت هناك ؟) ، "We shall start" (سوف نبدأ) ، أما عن تصحيح ذلك الخطأ نقول "What are you doing tonight ?" (ماذا ستفعل الليلة ؟) ، "I'm going to a film" (سأذهب لمشاهدة فيلم) ، "When Janet gets here ?" (متى ستأتي جاتيت ؟) وهكذا بقية الجمل بدون استخدام "will" أو "shall" ، إن لا تدل كل من "will" أو "shall" على الزمن المستقبل، فهما مجرد أشكال للزمن المضارع يتشابهان مع "must" (يجب) ، "ought" (ينبغي) ، "have to" (يجب) ويعبران عن رؤية خاصة للأحداث المستقبلية.

كذلك لا تتقيد أشكال الزمن الماضي بالإشارة إلى الأحداث الماضية لأن لها استخدامات أخرى، تمثل الجمل التالية "It's time you went to bed" (حان وقت نرمت) ، "If I spoke better French, I could get a job in Paris" (إذا تحدثت الفرنسية بطريقة أفضل سأتمكن من الحصول على وظيفة في باريس) ، ملاحظ أن كلا من الأشكال "went" (ذهب) و "spoke" (تحدث) ماضية، ولكن "الذهاب" و "التحدث" لا يشيران إلى الماضي بأي حال من الأحوال . يشير الأول إلى المستقبل الحالي بينما يشير الثاني إلى المضارع الافتراضي أو المستقبل، يوضح لنا هذا السبوك أهمية تمييز بين الوقت (كفكرة غير لغوية) والزمن (كفصيلة نحوية) فهما مختلفان جداً

ولكننا نعتقد أننا نقحم القواعد اللغوية في فصل بدور موضوعه حول المعنى، دعوب نعود إلى النقطة الرئيسية محور حديثنا بينما تقوم القواعد النحوية بدور مهم لتعبير عن المعنى، فإن كلا منهما جزءان متفصلان تماما، إنا عندما نقول أن اللغة الصينية لا تصمم فصيلة نحوية دالة على الزمن لا يستتبع تلك القول بأن متحدثي تلك اللغة لا يمكنهم إدراك العروق الوقتية، سواء اشتملت اللغة على أحد عشر زما أو ثلاث زمة، أو زمين أو حتى حلت من الأزمنة نهائيا، فإن متحدثي تلك اللغة لا يحدون أدنى صعوبة في الحديث عن الزمن الماضي أو المصارع أو المستقبل، يمكن لجميع اللغات التعبير عن أشياء مثل "الثلاثاء قبل الماضي"، "الساعة التاسعة وال نصف صباح باكر"، أو "في عام ١٤٥٣"، وتختلف تلك اللغات عن بعضها بعضا في حجم التفاصيل النحوية التي تصيغها للفعل (أو غيره من العناصر) حتى يمكن التعبير عن الأشياء التي تخص بوقت، أي أن أي شيء، تعبر عنه لغة ما يمكن لأية لغة أخرى التعبير عنه، يطلق على تلك الملاحظة مسمى قاعدة التعبير بالكلمات، كانت تلك القاعدة محل استحسان عدد كبير من اللغويين، ولكنها تأثرت بالاعتبارات الثقافية للمجتمعات، بالرغم من ذلك لا تعد الترجمة أمر بسيط، فقد حاول القليل من اللغويين إغفال قاعدة التعبير بالكلمات من أجل رؤية مغايرة لها تماما وهي العلاقة بين اللغة والمعنى، وهذا ما سوف نناقشه فيما يلي.

المعنى والعالم :

إذا حاولت ترجمة نص ما من لغة إلى أخرى ستجد الأمر ليس بسيط، والسبب الرئيسي لذلك هو أن الكلمات لا تتماثل مع بعضها بعضا في اللغات المختلفة، فمثلا يوجد فرق كبير - في الإنجليزية - بين الكلمتين "ape" (قرد كبير الحجم كالغوريلا)، و "monkey" (قرد صغير الحجم)، بينما توجد كلمة واحدة في اللغة الإنجليزية للتعبير عن هذه الحيوانات وهي "singe"، من ناحية أخرى تقابل الكلمة الإنجليزية "ball" (كرة) ست من الكلمات الفرنسية المختلفة المشتقة من المعنى وهي "ballon"، "pelote"، "balle"، "boulette"، "boulet"، "boule".

بعد ما ذكرناه سابقا حالات بسيطة، فهناك حالات أخرى تعرض مجموعات من معاني يتم تقسيمها في اللغات المختلفة إلى كلمات متباينة تماما، تعبر الكلمات

لإنجليزية "road" (طريق)، "street" (شارع)، "way" (ممر أو طريق) عن نفس المعاني التي تعبر عنها الكلمات الفرنسية الخمس الآتية: "chemin"، "rue"، "route"، "chaussée"، "voie"، ولكن لا تماثل الكلمات الإنجليزية أيًا من الكلمات الفرنسية، سطبق الأمر ذاته على الكلمات الإنجليزية "hard" (صعب)، "harsh" (فاس)، "rough" (خشش) والكلمات الفرنسية "rêche"، "dur"، "rude"، "âpre"، "nigoureux"، وبالمثل الكلمات الإنجليزية "large" (واسع)، "big" (كثير)، "great" (عظيم)، "grand" (محم) والكلمات الفرنسية "grand"، "gros"، وهكذا.

إن كلا من الإنجليزية والفرنسية لغات أوروبية تتحدثها بلدان تتشبه تقاليد مجتمعاتها وتتشارك في الطغية الثقافية، بالرغم من ذلك ما زالت الترجمة بين هاتين اللغتين أمر عسير، إذن إلى أي مدى تبلغ صعوبة الترجمة التي تتحدثها مجتمعات تتباين عاداتها وخلفياتها ؟

هناك وجهة نظر في هذا الشأن ولكنها لا ترقى إلى درجة الأغبية بالرغم من كونها على درجة كبيرة من الأهمية، تذهب وجهة النظر هذه إلى أن تلك لترجمة بين لغتين مختلفتين أمر مستحيل، وذلك لسبب وحيد غاية في الأهمية، قدم وجهة النظر هذه عالم اللغة الألماني الشهير "إدوارد سابير" وطورها تلميذه "بنيامين لي ورف"، لذلك تم تسميتها نظرية "سابير - ورف" وقد فصل البعض تسميتها "نظرية الاتصال اللغوي"، يمكن التعبير عن تلك النظرية بطرق عدة ودرجات متباينة ولكن الصياغة الشائعة لها تقول "يؤثر تركيب لغتنا بدرجة كبيرة على الطريقة التي نستوعب العالم بها"، قد يبدو هذا الافتراض المدهش مقبولا منذ الوهلة الأولى، يستخدم متحدثو اللغة الإنجليزية كلمات مختلفة للدلالة على القرود بنوعها الصغيرة والكبيرة، في الوقت الذي يفتقد متحدثو الفرنسية ذلك، هل هذا يستتبع القول بأن متحدثي الإنجليزية يفهمون الفارق بين القرود الصغيرة والكبيرة بدرجة أكبر من متحدثي الفرنسية ؟ هذا ليس صحيحا، فمن واقع تجربتنا نرى أن العديد من متحدثي الإنجليزية ليس لديهم أية فكرة عما يعبر هابن المجموعتين من الحيوانات، ولذلك فهم يستخدمون كلمتي "ape" و "monkey" بالتبادل دون النظر إلى ما تعنيه كل منهما بدقة، لكن ما نتحدث عنه ليس ما يقصده "ورف" في نظريته.

شتغز 'ورف' مفعشفا هي تأمين الحرائق قبل اشتغاله معلم اللغويات. اكتشف ورف خلال بحرياته حرص العاملين في تعاملهم مع أنابيب الغاز الملأى، ذلك الحرص لدى كز بتراجع عدد التعامل مع الأنابيب العارعة، هذه الفعلة غير سليمة، لأنك إذا 'شعنت ثقابا في أنبوبة بترول معلوعة سيشتعل الغاز على الفور أما إذا أشعلت أنبوبة هارعة من الغاز المتحرر المتبقى سينفجر بعنف. استنتج 'ورف' وجود شيء ما بشأن الكلمة 'هارغ' والتي حدثت العمال على هذه الفعلة الطائشة.

استهج 'ورف' - من جراء ملاحظاته هذه - دراسة علم اللغة، وبخاصة لغات أمريكا الشمالية مثل 'الهيوي' و'النوتكا' و'الشابوي'، كان ما اكتشفه عجيب بحق، فغة لهويي مثلا تعبر عن زمن المستقبل بوضوح بينما لا يظهر بها فرق واضح بين الزمن لمصرع والماضي، علاوة على ذلك تشتمل تلك اللغة على نظام للأفعال على للغاية، فنرى أفعال تصرف للتعبير عن أفكار غير مألوفة مثل الاستمرار والتكرار، كما أن لأفكار لتي يجب التعبير عنها هي اللغة الإنجليزية باستخدام أفعال متباينة تماما يعبر عنها في تلك اللغة باستخدام الفعل ذاته كل مرة مع اختلاف في شكله، إليت بعض الأمثلة

"róya" تتبع النور	"royáya" تدور
"tí" يبدأ	"tírta" يرتمش
"wíwa" يتعثر	"wíwata" يفرج
"kwíla" يتقدم خطوة	"kwílatata" يسير للأمام
"rípi" يصدر عنها ضوء	"rípipta" تومض
"ími" تصنع ضوءا	"imípta" ترعد
"ngaro" يرك بئسانه شتا صلبا	"ngarórota" يحاول مضغ شيء صلب

تستطيع الآن أن تعي ما يحدث، ولابد أنك لاحظت مدى اقتصادية ويسر ذلك نظام، يموى 'ورف' القول بأنه في الوقت الذي يعتمر متحدثو الإنجليزية كلا من 'السير' و'التقدم بخطوات' نشاطين مختلفين، يعتبرهما متحدثو لغة 'الهيوي' حاسبين نشاط واحد مثله هي ذلك مثل نشاط السير الذي يعبر عنه في الإنجليزية بالأفعال "he walked" سير و "he walks" سير.

تحتوي لغة النافاهو لغة أخرى مستخدمة بأمريكا الشمالية على وفرة من المفردات الدالة على الخطوط والأشكال المتنوعة وكذلك الألوان، إليك مثال بسيط "dzigai" خط أبيض اللون ممتد لمسافة معينة.
 "adzlisgai" مجموعة من الخطوط الموازية البيضاء معتدلة لساعة معينة.
 "hadzlisgai" خط أبيض ممتد في وضع عمودي باتجاه صاعد من أسفل إلى أعلى شيء ما.
 "ahéhesgai" أكثر من خطين ذوي لون أبيض يكوبا بوائر متحدة المركز.
 "éich'midzigai" خطان ذوي لون أبيض يلتقيان في نقطة واحدة.
 "élnéngai" خط أبيض غير مستو.

يسمح هذا الكم من المفردات لتحديث لغة النافاهو بالحديث دون جهد عن كل أنواع الأشكال الهندسية التي تتطلب شرحاً مطولاً باللغة الإنجليزية، يرجع السبب في ذلك إلى أن تحديث لغة النافاهو يدركون معاني المصطلحات الهندسية التي تعرضها لغتهم، جدير بالذكر أن أسماء الأماكن في لغة النافاهو يظف عليها الطابع الهندسي، فعثلاً يسمى شكل مثير لتكوين حجرى معين يقع في الأريزونا "Tse Ahé'léhé" وتعني حرفياً (صخرتان في وضع عمودي متواز متبادل)، يطلق على هاتين الصخرتين في اللغة الإنجليزية "أقدام الفيل"، نخرج مما سبق من تحديث اللغة الإنجليزية يشاهدون أشياء شبيهة بأشياء أخرى، بينما يرى متحدثو لغة النافاهو العلاقات الهندسية التي تربط الأشياء.

اكتشف "ورب" اختلافاً ملحوظاً بين لغات أمريكا الشمالية وأوروبا، ليدل على ذلك سبق لنا المثال الآتي "He invites people to a feast" (إنه يدعو الناس إلى مأدبة) يمكن تقسيم هذا المثال بفكرته المعقدة إلى عناصر صغيرة دالة على معنى وهي "invite" (يدعو)، "people" (الناس)، "feast" (مأدبة)، يعبر عن هذه الجملة الإنجليزية بكلمة واحدة من لغة "النوتكا" لغة كولومبيا البريطانية وهي "Tl'imshya'isita'tima"، وتتكون من الأصل "Tl'imsh" (يسلق) وخمس لواحق هي "ya" (وتعنى - "ed" (اللاحقة الدالة على الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية)، "is" (eat يأكل)، "ita" (hers اللاحقة الدالة على الفاعل في اللغة الإنجليزية)، "il" (go-for يذهب إلى)، "ma" (he-does يفعل)، بترجمة تلك الحملة إلى الإنجليزية تكون كالتالي "He does some thing involving going for eaters of boiled food" (إنه يفعل شيئاً ما كثر يذهب

للباكل طعامًا مسلوقةً)، يوضح وُرف أن لغة "النوتكا" تقسم الفكره التي عذب عنها الحصة الإنجليزية بطريقة مغايره فلا يظهر فيها الكلمات (يدعو أو الداس أو مأنمة)، إن تلك اللغة تعبر عن معنى خاص بها يقوم على الكلمات "cook" (يطهو)، "eat" (ينكل) "do something" (يفعل شيئًا ما).

يعد تقسيم اللغات المختلفة للعالم كل بطريقة خاصه أمرا مؤكدا، لهذا افترضت نظرية سبيلير - ورف أن المتحدثين لتلك اللغات ينظرون إلى العالم برؤى مختلفة نتيجة تركيبات المختلفة للغات التي يستخدمونها، ولكن هذا الافتراض يتبعه جدال طويل، يبدو جليا أن وُرف قد ذهب بعيدا عندما أظهر تلك الفروق الشاسعة بين لغات أمريكا الشمالية وأوروبا، فإلى الآن ما زال اللغويون يدرسون مدى صلاحية نظرية الارتباط العوي حتى يومنا هذا.

تمثل المصطلحات الدالة على الألوان أبرز الطرق التي يمكن بواسطتها اختبار نظرية سبيلير - ورف بل الوصول إلى نتائج غير مسبوقه من خلالها، تشتمل كل لغة على مصطلحات للألوان الرئيسية، يبلغ عدد تلك المصطلحات في اللغة الإنجليزية أحد عشر مصطلحا وهي: الأسود، والأبيض، والأحمر، والأخضر، والأزرق، والأصفر، والبرتقالي، والأرجواني، والرمادي، والسي، والوردي، أما بقية الألوان الأخرى كالقرمزي والأخضر الفاتح والأحمر المائل إلى البرتقالي والأصفر الفاتح فهي غير رئيسية بشكل أو بآخر، بالمثل تحتوي اللغات الأخرى على عدد مختلف من مصطلحات الألوان الرئيسية، فمثلا تشتمل لغة أمريكا الشمالية "نير بيرس" (Nez Percé) على سبع مصطلحات، أما اللغة البيجيرية "إيبو" (Ibo) فتشتمل على أربع مصطلحات، في حين تضم لغة جنرة الحديدة "جالى" (Jala) مصطلحين فقط للألوان، تتوزع جميع الألوان التي تصورها لغة ما على مصطلحات الألوان الرئيسية لتلك اللغة، فعلى سبيل المثال تشتمل لغة الفلبين "هامبونو" (Hamonoo) على أربعة مصطلحات رئيسية للألوان تتوزع كالتالي: ma) biru (يضم هذا المصطلح اللون الأسود ودرجات البني القاتم والأزرق والأرجواني، ma) Lagti (يضم الأبيض ودرجات الوردي الفاتح والأزرق والأصفر، ma) rura (يضم الأحمر والبرتقالي والقرمزي القاتم، ma) Latuy (يضم الأصفر والدرجات الفاتحة للأخضر والبني).

بدل تقسيم مصطلحات الألوان بتلك الطريقة هي الألعاب المختلفة على ما ذكره من قبل بشأن نظر تلك اللغات إلى العالم بطرق متباينة، كما يدعم هذا التقسيم بدوره نظرية سايبر - ورف، سؤالنا الآن هو إذا أصر أحد محققي اللغة الإبحيرية على أن لون فلم ما أصفر في حين أن لونه أحضر، بينما أصر المتحدث للغة الهامونو أن لون ذلك القلم يجمع بين الأصفر والأخضر (ma) latuy، هل يستتبع ذلك القول أن كلاً من هذين المتحدثين ينظر إلى العالم بوجهة مختلفة ؟

مفد عقود مضت قرر كل من 'برلين' و'كاي' - وهما من لأثنروبولوجيين (علماء الإنسان) - الإجابة على السؤال السابق، بدأ كل منهما دراسة استخدام مصطلحات الألوان عند أناس يتحدثون لغات مختلفة تحوي كل منها عددًا مختلفًا من مصطلحات الألوان الرئيسية، نظروا في البداية إلى الحدود التي تفصل بين تلك المصطلحات ووجدوا أنه كلما قل عدد هذه المصطلحات في لغة ما صمتت تلك المصطلحات عددًا أكبر من الألوان، كما اكتشفوا عدم وضوح تلك الحدود، فمتحدثو اللغة الإنجليزية لا يستطيعون تحديد النقطة التي يتحول عندها اللون الأحمر إلى البرتقالي أو الوردى أو الأرجواني، كما يعجز متحدثو اللغات الأخرى عن فعل الأمر ذاته فيما يخص مصطلحاتهم.

أمر 'برلين' و'كاي' الأفراد موضوع البحث باختيار درجة اللون الرئيسية لكل مصطلحات الألوان باستخدام رسم بياني يحوي هذه المصطلحات، لم تأت نتائج هذه المرة غير واضحة، فقد تمكن متحدثو اللغة الإنجليزية من تحديد درجة اللون الأحمر الرئيسية وهي تلك التي يطلق عليها 'أحمر الشفاه'، بالمثل تم لتحديث اللغات الأخرى تحديد درجات الألوان الرئيسية العاصمة بمصطلحات لغتهم، عدد هذه المقعة من الدراسة أطلق 'برلين' و'كاي' على درجة اللون الرئيسي اسم "foci".

ماشي الآن إلى أعجب اكتشافات 'برلين' و'كاي'، لقد وجدوا أن درجة لوني الرئيسية التي أطلقا عليها مسمى "foci" تكون واحدة في جميع اللغات بالرغم من اختلاف عدد مصطلحات الألوان الرئيسية وامتداداتها في كل لغة، أي أن درجة اللون الرئيسية تكون قابضا مشتركا بين جميع اللغات، تطابق مصطلحات الألوان الرئيسية في لغة 'الهامونو' على سبيل المثال مثيلاتها في اللغة الإبحيرية، أي أن كلاً من الألوان (ma) biru - (ma) Lagti، (ma) rara - (ma) Latuy، (ma) وهي مصطلحات لألوان

رئيسية للغة الهانوتو - تطابق كلاً من الألوان الإنجليزية الأسود والأبيض والأحمر والأخضر، الفارق الأوحى بين هاتين اللغتين هو أن اللغة الإنجليزية قد أضافت قليلاً من مصطلحات الألوان الرئيسية فأصبح عدد مصطلحاتها الرئيسية يفوق مصطلحات لغة الهانوتو

تتحنى هذه الظاهرة في كل اللغات التي قام "برلين" و"كاي" بدراستها، تحتدر جميع اللغات عدداً من مصطلحات الألوان الرئيسية من بين أحد عشر مصطلحاً، كأن تختار لغة ما مصطلحين وتختار لغة ثانية ثلاث مصطلحات وتختار ثالثة أربع مصطلحات، بالإضافة إلى ذلك يمكن توقع الترتيب الذي يسير وفقه ذلك الاختيار، في البداية يتم اختيار اللون الأسود ثم الأبيض فالأحمر فالأخضر أو الأصفر فالأزرق فالبنى ثم يتوالى اختيار بقية الألوان - الوردي والرمادي والأرجواني - دون ترتيب محدد، وفقاً لذلك تشتمل لغة "بلينز تاميل" (Plains Tamil) الهندية على ست مصطلحات رئيسية للألوان وهي الأسود والأبيض والأحمر والأخضر والأصفر والأزرق.

تبدو تلك الاكتشافات مذهشة محق، إن مصطلحات الألوان التي كانت في الماضي خير دليل على نظرية الارتباط اللغوي أصبحت الآن محكومة بقواعد عالمية صارمة تظهر الاختلاف بين اللغات.

أثارت دراسات "برلين" و"كاي" الحدل حيث ظهرت قليل من وجهات النظر المخالفة لما توصل إليه كل منهما، ولكن بالرغم من ذلك ظلت استنتاجاتهما محسنة، لم ينته الأمر عند ذلك الحد، فقد أثبت عالم النفس "كوسى" و"شويدر" أن قدرة الأفراد على تذكر الألوان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصطلحات الألوان التي تحويها لغة ما، كلما زاد عدد مصطلحات الألوان الرئيسية التي تحويها اللغة زادت قدرة الأفراد الذين يتحدثون تلك اللغة على تذكر الألوان بدقة، يوضح هذا الاكتشاف أن ما توصل إليه "برلين" و"كاي" بشأن القواعد العالمية التي تحكم اللغات جميعاً ليست نهاية المطاف، وأنه يجب الانتباه إلى اعتبارات أخرى كالتسمية اللغوية، لازل في نظرية سابير - ورف متسع للنقاش.

يبقى لنا نقطة أخيرة في هذا الموضوع قبل أن نطوى صفحاته، إنها مثال بنفسه ورف بشأن شعب الإسكيمو وكلمة "snow" (ثلج) المدرجة بلغتهم، لاند أنه قد تنامي إلى علم أبة معلومات بشأن هذه الكلمة لأن شعب الإسكيمو يمتلكون عدداً من الكلمات

لنى مفادها كلمة "ثلج" ، إذن كم يبلغ عدد تلك الكلمات ؟ لسوء الحظ، ليس هناك اتداء على العدد، فجماعة من الناس يقولون أنه يبلغ خمسين كلمة وجماعة ثانية يقولون أنه وجماعة ثالثة يقولون مائتين وقلة قليلة تزعم أن العدد يصل إلى أربعمئة، ترى أيهم صحيح ؟

مدامة يقول أن شعب الإسكيمو لا يتحدث لغة واحدة، بل لغتين رئيسيتين وهما الإنويت (Inuit) و "اليويك" (Yupik) محتوى كل منهما على عدد من اللهجات المتشعبة، من يحب النظر إلى لهجة بعينها من أجل معرفة عدد الكلمات، وبالنسبة للهجات الأخرى لن يختلف ذلك العدد كثيرا، دعونا نبحث فى لغة عرب جرين لاند وهى "الإنويت" حيث أنها تلت من دراسة اللغويين الجانب الأكبر منذ عدة أجيال، كما يوجد فى مقالنا قاموس مفصل عن تلك اللغة، إذن لما الآن أن نطرح السؤال الآتى كم يبلغ عدد الكلمات الدالة على كلمة "ثلج" فى ذلك القاموس ؟ إبهما كلمتان فقط "qanik" أى الثلج بالهواء أو الكسفة الثلجية^(٢٥) ، و الثلج المتساقط على الأرض.

تقتضى الأمانة العلمية أن نذكر ما قاله عالم الأثنوبولوجى واللغوى الأمريكى فرانز بوز فى هذا الشأن، فثناء دراسته لإحدى اللهجات غير المعروفة لغة 'الإنويت' دعى أن عدد الكلمات الدالة على كلمة "ثلج" يبلغ أربع كلمات وهى "aput" (ثلج على لأرض)، "qana" (ثلج منساقط)، "piqsirpoq" (ثلج متراكم)، "qimuqsuq" (ثلج تكسفه الريح أو تسوقه).

سواء كان عدد الكلمات اثنين أو أربع، فإنه لا يزال بعيدا عما ذكر من قبل - أربعمئة أو خمسين، فى الواقع لا يختلف هذا العدد عما هو موجود باللغة الإنجليزية التى تشتمل على كل من "snow" (ثلج، وهى الكلمة الشائعة)، "slush" (ثلج نصف ذائب على الأرض)، "blizzard" (عاصفة ثلجية)، "sleet" (وتعنى فى بريطانيا الثلج الذى ينوب أثناء تساقطه، أما فى أمريكا فتعنى المطر المتجمد)، بالإضافة إلى ما سبق يمكن لأي مترحلق على الجليد إضافة كلمات أخرى يميز بها بين الأنواع المختلفة للثلج فمن أمثالها "powder" (المسحوق)، "crust" (القشرة)، "hard pack" (كتلة صلبة) وغير ذلك، من المحتمل أن يفوق عدد الكلمات الدالة على الأنواع المختلفة للثلج التى يستخدمها أى مترحلق على الجليد يتحدث الإنجليزية ما يستخدمه أحد سكان الإسكا نو جرين لاند.

(٢٥) كتلة رقيقة من الثلج المتساقط

اللغة والسياق :

واحد من أهم وأروع الأشياء التي يمكن ملاحظتها عن اللغة هو الطريقة التي
يستخدم فيها الكلام للتعبير عن المعاني غير الظاهرة، تعمل ما يلي .

(أ) أين كان "جون" ليلة أمس ؟

(ب) كانت هناك سيارة بيتل صفراء اللون أمام منزل "سوزي" هذا الصباح.

ظاهرياً تبدو تلك إجابة حمقاء على مثل ذلك السؤال البسيط، فالسائل طرح سؤالاً
يشأن "جون" ولكن المحيب لم يذكر كلمة واحدة بخصوصه بل ذكر السيارة البيتل
و"سوزي" اللذين لم يرد ذكرهما في السؤال بأي حال من الأحوال، بالرغم من ذلك
فربما و تقوى من أنك ستوافق على أن الإجابة عابية ومنطقية للغاية، فيما أن السائل
على علم باقتناء جون لسيارة بيتل صفراء (وحتى إن كان لم يعرف ذلك من قبل)
فالإجابة ستكون واضحة له، أي أن المحيب ينوي القول "أنا لا أعرف أين كان جون
للييلة الماضية ولكن عندي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأنه قضى تلك الليلة مع
سوزي".

كيف تسير الأمور على ذلك النحو ؟ كيف يمكن للسائل أن يتحقق من أن تلك
الإجابة التي تبدو عديمة الصلة بالموضوع هي الإجابة المفيدة التي ستشفي فضوله ؟

بالطبع ليس من الممكن الزعم بأن ما قاله المحيب على السؤال يعني بدقة "قصي
جون الليلة الماضية مع سوزي" أنظر ما يحدث عند إلقاء السؤال بصيغة مغايرة

(أ) رأيت "جون" يعطي هدية جميلة "سوزي" في يوم ميلادها.

(ب) نعم كانت هناك سيارة بيتل صفراء أمام منزلها هذا الصباح.

في هذه المرة سيفسر السائل الإجابة على النحو التالي "أعتقد أنه من الممكن أن
يكون جون قد أهدى سوزي سيارة صفراء في يوم ميلادها"، أي أن الإجابة تشبه
مثيلتها السابقة ولكن في هذه المرة يختلف التفسير، هذا ما يقصده بقولنا أنه من
يمكن التعبير عن معان غير ظاهرة تدعك هذا التفكير بها.

إن لفظة الرئيسية هنا هي أهمية السياق الذي يقال فيه الكلام، إننا لا نقول
الكلام في فراغ بل نقوله في سياق هو في جزء منه لقوى (الأشياء التي قبلت مسبقاً)

وفي جزء آخر غير لغوي (ظروف المتحدثين مثل معرفتهم للعالم من حولهم وحسرتهم وتوقعاتهم)، وإننا نحقق الاستفادة من كل ما ذكر عندما نفسر ما يقوله الناس

بعد توصلنا لهذه الحقيقة يبدو لنا أن موضوع معنى الكلام شيء غاية في التعقيد نذكر أن هذه الصعوبة الكاملة هي التي ألحقت ببعض اللغويين بترك الأمر برمتة إن الأمر معقد بالفعل، إنك إذا أمسكت بشيء ما ثم تركته فإليك تعرف أن ذلك الشيء سيسقط هورا على الأرض وإذا كان هذا الشيء فجائياً مصنوعاً من الصبى فإنك تعرف أنه من المحتمل له أن يتبعثر، يجب على العاملين في مجال الذكاء الاصطناعي إضافة تلك الأشياء لبرامج الحاسبات الآلية بجديّة لأن هذه البرامج لا تعي شيئاً عن بعض الأفكار مثل الجاذبية والقابلية للكسر.

ومع هذا وبالرغم من الطبيعة المحيطة للمهمة إلا أن اللغويين نجحوا في جزء بعض التقدم في شرح كيفية توصيل المعاني، تتمثل الخطوة الأولى في إدراك تواجد طريقتين مختلفتين كحد أدنى لاستخلاص المعاني من مقاطع الكلام، تتمثل الطريقة الأولى في مجرد ملاحظة محتوى المقاطع ذاتها (الكلمات التي تحتويها وترتيبها النحوي)، هذا النوع من المعاني خاص بالكلام وهو المتواجد دائماً مهما اختلف السياق، أما الطريقة الثانية لاستخلاص المعاني تتم عن طريق مقارنة الكلام بالسياق باتباع الطريقة التي أوضحناها منذ قليل، يشترك المعنى هنا ليس من الكلام وحده بل من مجموع كل من الكلام والسياق المذكور فيه، تسمى هذه الدراسة التي تبحث عن كيفية الحصول على تلك المعاني بدراسة مفاهيم الكلام أي دراسة المعنى المشتق من السياق، لابد أننا قد عرفنا الآن أن هذا الفرع من العلوم مختلف عن علم المعاني كما أنه يحتاج إلى دراسات مختلفة.

يمثل الاتجاه الذي افترضه الفيلسوف اللغوي بول جريس واحداً من أهم اتجاهات الخاصة بعلم مفاهيم الكلام، كُون جريس عديداً من القواعد التي تحكم الطريقة التي تفهم بها المقاطع داخل سياقها، تسمى هذه القواعد بقواعد جريس، يطلق على اثنين من هذه القواعد قاعدة الارتباط والتي نقول كجعل كلامك مرتبطاً ببعضه بعضاً، قاعدة الكم والتي نقول قل ما يحلو لك كلما تطلب الموقف ذلك، انظر فيما يلي كيفية تطبيق تلك الحقائق على مثالنا الخاص بالسيارة البيتل.

لقد سأل السائل عن مكان جون بالليلة الماضية وجاءته الإجابة تفيد بأنه توجد سيارته بيتل صغراء أمام منزل سوزي هذا الصباح، إذا افترضنا أن المحيب قد اتبع الوعد سجد أن السائل طرح بعض الاستفسارات بطريقة أو بأخرى مثلًا "لماذا بلاحية أن تكون ذات صلة لذلك يجب أن يقصد منها أن تكون إجابة لسؤال، شئ الكم، لا يعرف المحيب أين كان جون وإلا كان أخبرني بذلك، لكنه ذكر سيارته بيتل صغراء وأنا أعرف أن جون يقود تلك النوع من السيارات إذا بشيء من التقريب على أن فهم أن هذه السيارة تخص جون وهو الذي أحضرها معه، وبما أنني أُجبرت أن تلك السيارة كانت أمام منزل سوزي هذا الصباح فذلك يستتبع الحزم بتواجد جون هناك، وبما أنني لم أتمكن من إيجاد ليلة أمس فإن التوقع الأمثل هو تواجده مع سوزي حيث قضى الليلة في منزلها".

إننا بالطبع لا نتبع في عملنا مثل هذه الطريقة المفرطة في الإصباح والمكوبة من سلسلة من التساؤلات والافتراضات ولكنها رؤية مفصلة لما يجب أن يدور بداخل رؤيتنا عندما نتحدث مع الآخرين، إننا حائزون في مثل هذا النوع من التساؤلات والافتراضات، فنحن نقوم به بسرعة وبلا أنني جهد حتى إننا في أحيان كثيرة لا نغير اهتمامنا لما نفعله، كأن فعلنا ذلك ينبع من اتباعنا لقواعد التحادث تشبه قواعد "جريس".

من المبالغة الادعاء بأن كل متحدث يكون متعاونًا في جميع الأوقات وبصفة دائمة، وبالمثل لا يكون كل متحدث غير متعاون دائمًا، ولكن من أروع النتائج التي يمكن استخلاصها من عمل "جريس" هي الإدراك بأن المتحدثين يتعمدون الإخلال بالقواعد من ناحية الظاهرية حتى يحققوا ما يبتغونه من تعاون على المستوى العميق، يطلق على هذا السلوك مسمى "الاستهانة بالقواعد"، وفيما يلي مثال واقعي حدث لكتبتنا.

منذ سنوات مضت، وعندما كان لتوه خريجًا حديثًا - صانف أن كان متواجدًا بعكس أستاذه عندما بق جرس التليفون، كان من الطبيعي أن يتسمى له الاستماع إلى طرف واحد من الحديث، كذلك تسمى له أن يستوعب الأمر برمته، كل ما في الأمر أن تلميذا يدعى "هيرسي" انتهى لتوه من رسالة الدكتوراه الخاصة به وتقدم لشغل وظيفة، بد كان الطرف الآخر على التليفون يطلب من الأستاذ معلومات بشأن "هيرسي"، فيما يلي ما سمعته الكاتب من حديث

"إنه شخص ظريف للغاية - الجميع يحبونه"

(صمت)

"إنه ذو شخصية متكاملة - إنني متأكد أنه سيتكلم مع الجميع عندك"

(صمت)

نعم، أؤكد لك أنه شخص ظريف، ومحبوب جداً.

عند هذه النقطة انتهى الحديث، والآن هل تعتقد أن "هيربي" قد حصل على الوظيفة؟ إنا متأكدون من عدم تمام ذلك، لكن لماذا و الأستاذ لم يذكر إلا كل طيب عن "هيربي"؟

بالفعل ذكر الأستاذ كل ما هو طيب، ولكن ذلك الطيب لم يكن الشيء المطلوب، لأن كل ما يهم الطالب هو قدرة "هيربي" على البحث، فقد كان يأمل بسماع شيء من ذلك القليل "إن هيربي باحث ممتاز، سيروِّقك عمله كثيراً". ولكنه بدلاً من ذلك لم يحصل على شيء سوى مدح في مميزات "هيربي"، بالرغم من إلحاح الطالب في السؤال عن قدرة "هيربي" على العمل، لم يجب الأستاذ الإجابة الشاعية، لقد أدخل الأستاذ - من الناحية السطحية - بقواعد الاتصال والكم وذلك إلى حد كبير، ولكنه على المستوى العميق لا يزال متعاوناً لأن رد فعل الطالب سيكون كالتالي "إذا كان لديه ما يقوله بشأن عمل هيربي لقاله على الفور، وهذا إن دل على شيء يدل على أن ما لديه لن يفيد هيربي، لذلك أستطيع استنتاج أنه ليس باحثاً جيداً وهذا ما أود معرفته".

إنا نفعل كل هذه الأشياء وبصفة دائمة، فمعرفةنا بكيفية التواصل بنجاح عن طريق اتباع تلك الطرق غير المباشرة واحدة من الأشياء التي تجعلنا ماهرين في استخدام اللغة الإنجليزية، توفر قواعد "جيريس" وصفاً جيداً للطريقة التي يتبعها متحدثو اللغة الإنجليزية، ترى هل يحدث ذلك مع لغات أخرى؟

توضح الأدلة استعمال اللغات الأخرى على قواعد مغايرة، ففي اللغات الأسترالية على سبيل المثال - يعتبر التوضيح ضرورة اجتماعية، كما يعد الغموض في الحديث خطأً كبيراً، تبعاً لذلك لا يستخدم متحدث اللغة الأسترالية في حديثه اليومي مصطلحات جامعة مثل "شجرة" أو "سطح" إذا كانت لديه الفرصة في استخدام

مصطلحات أكثر تحديدا للدلالة على هاتين الكلمتين، كما أنه لم نحاول مطلقا استخدام كلمة عامصة مثل "ينهب" إن كان ينوي قول عبارات مثل "يصعد أعلى التل على قدميه"، لأن لغات الأسترالية غنية بمثل هذه الكلمات المحددة، نستنتج الآن أن سلوك الأستاذ الذي تحدثنا عنه منذ قليل يكون غير مقبول أو غير منطقي بالنسبة للأستراليين، (كان عزوف الأستراليين عن استخدام المصطلحات الجامعة سببا رئيسا حصل لباحثين الأوربيين الأوائل وجعلهم يستنتجون خطأ أن اللغات الأسترالية لا تحتوي على أية مصطلحات جامعة وأن الأستراليين لا يعبرون عن التعميم، هذه إشارة نذكرنا بمدى تأصل قواعد التحدث عننا).

على الجانب الآخر، يرفض متحدثو اللغة الرئيسية في مدغشقر استخدام التصريح فيأتي كلامهم تبعا لذلك غامضا لدرجة كبيرة، أسند اللغوي "إلينور أو شمس كيدر" - الذي درس تلك اللغة دراسة مستفيضة - ذلك السلوك إلى سببين، أولهما استخدام تلك اللغة في مجموعة قرى مغلفة صغيرة المساحة تكون فيها المعلومات الجديدة نادرة، لذا يكتسب الفرد الذي يحصل على معلومات لم يعرفها أحد من قبله مكانة سامية، فيكون الأفراد تبعا لذلك لاهئين وراء تلك الكلمة، أما ثاني الأسباب التي ذكرها "كينان" هو اعتبار أي قول يتفوه به شخص ما ويسبب إحراجا لشخص آخر خزي كبير، وكذلك يعد من العيب التنبؤ بشيء ما والإفصاح عنه وهو غير صحيح، لهذا يتجنب الأفراد مثل هذه المواقف لدرجة كبيرة فيكون ما يقولونه أقل القليل، نتيجة لما تقدم يجد الغرباء في ذلك المجتمع صعوبة في الحصول على إجابات مباشرة لأسئلتهم البسيطة، يبدو جليا أن قاعدة "جريس" الخاصة بالكم لا تتبع بلغة مدغشقر، فهي لغة محكومة بقواعد مختلفة عن تلك التي تحكم كلامنا.

الفصل الرابع

تنوع اللغة

بند كبقية البشر - نستخدم مسمى اللغة الإنجليزية للإشارة إلى هذه اللغة بصفة خاصة، كما أنه ليست لدينا أية مشكلة في تمييز تلك اللغة عن اللغة الفرنسية أو الصينية، لكن هذا المسمى يضعنا في مأزق كبير لم تكن نتنبه إليه، لنعرف فيما يلي، لسبب في ذلك،

التنوع الجغرافي :

هل تثق في قدرتك على تمييز اللغة الإنجليزية عند رؤيتها ؟ تأمل أولا الأمثلة التالية ولنر وجهة نظرك فيها :

- (4.1) We had us a real nice house.
- (4.2) She's a dinky-di pommie Shella.
- (4.3) I might could do it.
- (4.4) The lass didn't go to the pictures, pet.
- (4.5) They're a lousy team any more.
- (4.6) I am not knowing where to find a stepney.

ماذا ترى في كل جملة من هذه الجمل ؟ هل هي هانية ؟ مألوقة ؟ مفهومة ؟ هل هي جملة إنجليزية ؟

نعتمد إجابات الأمثلة السابقة على خيранك الشخصية من جهة، وكذا المكان الذي تنتمي إليه من جهة أخرى، وهو الأمر الأكثر أهمية، تلك الجمل صحيحة تماما ومفهومة في بعض أجزاء العالم الناطق بالإنجليزية ولكنها غير مألوقة بالمرّة في أجزاء أخرى، ستكون بعض الجمل السابقة الذكر غريبة عليك كما أنك لن تستوعب واحدة أو اثنتين من بينها بما أنه على الأرجح - لم يتسن لك قضاء وقت كاف في كل جزء من الكرة الأرضية ينطق بالإنجليزية

بالرغم مما سبق ذكره لا يزال بعض المتحدثين لأشكال كالجمل السابقة يعتبرون أنفسهم متحدثين الإنجليزية كما يعتبرهم متحدثو الإنجليزية الآخرون كذلك، بغض النظر عن شخص من منطقة جغرافية ما يحدد هذه الأشكال دون مراجعتها، كما قد يساهم الدهشة عندما يعرف أن متحدثي نفس اللغة - لفته - يجدون شيئاً من الصعوبة أو عراية فيما ينطق به

يدور حديثنا الآن حول أحد أشكال التنوع في اللغة وهو التنوع الجغرافي، يتم تحدث اللغة الإنجليزية بطرق مختلفة وفي أماكن مختلفة، مثلها في ذلك مثل أغلب اللغات، وهذا ما نسميه باللهجات المكثية، بإمكانك بلا شك إدراك تواجد اللهجات المكثية وتمييزها عند الاستماع إليها حتى وإن تفاجأت أو ادهشت أو ارتبكت عند سماعها (كذلك ربما تنحاز إلى إحدى هذه اللهجات، وهذا موضوع سقوم بمناقشته في الفصل الثامن).

ماذا عن الجمل التي عرضناها في أول الفصل ؟ بدأ بالجملة (١-١) التي نسمعها في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وأماكن أخرى من حين لآخر والتي تعني "إن منزلنا حقاً جميل"، تعني الجملة (٢-٤) "إنها امرأة إنجليزية حتى الفخاع"، وهي جملة أسترالية، أما الجملة (٣-٤) والتي تعني "ربما أستطيع فعل ذلك الشيء" توجد عدة في أنحاء عدة من اسكتلندا وأجزاء من منطقة جبل "أبالاشين" بالولايات المتحدة الأمريكية، تعني الجملة (٤-٤) "لا تذهب الفتاة إلى السينما" ونسمعها في منطقة شمال شرق إنجلترا، أما الجملة (٥-٤) - والتي تبدو غامضة لكثير من البريطانيين - نسمعها في أجزاء عديدة من الشمال الشرقي للولايات المتحدة وتعني - تقريباً - "إنهم اعتدوا أن يكونوا فريقاً جيداً ولكنهم الآن غير ذلك"، أي أنها تعني عكس الجملة "إنه فريق غير سيء الآن"، أخيراً تعني الجملة (٦-٤) "لا أعرف أين أجد إطاراً بديلاً" ونسمعها في الهند

توضح تلك الأمثلة باختصار بعض التنوعات الواسعة التي نلاحظها في مفردات ونحو اللغة الإنجليزية، ربما نجد أيضاً تلك التنوعات في نطق الكلمات، فلابد أنك لاحظت متحدثين الإنجليزية ينطقونها بطريقة تختلف عن طريقته، وهذا يعني أن هؤلاء المتحدثين يستخدمون لكنة مختلفة عن لكتك، اللمنة ببساطة هي طريقته معينة لنطق اللمة، من الضروري أن تعرف أن كل متحدث لديه لكمة وليس فقط عامل اللمة الذي ينتمي إلى منطقة "جلاسكو" أو سانتو التاكسي النيويوركي أو مطرب البوب الحاميك

لأن كل ما يستخدم لكّة خاصة به نحن وأنت وملكة إنجلترا، إنك من المؤكّد تعندر بعض الكنت أكثر شيوعاً أو أرفع مكانة من غيرها وهذا لا يضر من الحقيقة القائلة بأن كل متحدث لديه لكّة خاصة

في الاختلافات النغمية بين اللكّات جلية بدرجة تجعلك قادراً على تمييز المستخدم منها هي إنجلترا أو اسكتلندا، أو أستراليا، أو شمال أمريكا، أو الكاريبي بسهولة، وربما تستطيع التعرف في التواريخ واللحظة على متحدث قادم من "ليفربول" أو "جلاسكو" أو "نيويورك"، لكن تذكر ما قلناه في الفصل الأول بشأن اختلاف كم الفوييمات التي يستخدمها متحدثو اللغة الإنجليزية، أي أننا لا نملك نفس العدد من الصوامت والصوائت، حتى وإن تحقق هذا فإننا لا نوظفها بنفس الطريقة، نتيجة لذلك تُنطق مجموعات من الكلمات بطريقة ما من قبل بعض الناس بينما ينطقها البعض الآخر بطريقة أخرى

إليك أمثلة قليلة من تلك الكلمات، حاول أن تنطق كل زوج منها لتري إذا ما كانت طريقة النطق متشابهة أم مختلفة، أتبعنا كل مجموعة من تلك الكلمات بتعليقات مختصرة عن مستخدمى طريقة النطق المذكورة، لاحظ مدى عمومية تلك التعليقات، فربما لا تنطبق طريقة النطق المذكورة على المنطقة التي تتواجد بها

١ - (father أب، farther أبعد) : تنطق الكلمتين بنفس الطريقة من قبل أغلب قاطنى إنجلترا (باستثناء الجنوب الغربي وأجزاء من الشمال)، وويلز، وكل الأشخاص تقريباً بأستراليا ونيوزلندا وجنوب إفريقيا، ومعظم قاطنى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وساحلها الشرقى. يختلف نطق هاتين الكلمتين عند بقية المتحدثين

٢ - (whine عويل، wine خمر) يفرق معظم الأسكتلنديين والأيرلنديين وعديد من الأمريكيين والكنديين وبعض النيوزلنديين بين نطق هاتين الكلمتين، أما الغالبية الساقية فينطقونهما بنفس الطريقة، وهى الطريقة السائدة بالولايات المتحدة الأمريكية

٣ - (caught ممسك، cot سمرير أطفال) ينطق الكنديون وعديد من الأسكتلنديين وبعض الأمريكيين هاتين الكلمتين بطريقة متشابهة، أما البقية يميزون بينهما (بعد كلامنا هذا طريقة مجدية للتمييز بين الكنديين والأمريكيين، ولكن لاحظ أيضاً إخفاء هذا التمييز بالولايات).

٤ (hoarse خشن، horse فرس) . يميز بينهما أغلب الناس في أسكتلندا وأيرلندا وبعض الأمريكيين، أما البقية الناقية فينطقونهما بنفس الطريقة.

(stare يحلق، stir يثير) . لا يحدث تفرقة بينهما من قبل معظم قاطنى منطقة ليفربول ومانشستر (إنجلترا)، تحدث التفرقة فى الأماكن الأخرى

(pour يسكب، poor فقير) . يختلف نطقهما لدى معظم الأسكتلنديين وعديد من الأمريكيين بالشمال، بينما يتوحد النطق لدى الباقين.

(through خلال، throw رمى) . يختلف نطقهما لدى أغلب المتحدثين بويلز وقليل من ساكنى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، يغلب على الباقين نطقهما بطريقة مختلفة.

(do يفعل، dew ندى) يتحد نطقهما فى شمال أمريكا وشرق إنجلترا ، يختلف النطق ببقية الأماكن وإن دلت بعض الإشارات على بداية اختفاء ذلك الاختلاف فى بعض أجزاء من إنجلترا

يمكن للكلمات الآتية أن تضاف للقائمة السابقة (pore مسام الجلد، paw مطب)، (pool حوض السباحة، pull يدفع)، (merry سعيد، marry يتزوج، Mary ماري)، (book كتاب، buck ذكر الطي)، (tow يسحب، toe (إصبع)، (air هو ، hair شعر)، (free حر، three ثلاث)، (hire يعين، higher أعلى) وغيرها الكثير والكثير، ربما تدهش عندما تجد متحدثى الإنجليزية يتحدثون تمييزاً فى نطق الكلمات لا تصنعه أنت أو يخفقون فى ما تستطيع فعله، كما أنك ستجد واحداً أو أكثر من أمثلتنا صعبة التصديق، لكن مما لا شك فيه أن كل زوج من تلك الكلمات يتم نطقه بطريقة ما من قبل بعض الناس بينما ينطقه الآخرون بطريقة مختلفة، لعلها بصراحة، يفوق التنوع فى نطق اللغة الإنجليزية ما نتوقعه من خلال خبراتنا الشخصية.

طبقاً لما تقدم، يمثل ذلك التنوع الهائل عقبة كبرى فى طريق أية محاولة لإصلاح لنظام الهجائى الشاذ للغة الإنجليزية، إنه من الطيبي أن نكتب كلماتنا بنفس الطريقة التى ننطقها بها، ولكن أى نطق يمكننا اعتباره القاعدة التى تسيّر عليها الكلمات والهجاء ؟ هل يجب نطق مجموعات الكلمات السابقة بطريقة موحدة أم بطرق مختلفة وفقاً لتلك القاعدة الجديدة ؟ قد يقترح من نادى بالإصلاح أن يكون نطقه هو تلك القاعدة، ولكن هذا ليس حلاً عملياً

بمقتضى الموقف هنا أن تقر بعدم كون اللغة الإنجليزية خارجة عن المألوف فيما يخص التنوعات الحكاية لأن اللغات التي تُستخدم في أماكن شاسعة من الكرة الأرضية تتمثل فيها نفس التنوعات وينفس الدرجة من تلك اللغات الإسبانية والفرنسية والإسبالية والعربية والصينية وغيرها، كما أن اللغة اليابانية المستخدمة في مساحة لا تبعد سوى مائة ميل في الثلاثين ميلاً شتمل على كم هائل من التنوعات ربما يفوق ما نجده في لغة الإنجليزية، تتميز اللغة الإنجليزية بحرصها على التوحيد المكاني وبخاصة في قارتي أمريكا الشمالية وأستراليا.

أنواع أخرى من التنوعات :

بالرغم من أن اللهجات الإقليمية والكلمات من أبرز أشكال التنوعات في أية لغة إلا أنهما جزء واحد من تلك التنوعات المتعددة، يمكننا ملاحظة أنواع من التنوعات في أحد المجتمعات أو في كلام فرد واحد من تلك المجتمعات، فيما يلي أمثلة أخرى من اللغة الإنجليزية المستخدمة في لندن وبخاصة في الجنوب الشرقي لإنجلترا، ماذا تلاحظ في سياق كل من تلك الأمثلة ؟

(4.7) Would you mind very much if I were to open a window ?

(٧-٤) هل تمنع في أن أفتح النافذة ؟

(4.8) Ta , mate.

(٨-٤) شكراً يا سيدي

(4.9) Oh , Julia , what an absolutely divine tonic !

(٩-٤) يالها من سترة رائعة الجمال يا جوليا !

(4.10) All monies owing in respect of 2 (d) above shall be payable not later than the date of completion specified therein.

(٤ ١٠) يجب أن تُدفع كل الأموال التي ذكرها البند ٢ (ب) قبل انقضاء الموعد

المحدد مسبقاً

(4.11) I refer the right Honourable gentleman to my previous answer.

(١١-٤) إنتى أخص بإجابتي السابقة السيد الميجل الجالس جهة اليمين

(4.12) Yanks 2 , Planks 0.

(١٢-٤) "بانكس" ٢، "بلانكس".

نبدأ بالجملة (٧-٤) والتي بنطقها بلا شك شخص من الطبقة الوسطى هي إطار رسمي، أى أن الحديث الدائر ليس حديثاً بين الأصدقاء، أما الجملة (٨-٤) فهي كلام أحد أفراد الطبقة العاملة حيث أن كلمتي "Ia" (شكراً) و "mate" (سيد) دلالات على حديث تلك الطبقة بلندن، بإمكانك سماع المثال (٩-٤) من سيدة، لأننا ندرا ما سمع كلا من كلمتي "divine" (رائع) و "tunio" (سترة) من الرجال، علاوة على أن إظهار شخص ما إعجابه بملابس شخص آخر أمر خاص بالسيدات أكثر من الرجال، تختلف الجملة (١٠-٤) عما تقدم، فأسلوبها الجاف غير الشخصى وكلماتها غير المألوفة - "monies" (مال)، "therein" (مسبقاً) - ينم عن أنها مأخوذة من وثيقة قانونية، كما أن الطبيعة الرسمية للمثال (١١-٤) يجعل من مجلس العموم المكان الأمثل لكى يقال به، أما المثال (١٢-٤) فلا يمكن له إلا أن يكون عنواناً لى إحدى الصحف الصغيرة الشائنة، إن أسلوبه المختصر والسريع يخبر بطريقة تلقائية نتيجة مباراة لكرة القدم بين إنجلترا وأمريكا ويخلق بصورة واضحة وفى عجلة على أداء الفريق الإنجليزى

توضح الأمثلة السابقة بعض التنوعات المتعددة المتمثلة فى المجتمع لوحد، أولاً تتحدث أنواع متباينة من البشر بطرق شتى، فمثلاً يتحدثو الطبقة الوسطى لا يتحدثون كطبقة العمال، كما أن النساء يتحدثون بطريقة تختلف عن الرجال وكذا الاختلاف بين كبار السن وصغار السن، ثانياً يتحدث الشخص الواحد بطريقة تختلف باختلاف السياق، فالشخص المذكور بالمثال (٧-٤) سيتحدث بطريقة مختلفة إذا كان لوقوف أقل رسمية، كما أن الوزير المتحدث بالجملة (١١-٤) لا يمكنه قولها خارج نطاق مجلس العموم إلا إذا كان يسافر من شخص ما، أخيراً، تكون وسيلة التعبير على جانب من الأهمية، فبينما تمثل الوثائق القانونية الحد الأقصى من الرسمية - نجد أغلب أنواع الوثائق المكتوبة مختلفة تماماً عما هو منطوق

إذا كانت لديك خبرة بالحياة فى لندن ستكون الأمثلة التى ذكرناها مألوفة لك بطريقة أو بآخرى، أما إذا افترضت تلك الخبرة فإنك ستتعرف عليها عن طريق أمثلة

أخرى مشابهة لها وموجودة بالتنوع الخاص بالمكان الذي تتواجد به، يكتسب الفرد الذي يعلم اللغة في طفولته قدرا من التحكم في استخدام التنوعات، فالشخص المنتمى للصفة الوسطى يتعلم أن يقول "thank you very much" (أشكرك بشدة)، ولا يقول "ta, mata" (شكرا يا سيدي)، كما أن الرجل لا يتعلم التعبير عن إعجابه بملابس تلك الطريقة الحماسية التي تكررناها، أي أن كل فرد لديه قدر من التعيم يكتسب قدرا من التحكم في التنوعات الرسمية المكتوبة للغة الإنجليزية، علاوة على ذلك يعي كل فرد أهمية التنوعات التي لا يستخدمها هو بصفة شخصية ففتت حينما تقابل شخصا يتحدث الإنجليزية بلهجة مخالفة لهجته، يكون باستطاعتك استنتاج حقائق بشأن ذلك الشخص الذي تتعامل معه، أخيرا، يتعلم كل شخص التحكم في الكم المناسب من التنوعات، فأتت تستطيع بلا أدنى جهد النقل بين النوع المناسب من الإنجليزية عندما تتحدث مع صديق قريب في حانة أوبار أو عند الحديث في مقابلة للتقدم لأحد الوظائف، لهذا يعد من الغريب أن يحاول أي شخص يتحدث الإنجليزية استخدام نفس أسلوب الكلام في تلك الظروف المتباينة

دراسة التنوعات :

إن لدراسة التنوعات تاريخا طويلا في علم اللغة، فقد جذبت اللهجات المكانية الانتباه منذ وقت مبكر وتتبع اللغويون الأوروبيون - منذ أكثر من قرن مضى - ذلك الفرع الذي نسميه نحن علم اللهجات، أي دراسة اللهجات المكانية. قام علماء اللهجات بتجميع كم هائل من البيانات عن التنوعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ولغات أخرى، ثم قدموا ما توصلوا إليه في صورة خرائط، يمثل الشكل (٤-١) خريطة مبسطة للهجات إنجليزية، والخريطة تعرض الكلمة الشائعة للمصطلح شخص مؤنث صغير السن المستخدمة في بدايات هذا القرن، تسمى الخطوط التي تفصل اللهجات المكانية عن بعضها البعض بالأيستوكلوس أما إذا نظرنا إلى خريطة مشابهة ولكنها مصممة في وقتنا الحالي نجد النتائج مختلفة تماما حيث حلت الكلمة الجنوبية الشرقية (التي تصممها الإنجليزية النموذجية) "girl" (بنت) محل الكلمات الأخرى فيما عدا كلمة "lass" (صبية) التي بقي استخدامها في الشمال.



شكل (١-٤)

الكلمات الدالة على "فتاة" بإنجلترا

Malden فتاة بكر

Girl بنت

Carlisle كارليسيل

durham دارهام

Lancaster لانكستر

Lass صبية

Wench فتاة أو خادمة

Newcastle نيوكاسيل

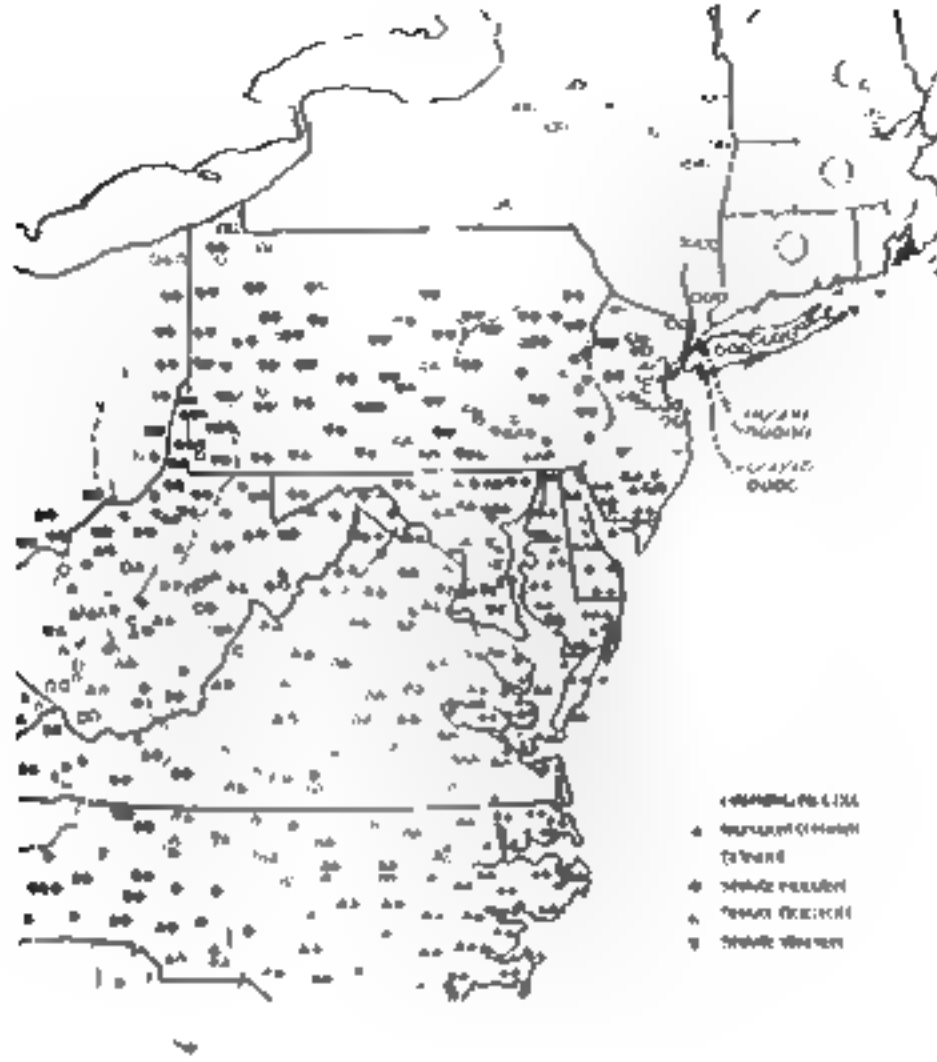
Sunderland سنيرلاند

Middlesborough ميديلبورو

Blackburn	برادفورد
chester	مانشستر
york	ستوك
hull	ليدس
Sheffield	سكنثورب
Lincoln	جريمسبي
grantham	نوتينجهام
wolverhampton	ديربي
Birmingham	ولسال
Hereford	نورثامبتون
Leicester	جلوسستر
Norwich	بيتربرورج
Bedford	كامبريدج
oxford	إيسوش
Bristol	لندن
Bournemouth	ساليسبري
Phymouth	إكسستر
Southampton	ترورو
dover	بريتون
	بورتسموث

تعرض الخريطة تفاصيل أكثر بشأن الكلمات الشائعة لكلمة dragonf (بفسوب)^(٢٦) المستخدمة في شرق الولايات المتحدة الأمريكية، إنها تعين عشوائية الخطوط الفاصلة بين اللهجات وذلك بخلاف الخريطة (٤-٧).

(٢٦) كتاب القوسي



شكل (٢-٤)

الكلمات الدالة على 'اليسوب' في شرق الولايات المتحدة الأمريكية

Snake Feeder ●

Snake Doctor K

Snake Waiter ↓

Darning Needle ○

Mosquito Hawk ▲

Spindle ⊗

حديث بالذكر أنه نتيجة للجهود التي قام بها جغرافيو اللهجات تسمى لنا معرفة اللهجات المكاسية اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات، أما الأنواع الأخرى للتنوعات فلم نستوعب الانداه في الأوقات المبكرة، في أغلب أوقات قرننا الحالي تم تجاهل التنوعات بدرجة كبيرة في إطار المصنوعات الواحدة، ففي أفضل الأحوال اعتبرت تلك التنوعات غير منسقة بدرجة تجعلها قابلة للدراسة أما في الأحوال السيئة أصبحت مستبعدة باعتبارها سطحية، وغير مهمة، بل ومزعجة، بالرغم من ذلك حول العلماء الاجتماعيين للغة - دارسو العلاقة بين اللغة والمجتمع - في عام ١٩٦٠ انتباههم لتلك التنوعات وبدأوا في عضون سنين قليلة التوصل إلى نتائج مذهلة.

اختصت بعض اكتشافاتهم المذهلة بالطريقة التي يختلف فيها المتحدثون من مقطع إلى آخر، لنأخذ مثلا الشكل "ing" - في كلمة "going" (ذهاب)، نجد أن أغلب متحدثي الإنجليزية لديهم طريقتان لنطق هذا الشكل طريقة تطابق كتابته وأخرى تطابق الكتابة "goin" أي بدون الحرف "g"، فنجد أن متحدثا ما يستخدم إحدى طريقتي النطق في حين والطريقة الأخرى في حين آخر بلا ضابط لذلك الاستخدام، لذا عتبر هذا النوع من التنوع الحر منذ وقت بعيد غير مجد للدراسة، بالرغم من ذلك قدم اللغوي الاجتماعي البريطاني 'بيتر تروجيل' دراسة هذين الشكلين "going"، "goin" بمدينة النرويج الإنجليزية في عام ١٩٧٠ وأتبع في ذلك اتجاها جديدا كان اللغوي الأمريكي 'ويليم لابون' قد اخترعه قبل محاولته تلك بسنين قليلة والذي يسمى بالاتجاه لكمي، كل ما فعله تروجيل هو

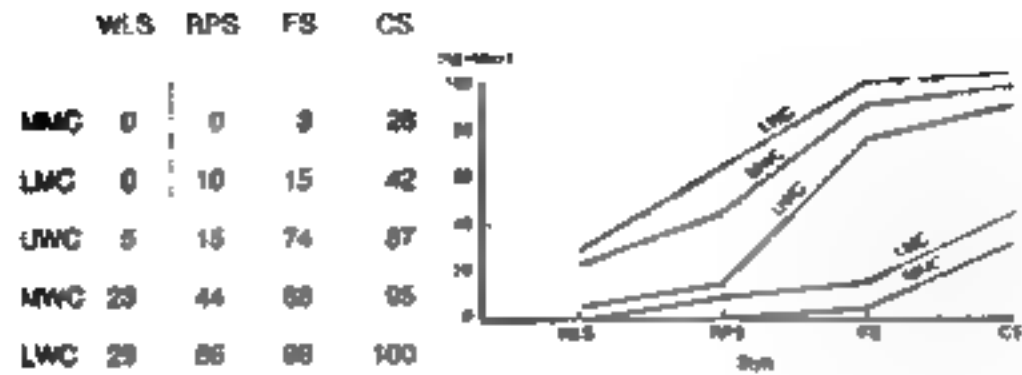
١- قام بجمع عدد من متحدثي اللغة النرويجية ذوي الخلفيات المتنوعة

٢- قام بوضع كل متحدث في أحد أنماط أربعة :

(أ) "casual speech" الكلام العادي (CS) : وهو الحديث المعتاد غير الرسمي.

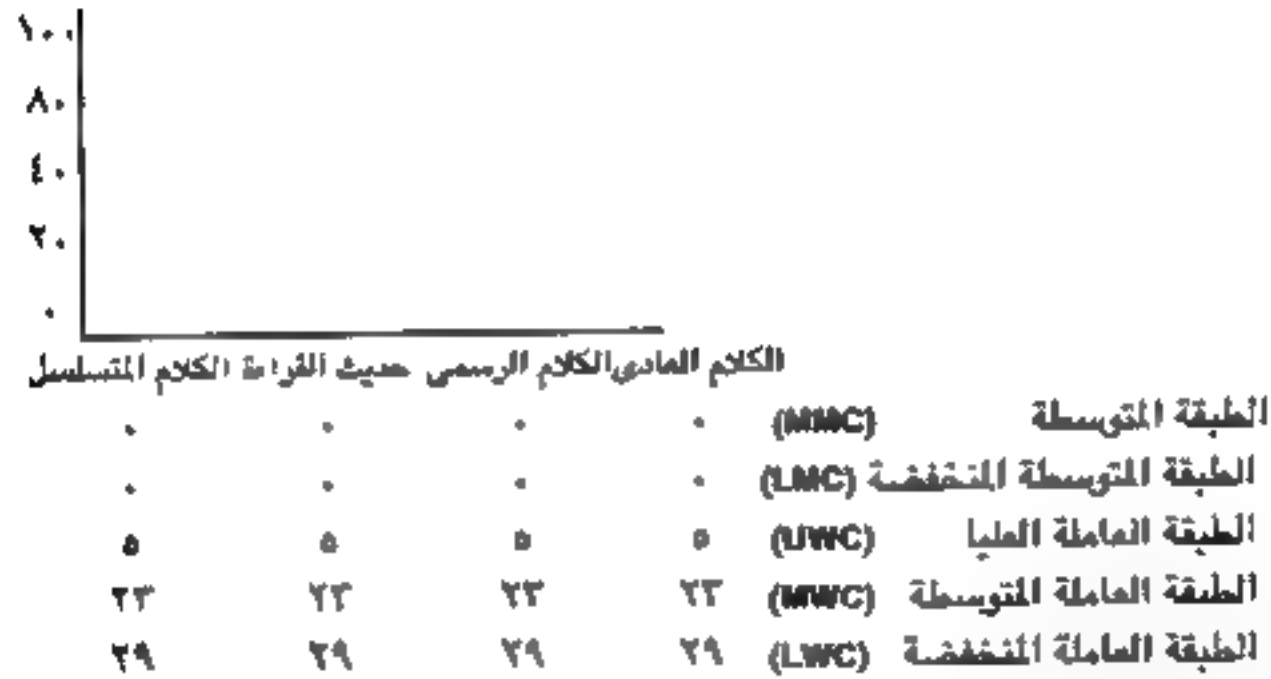
(ب) "formal speech" الكلام الرسمي (FS) - وهو الكلام المنمق المستخدم في المقابلات الرسمية

(ت) "reading - passage speech" حديث القراءة (RPS) الكلام الذي يستخدمه صاحبه عند القراءة من نص مكتوب بصوت مرتفع



شكل (٢-٤)

معدلات استخدام الشكل - in بمدينة النرويج الإنجليزية مقياس (ng)



ماذا ؟ وظيفة من وظائف اللغة ؟ أليست وظيفته اللغة هي التواصل ؟ مرة أخرى يجيب بالإشادات على هذا السؤال، إن كل فرد في حاجة إلى الحفاظ على الهوية الخاصة به، أحد الجوانب الهامة لتلك الهوية هي المشاركة في الجماعات واللغة هي التي توفر السبل القوي للحفاظ والتثبت على المشاركة في الجماعة، لا شك أن السبيل صاف الذكر ينتمي إلى جماعة تتكون من أسرة وأصدقاء يشاركونه الخبرات والاهتمامات والطروف والقيم، وحتى يظل فردا في تلك المجموعة فلزاما عليه أن يتحدث حديثهم، لهذا لا يهم أن يكون هذا الحديث ذا مكانة مرتفعة أو منخفضة بل يكون المهم هو الحديث بالطريقة التي يتحدث بها الآخرون لأن فعل ذلك يحمل رسالة صريحة تقول 'إنني أعتبر نفسي فردا في جماعتكم'.

لذلك عندما يحاول السبيل تغيير كلامه عمدا يكون قد أفصح عن شيء بوضوح وهو 'لم أعد واحدا من جماعتكم'، وهو إذا أصر على موقفه ذلك سيعي الآخرون لرسالة وسيجد نفسه خارجا عن الجماعة، لأجل ذلك تعد اللغة أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها وليس هناك سبب يمكن من خلاله القول بأن تلك الوظيفة تقل أهمية عند معظم الناس من وظيفة توصيل المعلومات، إننا نجد اللعويين يطلقون مصطلح "المكانة الخفية" على الأشكال اللغوية التي تقل مكانتها بالنسبة لمجتمع ككل بينما تتعاطى أهميتها في الحفاظ على مكانة متحدث ما داخل جماعة اجتماعية معينة.

يحدث أحيانا أن يبدأ المتحدث في تغيير طريقة كلامه فكاتبنا يقول 'عدد ليس بالقليل من زملائنا الجامعيين نشأوا وهم يتحدثون لهجة مكانية أو اجتماعية أقل مكانة ثم قضوا سنوات في اكتساب ذلك النوع من الإنجليزية الهامس بالطبقة الوسطى ولذى يعد مناسبا للحياة الأكاديمية، وكنت واحدا منهم، بالطبع قام كل واحد منا بمشور نفس الرسالة التي قال بها السبيل - إننا لا نعتبر أنفسنا جزءا من الدائرة الاجتماعية التي نشأنا فيها، بل إننا نرغب في إعلان شيء وهو أننا نعتبر أنفسنا جزءا من مجموعة مختلفة تماما وهي جماعة العمل الأكاديمي'.

اللغة والنوع والجنس :

يعد التقسيم بين الرجال والنساء في مجتمع ما واحداً من أوضح التقسيمات الاجتماعية، ومما يدعو للدهشة أن هذا التقسيم يتضح بشدة في كلام ذلك المجتمع، من أكثر من ذلك قد يكون هذا الاختلاف كبيراً في بعض اللغات حتى أن بعض الرجال والنساء يستخدم كل منهم على حدة كلمات مختلفة وتطفاً مختلفاً أو أشكالاً نحوية مختلفة، يحدث ذلك على سبيل المثال - في اللغة اليابانية حيث نجد احتلافاً بين الرجال والنساء في استخدامهم للكلمات

النساء	الرجال	المعنى
onaka	hara	معدة
taberu	kuu	يأكل
atashi	boku	أنا
ohiya	mizu	ماء
qishi	umai	لذيذ

بالمثل نجد في لغة "الكواراتي" - لغة مستخدمة في لوزيانا - كلمات عديدة تختلف نهايتها عند التنقل بين استخدامها فيما بين النساء والرجال، فمثلاً تعني لجمة (أرفع هذا) "takewhol" في كلام النساء، بينما تعني "takewhoe" في كلام الرجال

لا يوجد في اللغة الإنجليزية شيء من هذا القبيل، وإن دلت الأبحاث على أن الرجال والنساء يتحدثون بطرق مختلفة بالفعل في تلك اللغة، فالنساء يقضون معظم أوقاتهم في الحديث عن الملابس والأطفال بينما يتحدث الرجال كثيراً عن لسيارات والرياضات، فيما يلي بعض هذه الاختلافات التي تظهر في كلام النساء والرجال، لاحظ أن بعض هذه الاختلافات لا تزال محل نقاش .

١ - تستخدم النساء بصفة دائمة عدداً من المصطلحات الدالة على الإعجاب والتي نادراً ما يستخدمها الرجال مثل بديع - ظريف - فانس - مبهج، وغيرها

٢ - يقال إن النساء يظفن في إظهار تفرقة واضحة في مجالات معينة أكثر من الرجال ومنها المصطلحات الدالة على الألوان، فنحن نراهن يستخدمون بكثرة مصطلحات مثل اللون الأخضر المائل إلى الصفرة، اللون القرمزي، اللون البيج

(ث) "word - list speech" الكلام بالترتيب (WLS) عندما يقرأ الشخص قائمه من الكلمات بطريقة تسلسلية

٣ - قام بتسجيل كل المواضيع التي ينطق فيها الأشخاص الشكليات "going", "goin"

٤ - قام بتعيين كل شخص - مستخدماً فئة ذاتية - في واحد من خمس طبقات "the lower working class" (LWC) الطبقة العاملة المنخفضة.

"the middle working class" (MWC) الطبقة العاملة المتوسطة.

"the upper working class" (UWC) الطبقة العاملة العليا.

"the lower middle class" (LMC) الطبقة المتوسطة المنخفضة

"the middle class" (MAC) الطبقة المتوسطة.

٥ - قام بحساب متوسط عدد المرات التي يُنطق بها الشكل "goin" عند كل فرد من الأفراد الخمس في كل من المواقف الأربعة، وحول هذا الرقم إلى نسبة مئوية

أطلق "تروجيل" على تلك النسبة اسم مقياس (ng)، كلما ارتفع هذا المقياس دل ذلك على ازدياد استخدام الشكل "goin" وقلة استخدام الشكل "going"، يعرض الشكل (٤-٣) ما توصل إليه "تروجيل" من نتائج في شكل جدول رقمي ورسم بياني.

لاحظ النتائج غير المتوقعة التي جاء بها "تروجيل"، تستخدم كل مجموعة من المتحدثين، بل كل فرد كلا النوعين من النطق في أغلب المواقف أو كلها، ولكن من ناحية أخرى يلجأ كل فرد إلى استخدام الشكل "in" بنسبة أكبر كلما أصبح الموقف غير رسمي، ويدل على ذلك ارتفاع الرسم البياني لكل مجموعة، كما يستخدم الفرد المنتمى إلى جماعة منخفضة المكانة الشكل "in" بنسبة أكبر مما يستخدمها الشخص المنتمى إلى جماعة مرتفعة المكانة، ويدل على ذلك عدم إمكانية تقاطع خطوط الرسم البياني

تتجلى تلك النتائج عندما تتم دراسة التنوع من وجهة كمية أو إحصائية، فمن الصعوبة بمكان التوقع منوع الشكل الذي سيستخدمه المتحدث في موقف ما، ولكن من الناحية الإحصائية يكون سلوك المتحدث ثابتاً بدرجة ملحوظة، علاوة على ذلك يمكننا - في حالة دراسة الرسم البياني - الجزم بأن نطق الشكل "ing" يدل على ارتفاع المكانة الاجتماعية أكثر من الشكل "in"، فكل متحدث يتجه نحو الشكل "ing" كلما أصبح الموقف أكثر رسمية، وتستخدم الجماعات ذات المكانة الاجتماعية المرتفعة ذلك الشكل أكثر من الجماعات المنخفضة المكانة.

يطلق على ما تقدم "الطبقة الاجتماعية"، توصل العلماء الاجتماعيون اللغة إلى نفس النتائج في مجتمعات شتى بمختلف أنحاء العالم وبخاصة تلك التي تشتمل على أعداد هائلة من المتنوعات اللغوية ، يبدو جلياً من تلك النتائج أن الأشكال اللغوية المنصاعة من أجل البقاء لها غالباً أهمية اجتماعية يعرفها المتحدثون جيداً ، يؤدي هذا الاستنتاج لنهائي إلى لغز جديد .

اللغة والهوية :

إذا كان المتحدثون يعرفون بحق الأهمية الاجتماعية للأشكال المتناوعة مع يجعلهم يستخدمون في أغلب الأحيان الأشكال اللانقة ويتجهون إليها بقوة في مواقف معينة ، فلماذا لا يترك هؤلاء المتحدثون أو حتى معظمهم الأشكال الأقل لياقة ويتحولون إلى الأشكال الأكثر لياقة فقط ؟ لماذا يتمسك شخص ما باستخدام الأشكال التي يعي جيداً أنها أقل لياقة ؟ يضاف إلى السؤال المزيد من الغاطية عندما ندرك أن المتحدثين من الطبقة العاملة يصفون كلامهم بأنه "إنجليزية ليست جيدة" ويصرحون مراراً بإعجابهم بكلام الطبقة المتوسطة .

إن الطريقة البسيطة لإجابة هذا السؤال هي النظر إلى المثال الافتراضي الآتي تخيل أن سباكا أو ميكانيكيا يقطن بلدين ويتحدث الإنجليزية الخاصة بالطبقة العاملة في منطقته، افترض أنه نتيجة لاستيائه من كلامه وتأثره بكلام الطبقة الوسطى مما يسمعه بالتليفزيون أو من زبائنه الذين يفتقرون عليه بالأجر الكبير، قرر محاولة ترك كلامه الذي اعتاده من أجل التقرب إلى كلام الطبقة الوسطى، ماذا ستكون النتيجة ؟ هل سيتقبل أصدقاؤه وعائلته الأمر بصدر رحب ؟ هل سيعجبون بكلامه اللائق، بل يحاولون تقليده ؟ بالطبع لا، بل بالعكس سيهزون من جهوده لشوان قليلة ثم لا يلبثوا أن يسأموا ويتنحروا عنه جاثياً بل ربما يظهرون تجاهه العداء بسبب ذلك، لذا سيجد ذلك السباك أو الميكانيكي الطموح نفسه بدون أصدقاء ولكن لماذا ؟ أليس من حق كل فرد التمتع بمكانة لائقة ؟

لا ليس كذلك، فنحن عند حديثنا بلباقة عن "الأشكال ذات المكانة" تغاضينا عن شيء غاية في الأهمية شيء ذي علاقة بوحدة من الوظائف الحيوية للغة

٣ - يقول إن الرجال يسيرون أكثر من النساء، ربما كان يحدث ذلك بالجيل السابق وإن قست قليل من التعبيرات العظة مستخدمة من قبل الرجال بصفة أساسية.

٤ - يقول إن النساء يستخدمن الأسئلة المنزلة بكثرة عن الرجال فهم كثيرا ما يقولون أشياء مثل - إنها غريبة أليس كذلك ؟ وكثيرهن يبحثن عن التأكيد (تتأين الآراء في هذا الافتراض بصفة خاصة)

٥ - يقاطع الرجال في الحديث أكثر من النساء، تأتي هذا الافتراض مفاجئة للرجال ولدين يؤمنون بعكسه تماما ولكن الأبحاث المكثفة أثبتت صدق ما نقول بما لا يدع مجالا للشك.

٦ - كثيرا ما يدير النساء الحديث بطريقة صبيانية.

٧ - بصفة عامة، يعد كلام النساء تعاوني بينما كلام الرجال تنافسي، لأن النساء عند الحديث دائما ما يتعاطفن مع بعضهن بعضا كما أنهن يساندن ويشين على إسهامات الآخرين، يحاول الرجال - على العكس - التغلب على بعضهم البعض وإظهار التقدم والتفوق على الآخرين من خلال ما يقولونه

٨ - يكثر النساء المنتميات إلى جماعة اجتماعية واحدة من استخدام الأشكال ذات المكانة الظاهرة، كما يملن إلى الإشادة بأنهن يستخدمن الأشكال ذات المكانة المرتفعة كثيرا حتى وإن كان هذا غير صحيح، على العكس يستخدم الرجال أشكالا لائقة بأعداد أقل ويتحدثون كثيرا عن استخدامهم لأشكال أقل مكانة مما يستخدمون

يشير أنصار النساء غالبا إلى تلك الاختلافات كدليل على دور النساء الثانوي في المجتمع، من المتوقع أن تكون أفعالهن لائقة بوصفهن سيدات، وأن يذعن لقرارات الرجال، وأن يسمعن للحصول على موافقة الرجال قبل الشروع في فعل أي شيء، وأن يقصرن أحاديثهن على موضوعات تافهة في رأي الرجال، مما لا شك فيه أن أنصار النساء محقون في آرائهم تلك ولكن بعضهم رفضوها وهاجموا بشدة ما يروونه أنصير اللغة الإنجليزية إلى الرجال، ما معنى ذلك ؟

ربما تنامي إلى علمك من قبل أن الجامعات - بخلاف وقت الدراسة - تقوم بتوفير بعض الخدمات مثل عقد المنتقيات وذلك من أجل تحقيق ربح إضافي، لاحظ مسطورتك المنتقيات - بالجامعة التي كان يعمل بها مؤلف الكتاب - منذ سنوات مضت

مرامن ملنعى البحارة والمرضات، انتهازا لتلك الفرصة قام المنظّمون بإقامه حفل راقص، ولكن اتضح لهم بعد ذلك أن المرضات رجال.

لم يخطر لأولئك المنظّمون أن المرضات لسوا نساء بل رجالا، فمهنة التمريض من أكثر المهن التى يظهر بها اختلاف النوع بصورة جلية، حرت العاده أن يكون البحارة والأطباء ومئاتى السيارات الأجرة والقضاة من الرجال، فى حين حصصت مهن مثل التمريض وعرض الأزياء ومرافقة الأطفال والسكرتارية والدعارة لسبب، سادت تلك التوقعات منذ فترة ليست بقليلة ولكن بمرور الوقت أصبح من الدئير اقتصر بعض المهن على أحد الجنسين فقط، فأصبحنا نسمع عن رجال يمتهنون مهنة التمريض، لكن المشكلة الحقيقية من وجهة نظر النقاد هى تواجد مصطلحات دالة على التفرقة الجنسية مثل "chairman" (رئيس)، "postman" (رجل البريد)، "fireman" (رجل المطافئ) من ناحية، و"cleaning lady" (الخادمة)، "tea lady" (لضيعة) من ناحية أخرى، لذا أدى التذمر على استخدام مثل هذه المصطلحات إلى استبدالها بأخرى بل تفضيل الجديد على القديم مثل "cleaner" (من يقوم بالتنظيف)، "firefighter" (مكافح الحرائق) وهى كلمة جديدة مبنكرة، كما أصبح لكل قسم بالجامعة "chair" (رئيس) وليس "chairman" (رئيس) أو "chairwoman" (رئيسة)

على الرغم من ذلك يصعب استبدال بعض المصطلحات بأخرى، فمثلا لا يوجد بديل يستخدم على نطاق واسع للكلمة "postman" (رجل البريد)، هل "postperson" أم "postie" أم "post delivery person" ؟ (كلها تعنى من يقوم بتسليم البريد)، الأصعب من ذلك مصطلحات مثل "manhole" (فتحة الدخول)، "man-eating" (القرش أو أكل البشر)، "to man" (إلى فلان)، بل الأدهى من ذلك وتلك استخدام الكلمة الجمعة غير المعرفة "man" لتعنى إنسان وذلك فى جمل مثل "Man first reached the Americas 13,000 years ago" (اكتشف الإنسان الأمريكين منذ ١٣.٠٠٠ عام)، رفضت النساء تلك الاستخدامات لقرون عدة ولكن يبدو أننا الآن نخطو هتيثا نحو تنقية اللغة من مثل هذه الاستخدامات الجنسية

إلى أى مدى يمكننا الذهاب فى هذا الأمر ؟ لابد أنك لاحظت الاستخدام المتكرر لكلمات لا تقى بالفرض مثل "his" و "her" (للدلالة على الملكية) فى جمل مثل "Why should anyone persist in using forms which he or she recognize as being of low prestige ?" (لماذا يصر أى شخص على استخدام أشكال يراها هو أو هى ذات

مكاسة منخفضة ؟) إن الاختيار ما بين أحد هذين الضميرين أمر ليس بواضح، إذن فعاداً موسعاً أن نفعل ؟ ذهب بعض الناس منهجاً بعيداً عندما قاموا بتقنين ضمير حديد غير دال على الجنس مثل "henn" (خليط من him و her) ولكن عدد قليل جداً أظهر الحماس تجاه تلك النجيدات الصارخة، كما لم يظهر بديل لها في الوقت الحالي

الحياة باستخدام لغتين :

إن استخدام مجتمعات أو أشخاص بعيدهم للغتين أو أكثر في سياق الحياة اليومية واحد من أقصى ما يمكن قوله عن التنوعات، يشتهر متحدثو اللغة الإنجليزية بخف قهم في تعلم اللغات الأخرى في الوقت الذي تستخدم نسبة كبيرة من سكان الأرض أكثر من لغة بصفة منتظمة كل يوم، اعتاد الناس في جنوة الجديدة وغابة الأمازون، المطرة - حيث تستخدم لغات عدة في مناطق محدودة المساحة - تعلم لغتين أو ثلاثة من لغات المناطق المجاورة له بالإضافة إلى لغتهم الخاصة وحدث ذلك أيضاً في أستراليا قبل أن يطيح الاستعمار الأوروبي بثقافتهم، كما يستخدم الملايين من الناس في أوروبا أكثر من لغة برغم تواجد الدول المركزية الكبيرة المساحة صاحبة الأساس القوي والتي يفترض أن تكون لها لغاتها المستقلة

لا يتوقع أي شخص غريب عن نطاق أي بلد ما سبق ذكره، فإننا نتوقع مثلاً أن يتحدث الناس بالفرنسية في فرنسا، وبالطبع يحدث ذلك بالنسبة لمعظم الأشخاص البولين، ولكن يتحدث الملايين من الفرنسيين الألمانية والبريتانية^(٢٧) والباسكية^(٢٨) والوكياتانية^(٢٩) والكاتالانية^(٣٠) والكورسيكية كلغة أولى بدلاً من الفرنسية، لقد ظلت ويلز جزءاً من بريطانيا ما يقرب من ألف عام بينما يتحدث نصف مليون فرد في شمالها وغربها اللغة الويلزية كلغة أولى ويبدون في تعلم الإنجليزية بعد الالتحاق بالمدرسة، أي إنهم يتحدثون الويلزية بالمنزل مع عائلاتهم وأصدقائهم بينما يتحدثون لإنجليزية مع الغرباء.

كان كل سكان ويلز منذ عدة قرون يتحدثون اللغة الويلزية، ولكن لغتهم بدأت في فقدان مكانتها نظراً لما للغة الإنجليزية من تأثير قوي، فهي اللغة الرئيسية للممكة

(٢٧) لغة مستخدمة في شمالي غرب فرنسا .

(٢٨) لغة مستخدمة في جنوب فرنسا

(٢٩) لغة مستخدمة في شرق شمال شرق شبه جزيرة مسيريا

المسجلة، يتمثل هذا التأثير في عدة عوامل أولها إدراك الويلزيون منذ زمن بعيد أن معرفة اللغة الإنجليزية سببهم العديد من الفرص خارج ويلز، وثانيها اصطهاد السلطات البريطانية للغة الويلزية من حين لآخر، فقد رأينا منذ سنوات ليست بالبعيدة أن تلاميذ المدارس معاقبون من جرم حديثهم باللغة الويلزية داخل المدرسة، لاشك أن الكثير من محدثي اللغة الويلزية قد ضُجروا من جراء ما يعتبرونه محو تدريجي للغتهم وثقافتهم من جراء انتشار اللغة الإنجليزية كما أن بعضهم بدأ في التصرف بقوة تبدأ من رفضهم للكلام باللغة الإنجليزية مطلقاً وتنتهي بالهجوم على المنازل، التي يمتلكها متحدثو اللغة الإنجليزية وحرقتها، تمس تلك القضية الجانب الاقتصادي، فالأثرياء من ساكني لندن يتخذون من الأكواخ بشمال ويلز بيوتا يقضون فيها أجازاتهم مما سبب في ارتفاع أسعار المساكن لدرجة جعلت ساكني المنطقة الأصليين غير قادرين على مجاراتها، إن هذه القضية قضية هوية من الدرجة الأولى، فكما رأينا من قبل أن حديث أي شخص هو الدليل الواضح على هويته الشخصية في كل مكان بما في ذلك ويلز، لذلك شعر سكان ويلز بحجم الخطر الذي يواجهونه والذي يتمثل في فقدان هويتهم كرجال ونساء من ويلز وتحويلهم إلى مجرد مجهولين أو لنقل غريباء يتحدثون الإنجليزية على هامش العالم الإنجليزي

يطلق على اللغة الويلزية لغة القلة، وقد نجد هذا المصطلح غريباً قليلاً حيث أن محدثي تلك اللغة يمثلون أغلبية في كثير من أنحاء ويلز بينما يعدون قلة بالنسبة لبريطانيا ككل، انتهجت بريطانيا مؤحراً - شأنها في ذلك شأن بلدان أوروبية أخرى - سياسة أكثر تنويراً تجاه تلك اللغات المسماة بلغات القلة الموجودة بها، فلم تعد اللغة الويلزية مضطهدة على الملأ، كما تم تشجيع التعلم والفسر والاثبات الإعلامي باللغة الويلزية، بالإضافة إلى ذلك أصبحت الوثائق الرسمية ثنائية اللغة، وحتى المرافعات القانونية أصبحت من الممكن إلغاؤها باللغة الويلزية، لكن برغم كل ما تقدم يبقى لنا أن نعرف هل كل هذه الإجراءات كافية بأن تنقذ اللغة الويلزية من الضغط الواقع عليها باستمرار من جارتها ذات المكانة الأعظم في العالم أجمع - اللغة الإنجليزية؟

من العريب أن ترى أفراد أعظم دول العالم المتحدة بالإنجليزية - الولايات المتحدة الأمريكية - قد أصبحوا في الآونة الأخيرة قلقين على مستقبل لغتهم حيث نجد مئات من اللغات الأهلية بالولايات المتحدة الأمريكية قد اختفت أو أصبحت أقل أهمية

من حراء انتشار اللغة الإنجليزية، تتدفق المهاجرون على الولايات المتحدة الأمريكية - على مدار تاريخها - من كل أنحاء العالم، ففي أوقات مختلفة استقرت أعداد كبيرة من متحدثي الألمانية والإيطالية والمجرية والروسية والصينية والفيتنامية وغيرهم بأمريكا، كُتبت لهذه اللغات المهاجرة الحياة لبعض الوقت ولأجيال عدة وفي مجتمعات بعضها، ولكن في أغلب الأحيان كان أطفال المهاجرين سرعان ما ينتقلون إلى اللغة الإنجليزية وهي عملية يطلق عليها الأمريكيون "الإلغاء المذيق"، لكن في العقود الأخيرة ازداد عدد المهاجرين المتحدثين للغة الإسبانية ازديادا ملحوظا، الذين جاؤا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من المكسيك وبيرو وتوريكو وكوبا وسائر أنحاء أمريكا اللاتينية، مما جعل اللغة الإسبانية تُستخدم في أجزاء كبيرة من نيويورك وفلوريدا وجنوب غرب لولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبحت اللغة الأولى في مباحي عدة مثل التعليم والصحة والسياسة العامة.

كان رد فعل العديد من الأمريكيين المتحدثين للإنجليزية تجاه ذلك الانتشار العاد لفة الإسبانية عنيفا، حيث أصدرت حكومات العديد من الولايات قوانين تعلن اللغة الإنجليزية لغة رسمية، كما ازداد الضغط الواقع على واشنطن حتى تنتهج نفس السياسة على مستوى البلاد (مما يدعو للدهشة أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تمتلك لغة رسمية خاصة بها).

سؤالنا الآن هو هل هناك داع لتلك القوانين ؟ في اعتقادنا أنه لا داع إليها على الإطلاق وذلك لأسباب عدة.

أولاً مكانة اللغة الإنجليزية على مستوى العالم أجمع وليس بالولايات المتحدة الأمريكية فقط، والتي لا تسمح بأي نوع من الهجوم عليها، إنها لغة الأعمال والتكنولوجيا، والاتصالات، والعلوم، والثقافة العامة

ثانياً . إذا قُدر للإسبانية أن تحتل مكانة اللغة الإنجليزية بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن إصدار القوانين في ذلك الشأن لن يكون مجديا، إنها ستشبه إصدار قوانين ضد النضفم الاقتصادي أو الموت بسبب الأمراض المعدية

أخيرا، ماذا لو خضعت الإنجليزية للإسبانية ؟ إن الإسبانية لغة ثرية ومعبرة، كما لا ينبغي لغة الإنطيرية - مثلها في ذلك مثل اللاتينية والفرنسية - أن تطمح في احتلال المكانة الأولى على الدوام.

الفصل الخامس

تغير اللغة

تأمل الفقرة التالية .

And heo cende hire frum-cennedan cuna, and hine mid cild-clāpum be-
wand, and hine on binne ālegde for pam pe he næfdon rīm on cumena hūs .
And hierdas waron on pam ilcan race waciende , and niht - wascen heal-
dende ofer heora heorda. Pi stōd Dryhtnes engel wip hās and Godes beorht-
nes him ymbecān : and he him mōostum ege adrēdon.

هل يمكنك الخروج منها بمعنى ؟ إنك على الأرجح لن تستطيع استيعاب الكثير
من معناها إلا في حالة معرفتك باللغة المكتوبة بها هذه القطعة، بل حصولك على تدريب
متخصص بها، ربما يخدمك تكرار كلمة "and" (و)، ولكن بخلاف ذلك تبدو الفقرة
سبها تماما

هل بإمكانك تخمين اللغة التي تنتمي لها الفقرة ؟ هل هي الهولندية ؟ السويدية ؟
لايسلندية ؟ أم لغة أخرى تفوق أولئك قرابة ؟

كُتبت هذه الفقرة باللغة الإنجليزية، بالطبع ليست الإنجليزية التي نستخدمها في
وقتنا الحالي ولكنها إنجليزية على أية حال.

كتب هذه الفقرة متحدث الإنجليزية بجنوب غرب إنجلترا منذ ما يقرب من ألف
عام، فقد كُتبت بذلك النوع من الإنجليزية التي تحدثها الناس في ذلك الوقت والتي
يطلق عليها الإنجليزية القديمة أو الأنجلوسكسونية^(٢٠) تبدو لنا هذه اللغة غريبة حقا
فقد يتسنى لك فهم بعض كلماتها الغريبة ولكن تبقى تلك اللغة في المقام الأول غريبة
وغير مألوفة لنا مثلها في ذلك مثل اللغة الهولندية الحديثة.

(٢٠) لغة سكان إنجلترا الجرماني قبل الفتح النورماني عام ١٠٦٦

لكن هذه اللغة ليست اللغة الهولندية، إنها الإنجليزية التي علمها من يتحدثونهم لأطفالهم والذين علموها أيضا لأطفالهم، الذين علموها بدورهم لأطفالهم ، وهكذا حتى وصولها لنا فيما بعد على مدار أربعين جيلا، وكان وصولها لنا مغايرا تماما، فأصبح من الصعب علينا فهمها دون دراسة متخصصة، ؟ إنى، ماذا حدث ؟

إجابة هذه السؤال باختصار تكمن فى أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت، فاحتفت العديد من الكلمات الإنجليزية الصعبة وحلت محلها كلمات جديدة، فى حين أن بعض الكلمات الأخرى بقيت مع حدوث تغير كبير إما فى أشكالها أو معانيها بحيث أصبح من لتفسير التعرف عليها، كما أن البنية النحوية للغة قد تغيرت بدرجة كبيرة وتغير النطق هجاء أيضا وتغير معه الهجاء بصورة واضحة.

لا تعد الإنجليزية استثناء فى ذلك، فكل لغة يتحدثها البشر تتغير بصورة ثابتة، لذا فإن الدرس الهام الذى يمكننا استخلاصه من كتابنا هذا هو اللغات فى تغير مستمر.

سوف نبرز فى هذا الفصل بعض الوسائل التى تتغير بواسطتها اللغة، ونمعن النظر فى الأسباب المحدثة للتغير، ونبحث النتائج المترتبة على ذلك التغير، بادئ ذي بدء دعونا ننظر بإمعان إلى تلك الفقرة الإنجليزية القديمة

اللغة الإنجليزية منذ ألف عام :

بدما بأول جملة بالفقرة نجد كلمة "and" المألوفة لدينا بالرغم من تغير نطقها إلا أن الهجاء لا يظهر ذلك التغير، يصعب الأمر عندما نقى لكلمة "hēo" والتي تعنى (هى)، وهى تتكون من الكلمة "he" (هو) مضافا إليها النهاية الإنجليزية القديمة "o" ،لذا على المُنْتَث، بقيت هذه الكلمة حتى وقت قريب فى الشمال الغربى لإنجلترا على الشكل "hēoo"، ثم استبدلت بكلمة جديدة وهى "she" (هى) والتي ربما يرجع أصلها إلى الكلمة الإنجليزية القديمة "sēo" والتي تعنى "that one" (هذا الشيء) ويكون الشيء المشار إليه مؤنثا، تعنى الكلمة "cende" (تلد) وهى التصريف الماضى للفعل "cennan"، وقد احتفى هذا الفعل تماما من اللغة ولكن على الأقل يمكنك التعرف على النهاية -de- التى تشبه مثيلاتها فى الأفعال الماضية "loved" (أحب) و "walked" (سار)، تبدو الكلمة "hirn" أكثر وضوحا وتعنى "her" (ملكها)، بينما تبدو الكلمة "from cennedan"

كثير معبوبة، فالجزء الثاني منها معنى (مولود) وهو شكل آخر مشتق من الفعل "cennan". أما الكلمة "trum" التي تعني (تولا) لم يعد لها وجود الآن، من ناحية أخرى، تبدو لكلمة "sunu" بسيطة وتعني "son" (ابن) وهي ملحقة بنهاية نحوية اندثرت منذ زمن بعيد.

معنى "hine" على غير المتوقع "him" (له)، بينما تعني "mid" "with" (بين) وقد اختلفت من اللغة هي الأخرى باستثناء وجودها بالكلمة المركبة "midwife" (القابلة) والتي تعني حرفيا (مع السيدة)، بإمكانك استنتاج أن "cild-clāpum" تعني (ملابس الطفل) بالرغم من تغير الهجاء والنطق، كان يطلق على الحرف "p" شوكة وقد استخدم في الإنجليزية القديمة ليبدل على الصوت "th" الذي نستظفه الآن، أما الفعل "bewand" فيعني "wound" (جرح) مضافا إليه السابقة "be" التي اختلفت في الوقت، الحال، كما اختلف معها الفعل "bowed" ، تعد الكلمة "on" (على) مأثوفة لدينا وإن كن من الأندر في هذا السياق استخدام "in" بدلا منها، أما الكلمة "binne" فتماثل الكلمة الحديثة "bin" (وعاء) ملحقا بها نهاية أخرى، يعنى الفعل "lald" "slodge" (أرقد) مضافا إليه سابقة لم يعد لها وجود، كما قرره هجازه من النطق الحديث

تعني العبارة "pām pe" - التي تعني حرفيا "for that that" (لذلك) - "because" (لأن) أي أن تلك العبارة تماثل كلمة واحدة لم يكن لها وجود باللغة الإنجليزية القديمة أما الضمير "hie" فيعني "they" (هم)، نلاحظ العلاقة بين تلك الكلمة وبين الضمير "he" (هو)، وقد اختلفت هذه الكلمة أيضا إلا من الشكل "hem" ويعني "them" (لهم) الذي لا يزال يستخدم بالشكل "em" في التعبيرات المكتوبة مثل "Give 'em my regards" (بفهم تحياتي)، لم تتواجد الأشكال الجديدة مثل "they" (هم) و "them" (لهم) بالإنجليزية القديمة بل تم استعارتها من اللغة النرويجية القديمة - وهي لغة الفايكنج^(٣١) - بعد هزيمتهم لإنجلترا واستيطانهم بها وذلك في وقت ليس بعيد من كتابة مقررنا موضوع النقاش، أما التركيب الصريب "naefdon" فيعني "they" "didn't have" (لا يمتلكون) . إنه اختصار للكلمة النافية "ne" التي تعني "not" (لا)، والفعل "naefdon" هو التصريف الثاني للفعل "have" (يملك) الذي ما زال قيد

(٣١) الفرائصة الإسكتلنديون .

الاستخدام حتى الآن، نلاحظ أن الشكل "rūm" الذي يعنى "room" (حجرة) لم يطرأ عليه نعر كبير اللهم إلا فى التهجئة، تعد الكلمة "cūmena" اشتقاقاً من الكلمة "cuma" التى تعنى "guest" (ضيف) وتظهر بها نهاية أخرى.

يتحلى التشابه بين كلمتي "hūs" و "house" (منزل) بالرغم من تغير النطق بشكل كبير (ستتثنى من ذلك أجزاء من أسكتلندا حيث لا يزال استخدام نطق شبيه بالنطق القديم قائماً)، بالطبع تسلوى العبارة "cūmena hūs" "guest house" (ضيف المنزل).

لا بد أنك الآن قد استوعبت الفقرة وأبركت أنها تذكر قصة الميلاد كما وردت فى إنجيل القديس لوقا، وكما جاء فى ترجمة الملك جيمس^(٢٧) فأبها تكون على النحو التالى وأنجبت طفلها الأول ودثرت فى قعاط وأرقدته فى المِرْوَد^(٢٨) فلم يكن لهم مكان بلعانة، كان فى نفس البلدة راعياً يعيش فى الحقل وهو الذى دأب على حراستهم ليلاً، يا للعجب فقد فاجأهم ملاك الرب وسطع عليهم بهاء الرب^(٢٩) وكانوا يقاسون خوفاً شديداً

تعد الفوارق النحوية من أكثر الميزات التى تميز اللغة الإنجليزية القديمة عن مثيلتها الحديثة، قد يتراخى لك اختلاف ترتيب الكلمات فى الإنجليزية القديمة وكذلك اختفاء بعض الكلمات مثل أداة التنكير "s" وأداة التعريف "the" فى الوقت الذى تكون الحاجة إليهم ملحة فى الإنجليزية الحديثة (بدأت تلك الكلمات فى الظهور منذ ألف عام فقط)، لكن التميز الواضح يتمثل فى العدد الكبير للنهايات النحوية التى تعييب الإنجليزية القديمة

إذا سبق لك دراسة اللغة الألمانية الحديثة ستعرف أن هذه اللغة تحتوى كما لا حصر له من النهايات، ومن هنا تتشابه الإنجليزية القديمة معها هى تشتمل على ثلاثة أجناس نحوية، والعديد من فئات الكلمات، والأفعال، وكذا الكثير من النهايات مثلها مثل اللغة الألمانية، إليك نموذج التركيب القديم "so lange day" "the long day" (اليوم لطويل)، لاحظ التعبير فى الصائت "s" بكلمة "day" (يوم) - يمثل "se" صائتاً قصيراً

(٢٧) معطى اللغة

كالدى بكمة ("bat" (خفاش) بينما يمثل "a" صائتا طويلا كالذى بكمة "bar" (قضب)

جمع	مفرد	
Pā langan dagas	Se lange dag	حالة الرفع
Pāra langena daga	Pas langa dages	حالة الجر
Pæra langum dagum	Pæm langan dæge	حالة الديثف (المفعول المباشر)
Pā langan dagas	Pone langan dag	حالة المفعول غير المباشر

للتركيب "lang dag" "a long day" (يوم طويل) نهايات مختلفة .

Lange dagas	Lang dag	حالة الرفع
Langre daga	Langes dages	حالة الجر
Langum dagum	Langum dæge	حالة الديثف (المفعول المباشر)
Lange dagas	Langne dag	حالة المفعول غير المباشر

أى أن الصفات تشتمل على مجموعتين مختلفتين من النهايات وفقاً لنوع الكلمة التى تسبقها (إن وجدت)، بالطبع هناك العديد من الأوصاف الأخرى للأسماء والتى تأتى معها مجموعة نهايات أخرى بخلاف الكلمة "dag" (يوم)، هل يرضيك ما تم فعله من حذف لكل هذه التعقيدات ؟ حتى إن لم تكن راضيا فمن المؤكد أن يسعد كل من جيسات الأطفال الإيطاليات ورجال الأعمال الصينيين الذين يتكبرون على دراسة اللغة الإنجليزية لأنه كل ما سيكون عليهم فعله هو تعلم معنى مثل "the long day" (اليوم الطويل) فحسب ليكونوا قد حققوا ما يريدونه بعيدا عن تعلم أشياء معقدة مثل "langes, langum, langan"

السؤال الآن هو كيف تم لنا التخلص من تلك الهامات ؟ وماذا حدث ؟ لم يحدث شيء معينه لأن اللغة الإنجليزية أخذت فى التغير منذ اليوم الذى وصل فيه الإنجل والسكسون بريطانيا أى عام خمسمائة بعد الميلاد، لذا كان من الطبيعى حدوث هذا التغير الهائل بها، يمكن إيجاز هذا التغير فى أنه منذ أن أصبحت النهايات النحوية

كثير تعقيدا مما سبق كانت القرصة الحقيقية في حدوث أى تغير ليسهل به الأمر كله. لهذا كان التخلص من بعض النهايات السبب وراء التخلص من نهايات أخرى وتبع ذلك فقدان العمد والعديد من النهايات حتى أصبحت لا تمتلك سوى تلك الحصة من النهايات والمتواجدة بكلمات مثل "dogs, dog" (كلاب، كلب)، "loving, loved, loves" (يحب ويحب مع الضمائر أنا، أنت، نحن/ يحب ويحب مع الضمائر هو، هي، غير العاقل/ أحب/ أحب) والبعض الآخر القليل كانت النتيجة أن أصبحت الإنجليزية هي اللغة المحتوية على أقل عدد من النهايات النحوية لتفوق في ذلك أية لغة أوروبية أخرى، إلا أن عدد هذه النهايات أكبر قليلا من اللغة الصينية التي لا تشتمل على أية نهايات، لكن هذا لا يستلزم الجزم بأن اللغة الإنجليزية من أكثر اللغات التي تشبه اللغة الصينية.

سؤالنا الآن هو هل بإمكاننا التخلص من كل النهايات النحوية بصفة نهائية ؟ ربما يتحقق ذلك ولكن التنبؤ بمثل هذا الأمر مستحيل، لأن اللغة تتغير ولكن هذا التغير لا يمكن توقعه، الممكن توقعه بدلا من ذلك هو استحداث بعض النهايات الجديدة.

يمكن تحقق ما سبق ذكره، مكلما يعرف أن أجداد الصينيين كل لديهم الكثير من النهايات النحوية وجاء أحفادهم بنورهم ونخلصوا من كل تلك النهايات حتى أنهم الآن لا يمتلكون أية نهايات نحوية تميز بين (الكلب والكلاب) على سبيل المثال، أو (يحب وأحب). من ناحية أخرى تعلمت اللغة الهندية^(٢٣) - اللغة الرئيسية للهند - من كم كبير من نهاياتها النحوية منذ قرون عديدة مضت وقامت باستحداث مجموعة نهايات أخرى جديدة

يجدر الإشارة قبل أن نترك الإنجليزية القديمة إلى أن الكم الأكبر من النهايات النحوية قد فقد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقبل القرن الرابع عشر أصبحت النهايات أقل عددا وأبسط وأكثر قياسية، لا بد من وجود سبب معين لذلك.

غزا النورمانديون^(٢٤) - متحدثو اللغة الفرنسية - إنجلترا في عام ١٠٦٦ فأصبحت الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد لقرنين متتاليين، كانت الفرنسية تُستخدم في أغلب الأغراض الهامة من قبل الطبقة الحاكمة بينما استمر معظم الناس في الحديث

(٢٣) لغة شمالي الهند الأندية والرسمية .

(٢٤) أحد فنانى نورمانيا الإسكندنافيين - الفرنسيين في القرن العاشر

باللغة الإنجليزية حيث رأوها اللغة الأنسب لهم، وفي هذا الوقت لم يتواجد المعلمون الصارمون الذين يعاقبون تلاميذهم لاستخدامهم التهامات التحوية الخاطئة كما لم يكن هناك كلمات أو تركيبات لها السبق في المكانة عن غيرها لأن الإنجليزية فقدت مكانتها كلسنة، كانت المحاولة لتعلم الفرنسية التي تحدثها الطبقة العليا مجرد مضيق للوقت، ومن هنا كانت الفرصة في حدوث أي تغييرات بسببها متحدثو الإنجليزية صالحة

على التقيص من ذلك تغير نحو اللغة الإنجليزية في السنوات المائة الأخيرة من القرنين السابقين ذكرهما أكثر من ذي قبل نظرا لاحتلال الإنجليزية محل الفرنسية حتى أصبحت اللغة الرسمية لإمجلترا، تبعا لذلك أصبح شغل الناس الضاعل هو التحدث الصحيح لتلك اللغة حتى تليق مكانتهم بمكانة المجتمع الجديد، وفي الوقت الذي أصبحت اللغة أعظم مكانة أصبحت الحاجة إلى التغير أكثر من ذي قبل.

حقيقة، استمرت الإنجليزية في التغير بثبات على مدى تاريخها ولا زالت تتغير حتى الآن كانت النتيجة الحتمية لذلك التغير هي جهلنا بالإنجليزية التي استخدمت منذ قرون قليلة، كما أن الإنجليزية التي نستخدمها في وقتنا الحالي ستصبح مبهمه بالنسبة لأحفادنا، لقد حدثت التغيرات ولارالت تحدث في كل شكل من أشكال اللغة لنحو، النطق، المفردات، معاني الكلمات، دعونا ننظر فيما يلي إلى بعض الجوانب، التي تغيرت عندها اللغة بادنين بتكرار أنواع التغير وضوحا

إنها كلمة ظريفة، هل تمنع في اقتراضها ؟

اختلفت ما يقرب من ستمائة من مفردات اللغة الإنجليزية القديمة وحلت محله كلمات أخرى، كما أن العدد الكلي للكلمات الإنجليزية تنامي بشدة منذ انقضاء العهد الإنجليزي القديم بلغ عدد المفردات الآن مئات الآلاف تقريبا وهو عدد يفوق مثله في أية لغة أخرى، فمن أين أتى هذا العدد الكبير من الكلمات ؟

تتوافر العديد من الطرق التي يمكن الحصول من خلالها على كلمات جديدة وأسط تلك الطرق العملية المسماة بالاقتراض وهي نسخ لكلمات اللغات الأخرى، كالإنجليزية على مدى تاريخهم مقترضين نشطين لكلمات الشعوب الأخرى

افترض متحدثو الإنجليزية الأوائل قبل وصولهم لإنجلترا عددًا من الكلمات اللاتينية - التي كانت من أرقى اللغات بأوروبا حينئذ - وكان من ضمنها كلمات اقترضها الرومانيون منذ عهد مبكر من اليونانيين، ذابت تلك الكلمات في اللغة حتى أنه لم يتسن لغير العلماء معرفة أن تلك الكلمات ليست إنجليزية أصيلة ومنها خمر، صبايون، كنيسة، ملاك، شيطان، هلب السفينة، زيد، طباشير، جبر، علانية، ميل، جنية، سفر، شارع، حائط، جوال، مطبخ، وحتى رخيص، كلمات كلها اقترضت من اللغة اللاتينية منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام.

عندما جاء متحدثو الإنجليزية إلى بريطانيا لأول مرة كانت في ذلك الوقت خاضعة لاستعمار السلتيين^(٣٥) - وهم الأسلاف المباشرون للويلزيين والكورمش، اقترضت اللغة الإنجليزية بعض الكلمات القليلة من اللغة السلتيّة مثل وادي، الفرير^(٣٦)، الرمادي القاتم، وعاء القمامة، صليب، الدرويد^(٣٧)، من ناحية أخرى دخلت اللغة الإنجليزية عدد هائل من أسماء الأماكن السلتيّة مثل كنت، ديفون، كامبريا، لندن، ليدس، يورك، نورف، كارلسل، كرو، بالإضافة إلى الحروف الأولى من كاستربري، وكذلك إيردين، جلوستر، ليسستر، وينشستر، لينكولن، ساليسبري، كما أن العديد من الأنهار البريطانية لازالت تحمل أسماء أطلقها السلتيون منذ آلاف السنين ومنها تامز، ترنت، سيفرن، وي، أفون، كالدو، دي، درونت، إسك، أوز، تيس، أسك، وغيرها الكثير.

رحل الرومانيون المتحدثون لللاتينية عن بريطانيا قبل مجيء الإنجليز إليها بوقت قليل ولكن اعتناق الإنجليز للمسيحية في القرن السابع الميلادي مكن اللغة اللاتينية من دخول البلاد فاقترضت الإنجليزية كلمات لاتينية بأعداد كبيرة ومنها مدرسة، قانون(قاعدة)، قس، أسقف، هيكل الكنيسة، سيد، موظف كتابي، عضو بالجسم، سترة عسكرية، دائرة، ورق(جريدة)، منقب، بلور، ممبد، شجرة كمثرى، قس (مرة أخرى نلاحظ أن بعض هذه الكلمات يرجع في الأصل إلى اللغة اليونانية)

(٣٥) المتحدثون لغة السلتيّة وهي مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل الأيرلندية و لاسكتلندية والويلزية وهي لا تزال حية حتى اليوم في أيرلندا والشمال الغربي من أسكتلندا وويلز.

(٣٦) حيوان ثديي معفر جمره في الأرض .

(٣٧) كاهن هند قديما الإنطيز .

احتل الفايكنج بريطانيا من جهة إسكتلندا واستوطنوا بها بأعداد كبيرة في القرن التاسع والعاشر، استوعب الإنجليز لغتهم التي يطلق عليها النرويجية القديمة أحد كبير، كما أنهم لم يتروكوا في اقتراض ما يفوق المئات من كلماتها مثل جولة، ناعمة، ينطفئ، سماء، يعطى، يأخذ، يصبح، يضرب، يركل، يبعثر، تعابة، قدرة، يعبس (عُيوس)، يحقق، رفيق، يريد، بشرية، سكن، قانون، سعيد، قبيح، خطأ، وكذلك الصمغ، هم ولهم، نبتو هذه الكلمات وكثرتها كلمات إنجليزية ولكن لاحظ أن وجود العقود الصوتية بكلمة ما (sk) أو (sc) يدل على أنها كلمة إسكتلندية بما أن الكلمات الإنجليزية لا تضم مثل هذه العناقيد الصوتية، (يرى الكاتب أن أسلامه جاوا إلى لولايات المتحدة الأمريكية من إسكتلندا بينما يدل لقبه "Trask" على حتمية رجوع أصله إلى الفايكنج، تعني الكلمة trask مستنقع أو بحيرة صغيرة في اللغة النرويجية)، كذلك قدم الفايكنج عدداً كبيراً من أسماء الأماكن لإنجلترا مثل جريمسبي، تربي، وايتبي، كروسبي، روجبي، سكتورب، لوستوفت، بريكن.

نستنتج مما سبق أنه قبل ظهور الفقرة القديمة التي ذكرناها في بداية الفصل، قامت الإنجليزية بالعمل باقتراض آلاف من الكلمات من اللغة اللاتينية والسلتية والنرويجية القديمة والتي يظهر القليل منها في تلك الفقرة، لكن هذا الاقتراض يعد شيئاً لا يذكر بالمقارنة بما حدث للغة الإنجليزية بعد ذلك، سبق أن تحدثنا عن احتلال النورمانديين المتحدثين بالفرنسية لإنجلترا عام ١٠٦٦ وكيف أصبحت الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد لمدة قرنين من الزمان، ويمر الوقت تولى أحفاد النورمانديين بعد عدة أجيال عن لغتهم من أجل اللغة الإنجليزية، وفيما بعد اقترخت الإنجليزية آلاف الكلمات التي تعد من أعظم الكلمات الفرنسية مكانة فهي ذلك إلى تحول مرادفات اللغة تماماً

نتيجة لكل هذه الظروف نجد أن الكلمات التي تم اقتراضها من النورمانديين تشمل كلها بأمور الحرب والإدارة والتنظيم الاجتماعي والقانون ومنها حكومة، قلعة، خدمة، محامي، رئيس الوزراء، جريمة، محكمة، دولة، ضيعة، قاضي، هيئة المحلفين، رقيب، ملازم أول، رقيب، جندي، حاكم، نبيل، ملكي، أمير، نوق، بارون، وتم اقتراض كلمات أخرى مرتبطة بكل مناحي الحياة لحم البقر، لحم الغنم، لحم العجل، يشوي (مشوي)، يقل، يسلق، الطهي بتار هانئة، فاكهة، لون، شفقة، فضيلة، شرف، شجاعة، لغة، جملة، سؤال، أدب، حرق (خطاب)، معهد، أحرق، مربع، مرآة، ذكر، نسي، كرامة، ثامي، لطيف، بطل، تهمة، فحص، عقيف، وغير ذلك، في الحقيقة من

المستحيل عمليا تركيب أى جملة إنجليزية دون استخدام أحد تلك الافتراضات
الفرنسية التي نرجع في الزمن إلى العصور الوسطى، فحتى كلمة (وجه) ترجع إلى
الفرنسية النورماندية وقد حلت محل الكلمة الإنجليزية "anketh" التي اختفت بين عشية
وصباحها.

استعادت اللغة الإنجليزية قبل حلول عام ١٤٠٠ نفوذها على اللغة الفرنسية
ببطء وبدات الافتراضات الضخمة من تلك اللغة في التراجع شيئا فشيئا ليس إلى
العدم ولكن إلى قدر متواضع بالمقارنة بما سبق، لم يمنع هذا متحدثي الإنجليزية من
إخفاء إعجابهم بكلمات فرنسية مثل : صاء، شرطة، نرمة، هار، الجادة^(٢٨)، ذواقة،
الكوريشيه (شغل الإبرة)، أنقاض، جسم الطائرة، جراح، مكشوف أو غير محتشم،
هدية تذكارية، لباقة اجتماعية، مطعم، قائمة الطعام في مطعم، رد دال على حضور
لبديهة، سيجارة، فارق دقيق، فن الباليه، البيري، قهوة، كلمات كلها تم اقتراضها في
قرون القرنين أو الثلاثة قرون الماضية.

عرض انخفاض معدل الاقتراض من اللغة الفرنسية بالاقتراض المستمر من لغات
شتى أخرى في العالم، نجد أن متحدثي الإنجليزية بشمال أمريكا اقترضوا عدداً من
كلمات اللغات الهندية المحلية مثل: التبعة^(٢٩)، الوغم^(٣٠)، الثمهورك^(٣١)، الظربان
الأمريكي^(٣٢)، الراكون^(٣٣)، المفسين^(٣٤)، الطوطم^(٣٥)، البمبكان^(٣٦)، وأخذوا كذلك عدداً
ليس بالقليل من أسماء الأماكن مثل ماساشوسيتس، كونكتكت، ميسيسبي، إلينويس،
ميتشجن، إيري، شيكاغو، أما الأسبانيون والبرتغاليون الذين استوطنوا في الجنوب
فقد اقترضوا كلمات لا حصر لها وجدت طريقها إلى اللغة الإنجليزية منها : تبغ،

(٢٨) شارع مريض نكتنفه الأشجار

(٢٩) خيمة مخروطية الشكل من الجلد ، من خيام الهنود الحمر

(٣٠) كوخ بيضاوي أو مستدير الشكل ضد هنود أمريكا الحمر

(٣١) فأس يصممها الهنود الحمر كسلاح وأداة

(٣٢) حيوان ثديي صغير مثل الراثة .

(٣٣) حيوان شمال أمريكي ثديي من القوادم .

(٣٤) أنمي سامة .

(٣٥) شيء كحيوان أو نبات متخذ رمزا للقبيلة

(٣٦) طعام مكرر من أطعمة هنود أمريكا الحمر يتكون من لحم مفروم ملحق بمزيج بالدمن النوب

إعصار، قارب، أرحوحة شبكية، طماطم، بطاطس، شيكولاتة، كاكائو، نرقه، حفل شواء في الهواء الطلق، السفانا، قلقل حريف، اللامة^(٤٧)، الفُغور^(٤٨)، القَيوط، الكوكا سواء كان المقصود بها الكوكايين أو المشروبات الغازية، اقترض مستوطنو أستراليا ونيوزيلندا منهم كلمات مثل الكنغر، الواب^(٤٩)، البمرنج، الوميت^(٥٠)، الكيوي^(٥١)، لكوال^(٥٢)، الطائر الطيب^(٥٣)، الكوي^(٥٤) من اللغات الأهلية

اقترض البريطانيون الذين استقروا بالهند كلمات مثل: الرَاجا^(٥٥)، الكاري، أنواب^(٥٦)، السباهي^(٥٧)، الكولي^(٥٨)، الشُپروت^(٥٩)، البَنغل^(٦٠)، النَّصري^(٦١)، السُّمس، البيش وهو شراب مسكر، الصاحب^(٦٢)، المتديل الكبير، العمل غير المنقن، العهد الصياد، العبة، البيجاما، السفاح، الكشمير، وحتى ثامبو، أما مستوطنو جنوب إفريقيا فقد اقترضوا كلمات جيرانهم الأفارقة مثل خنزير الأرض^(٦٣)، المريع ذي الأشجار المتناثرة، أثر الحيوان، الهجرة الجماعية بواسطة عرية الثيران، ومن بعض اللغات المحلية الأهلية أخذوا كلمات مثل "impi" (أنصار الحرب) و"indaba" (مؤتمر)

(٤٧) حيوان جنوب أمريكي كالجمال الصغير بدون حذبة

(٤٨) سم أمريكي استوائي

(٤٩) كنغر صغير

(٥٠) حيوان أسترالي شبيه بيب صغير

(٥١) طائر لاغتالي من طيور نيوزيلندا

(٥٢) حيوان أسترالي من نوات الكيس

(٥٣) بيضاء أسترالية

(٥٤) شجر من الفصيلة الصوبرية

(٥٥) أمير هندي

(٥٦) شخص ذو ثروة أو مكانة عظيمة

(٥٧) هندي مجند في الجيش الإنجليزي

(٥٨) جمال أو عامل غير بارع

(٥٩) ضرب من المسكرات

(٦٠) بيت من طابق واحد وخاصة في الريف أو على شاطئ البحر

(٦١) نسيج قطني خشن

(٦٢) لقب يعطى منذ يحاول به الهنود شخصاً أوروبياً ذا مكانة اجتماعية أو منصب رسمي

(٦٣) حيوان ثديي إفريقي من آكلات النمل

أما عن باقي اللغات التي اقترضت الإنجليزية من كلماتها فحدث ولا حرج. فمن الهولندية اقترضت كلمات رئيس، رصيف الميناء، ثنية الشراع، البراندى^(٦٤)، يخت، مخ (محلج للقطن) (الجن)، سلطه الكرب، ومن الإسبانية: كتلة ضخمة من الذهب أو الفضة في منجم، سباح الخيل، رصيف يعوضه، الشيرى^(٦٥) قرار أو اندفاع مفاجئ لدس أو الحيوانات، ومن الألمانية: يساب، روضة أطفال، الهَمْسَر^(٦٦)، رقصة العاس أو موسيقاها، أحد أنواع البسكويت، البُودِل^(٦٧)، حقيبة محمل على الظهر، بيرة، ومن الإيطالية: كمان، الأوبرا، الصباغيتي (مكرونة طويلة ورقصة)، لحن يؤديه مطربان أو سحنان، كرنفال، بحيرة مألحة تفصلها الصخور المرجانية أو الحواجز، لرمية عن البحر، استوديو، مطلة، ومن العربية: الكحول، علم الجبر، فراش السرير، سفح الحريم، شربات، تعريفة، ومن الصينية: شاي، صلصة الطماطم (كاتشب)، الجيسة^(٦٨)، التيفون^(٦٩)، البرتقال الذهبي، ومن اللغات الباسيفكية الشيء المحرّم، الوشم، الأكلال^(٧٠)، من اللغات الأفريقية اليوم^(٧١)، موز، المانجو من الآلات الموسيقية، غوريلا، سحر، وكذلك الكلمة الإنجليزية الأكثر شهرة مازال الباحثون في جدال حول أصل هذه الكلمة، ولكن رجوعها إلى أصل إفريقي من أكثر الآراء قبولاً

كما اقترضت كلمة الريادي من اللغة التركية. والحيضان من المالحة، والسهب^(٧٢) من الروسية، وقافلة (عربة مغطاة تصلح للإقامة) من الفارسية، ومزليج الخشب وهو أحد أدوات التزحلق على الجليد من النرويجية، والمائدة الشطانية^(٧٣) من السويدية، وعربة تجرها الخيول من المجرية، ومربي البرتقال من البرتغالية، ونبات القرفة من

(٦٤) شراب مسكر .

(٦٥) خمر أجنبية الأصل

(٦٦) حيوان من الفوارض شبيه بالهره

(٦٧) كلب شكي كثيف وأبعد الشعر

(٦٨) نوع من العشب

(٦٩) إحصار إستوائي في منطقة القطب أو بحر الصبي

(٧٠) فتارة برتغالية الأصل

(٧١) نوع من البطاطا .

(٧٢) سهل واسع خالي من الأشجار .

(٧٣) شرب سويدي من القاء أو العشاء

لعبرية، والفضولي من اللغة البيدية^(٧٤) والويسكي، من سكوتس جالك^(٧٥)، وزائف من الأيرلندية، السونا من الفنلندية وكما أنه في الآونة الأخيرة زاد الإقبال على اقتراض الكلمات اليابسة، فأضيفت كل من السومو^(٧٦)، والكاسيت الصغير المحمول إلى قائمة الاقتراضات القديمة التي كانت تحوى كل من الفايشة^(٧٧)، الهراكبرى^(٧٨)، الجودو^(٧٩)، السوكيياكي^(٨٠)، الكيمون^(٨١).

تمثل العالمية العظمى من تلك الكلمات عناصر جديدة، فمتحدثو الإنجليزية لم يسبق لهم رؤية المطاطس أو زلاجات الجليد أو الزياى أو البمرنج قبل أن يشهدها خارج بلادهم ثم يلحقوها بأسمائهم، مثلهم في ذلك مثل الأجيال الأولى التي لم تر القلاع أو المنشآت التعليمية قبل الغزو النورماندى، وإذا بعدنا بالرمز أكثر نصل إلى أشياء لم يعدها الإنجليز القدامى مثل الأساقفة أونيوات الفس، ولكن لا بعد هذا السبب الوحيد الذى تقترض من أجله الكلمات، فقد تصمت اللغة الإنجليزية القديمة كلمات دالة على (اللفة) و(الإناث) و(الوجه) وتم استخدامها على الوجه الأمثل ولكن كل ما حدث هو أن المكانة العظمى للغة الفرنسية في ذلك الحين حثت العديد من متحدثي اللغة الإنجليزية على استخدام كلمات فرنسية في حديثهم على أمل أن يكون ذلك الحديث أكثر لياقة، بالرغم من فقدان الفرنسية لتلك المكانة إلا أنك قد تعرف شخصاً ما لا يكف عن خلط حديثه الإنجليزى أو كتلته بكلمات وعبارات فرنسية مثل "au contraire" (بالعكس)، "joie de vivre" (جمال الحياة)، "au naturel" (فى الطبيعة)، "fin de siècle" (نهاية القرن)، "derrière" (الآخر).

(٧٤) لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود في الاتحاد

السوفييتى وبلدان أوروبا الوسطى، تكتب بحروف عبرية

(٧٥) لغة مستخدمة في شمالي إسكتلندا

(٧٦) أحد أنواع المصارعة اليابانية

(٧٧) مطربة وراقصة يابانية

(٧٨) طريقة يابانية للالتصارع يقتر البطن مختبر تخلصا من النار .

(٧٩) ضرب حديث من المصارعة اليابانية .

(٨٠) طعام من لحم وخضار ويصل بقم في المطاعم الأمريكية اليابانية .

(٨١) ثوب مصفاص يرتديه اليابانيون

تختلف قليلا حالة الكلمتين "perestroika"، "glasnost"، وهما كلمتان من اللغة الروسية بدأتا في الظهور على شاشات التلفزيون وفي الصحف اليومية في وقت حدوث الثورة بالانحداد السوفيتي السابق، تعني هاتان الكلمتان "restructuring" (إعادة بناء) و "openness" (فتح) ولكننا برغم استخدامنا للكلمات الإنجليزية المساوية لهما في المعنى فضّلنا اقتراضهما من اللغة الروسية (لنقل فضل ذلك الصحفيون) لتوضيح أن الحديث لا يقصد به أية إعادة بناء أو أي "فتح" بل ذلك البناء والفتح الذي يحدث في الاتحاد السوفيتي بصفة خاصة

لا تعد الإنجليزية اللغة الوحيدة التي تقترض من كلمات اللغات الأخرى، لأن كل اللغات يحدث بها هذا الاقتراض بل إن كثيرا منها اقترض مؤخرا أعدادا كبيرة من الكلمات الإنجليزية وهذا ما سوف تناقشه بالفصل الثامن.

دعونا - قبل أن نترك موضوع الافتراض - نوضح أنه يمكنك اقتراض كلمات لا تنتمي إلى اللغة التي يُعتقد أنها اللغة المُقترض منها، فعلى سبيل المثال اقترضت الإنجليزية عبارة "nom de plume" (اسم مستعار) من اللغة الفرنسية ولكن هذه العبارة لم يكن لها وجود بالفرنسية وقت أن اقترضناها، إنها اختراع إنجليزي، بالمثل ردت الفرنسية ما فعلته الإنجليزية باقتراضها للكلمة الإنجليزية "looting" (أساس) لتعني هذه المرة السير الوئيد وهي اختراع فرنسي

المثال المفضل الذي يصلح في مقامنا هذا هو تلك الحكاية التي يذكرها اللغوي الأمريكي "شارلز هوك" قائلا أن أبا فليبينيا أطلق على ابنه - أثناء الاحتلال الأمريكي لفلبين - اسم "Ababba" نسبة للقديس الراعي للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هذا الشخص لم يكن له وجود في ذلك الوقت، إذن ماذا حدث ؟

كانت الفلبين مستعمرة إسبانية تتحدث فيها اللغة الإسبانية على نطاق واسع، هي الإسبانية تستخدم كلمة "saint" (قديس) للدلالة على القديس الرجل بصفة خاصة ومن هنا جاءت أسماء أماكن مثل سان فرانسيسكو، سان جوزيه، سان دييجو، لاحظ الأب القديس أن الجنود الأمريكيون في أوقات الشدة - اعتابوا السداء على محبتهم بالاسم "San Ababba" أو ما يشابه ذلك

لا ينطق الصوت "H" في أغلب كلامنا

لم تكن لمفردات الإنجليز في العنصر الوحيد الذي تغير في السنين الالف الأخيرة، فقد حدث تغير فجائي في النطق وإن كان يصعب تعينه والعرف عنه من النصوص المكتوبة، مما أن الوهم أن يسعنا هنا لمناقشة كل التغيرات الرئيسية التي مرأت على لنطق، فدعونا نفحص بدقة تغيرا وحيدا ذلك المتمثل في الفصاة المنحشة الحديثة بالصوت "H"

كان الصوت "H" من الصوامت الشائعة التي يتكرر مجيؤها في أي موضع بكلمة، إليك بعض الأمثلة "habban" (يملك)، "hiv" (لون)، "hit" (هذا - للجملادات)، "heah" (مرتفع)، "hepu" (ارتفاع)، "behinden" (خلف)، "hnutu" (بندق)، "hn" (ppien) (ينفخ لفترة قصيرة)، "hrin" (القداف)^(٨٢)، "hring" (جرس)، "hlud" (عدل)، "hleat" (رغيف)، "hleford" (رب)، "hlfdige" (سيدة)، "hwh" (أبيض)، "hwæt" (هذا)، "niht" (ليل)، "beorht" (ساطع)، "fyrhtan" (يخيف)، "leoh" (ضوء)، "lehte" (تعم)، "hleahhan" (يضحك)، "ruh" (عنيف)، "syðð" (يرى)، "seah" (رأى)، "puh" (عبر) كان الصوت "H" ينطق في كل هذه الكلمات بشكل ملحوظ فلم يكن مرققا أو لطيف بر كان قويا يشبه التركيب الألماني "CH"، والإسباني "J"، والعبري "CH"، و الهولندي "G"، لا زال هذا الصوت القديم مستخدما في الكلمة الأسكتلندية "loch" (بحيرة) المستفارة من لغة سكوتس جاليك.

كان الصوت "H" قديما - في اعتقادنا - يُنطق مخففا عند مجيئه في بداية الكلمة كطقتنا له في الوقت الحالي، وهذا لم يمنع نطقه بقوة أكثر عندما يقع في غير موقعه السابق ذكره، كانت هذه فقط البداية، فبعد الغزو النورماندي بوقت قصير بدأ متحدثو الإنجليزية فعل الشيء الذي ربما يعتبره سلعو اللغة الإنجليزية المتشددون - إن تواجد منهم أحد - خطأ فاحشا وهو إسقاط الصوت "H".

سنداً أولاً بالصوت "H" المتنوع بالأصوات "l, r, n"، بدأت الكتابة بالإنجليزية بعد الغزو على نحو واسع وتزامن ذلك مع إسقاط الصوت "H" تماما من كلمات مثل

(٨٢) ملاتر أسود كالغراب

"loud" (مرتفع)، "ring" (جرس)، "nut" (بندق) ولم يحاول أولئك المعلمون المشددون إشاعنا عن هذا الفعل، ظل الصوت نفسه في كلمات أخرى في الوقت الذي نعبرت فيه قواعد النطق الإنجليزية

أولا استبدلت التهجئة القديمة "hw" بنحري جديدة وهي "wh"، لذا أصبحت الكلمتان "hwit" "hwat" تكتبان على الشكل "white" (أبيض) و "what" (ماذا)

ثانياً - أصبح الصوت "h" الذي ينطق بقوة في وسط ونهاية الكلام يكتب على الشكل "gh"، لذا كان الصوت "h" ينطق بقوة في كلمات مثل "light" (ضوء)، "bright" (ساطع)، "night" (ليل)، "taught" (يضحك)، "rough" (عنيف)، "through" (خلال)

لكن سرعان ما بدأ إسقاط الصوت "h" بأعداد أكثر عندما ترسخت قواعد النطق الجديدة باللغة، ففي أثناء القرن الخامس عشر بدأت كل الأصوات التي تنطق "gh" تسقط من النطق، وقبل حلول القرن السادس عشر كانت قلة من الفلاحين والمتحدثين لا يزالون ينطقون الصوت "h" في كلمات مثل "night" (ليل)، "through" (خلال)، فيما عدا أסקتلندا حيث تمسك الناس بالنطق القديم لمدة طويلة، حدث شيء غريب في بعض الكلمات القليلة استبدل الصوت "h" بالصوت "f" ربما لتشابه هذين الصائتين أو لأن بعض الناس الذين لا ينطقون "h" أحفظوا السمع واعتقدوها "f"، لذا فإن السبب وراء النطق الحديث غير المتوقع للصوت "h" وكنهه "f" في كلمات مثل "rough" (عنيف)، "laugh" (يضحك) ما هو إلا خطأ في أصله.

يشكو معلمو اللغة الإنجليزية في الوقت الحاضر من إسقاط صوت "h" بلا ضوابط، إننا نتوقع تعرض بعض النلاميذ للمقاب بسبب ذلك ولكن لا جدوى من ذلك، فما زال الإسقاط مستمرا بحيث لم يبق لنا سوى أصوات قليلة لا تنطق في كلمات مثل "night" (ليل)، "taught" (تعليم)، "through" (خلال) تذكرنا بنطق أجدابا لذلك الصوت منذ خمسمائة عام

لا يمكننا القول بأن اللغة الإنجليزية قد تخلصت من صوت "h" في جميع كلماتها حيث لا تزال هناك الكثير من الكلمات التي تحتوي على هذا الصوت ومنها "he" (هو)، "him" (له)، "her" (ملكها)، "which" (أي)، "why" (لماذا)، "where" (أين)، "whether" (إن، إذا)، كانت ثلثي هذه الكلمات قديما بصيغة متكررة عبر مسورة وفي

هذه الحالة كان صوت "H" لا ينطق بها، ولا يحدث هذا إذا كانت منبورة، بقي هذا لتتويع قديما لقرون عدة وإلى عصرنا هذا ما زال أغلب المثقفين يقولون (لا يكتبون) أشياء مثل "What did 'e (he) give 'er (her)?" (ماذا أعطاهما ؟). يفقد الضمير "hit" (هذا لغير العاقل) الصوت "H" لأنه يأتي دائما غير منبورا مما جعلنا نعتقد شكله هذا منذ قرون مضت "H".

لا ينطق الشخص المثقف الصوت "H" في كلمات مثل "vehicle" (عربة)، "annihilate" (يعنى) لعدة أجيال، في الولايات المتحدة الأمريكية يتم نطق الصوت "H" في بداية الكلمة على أن الناطق لم يثق القدر الكافي من التعليم ويحاول الحديث بشكل لائق، تكمن المشكلة في المقطع غير المنبور الذي يأتي في بداية الكلمة، فكلمات مثل "historical" (تاريخي)، "hotel" (فندق) تفقد الصوت "H" فتكون "istorical"، "otel" عندما تسبقها أداة التنكير "an"، ومن هنا تعايش معظم المتحدثين النجباء ذلك بأن استخدموا مع هذه الكلمات أداة التنكير "a" فأصبحت "a historical novel" رواية (تاريخية)، "a hotel" (فندق).

في إنجلترا بدأ الصوت - "H" في القرن التاسع عشر - في الاختفاء من كل الكلمات التي تبدأ بالتركيب "wh" (والتي بالطبع تنطق hw)، وأصبح المتحدثون النجباء بإنجلترا ينطقون الكلمات الأتية بون صوت : "H" "whlch" (أى) "whlch"، "whales" (حيتان) "wales"، "whlne" (أنين) "wlne"، بالرغم من ذلك لا زال هناك اعتقاد جماعي لا يرقى إلى مرحلة القوة يذهب بأن النطق باستخدام الصوت "H" يبدو أكثر أناقة، كما أنه لا زال هناك القليل من معلمى الخطابة بإنجلترا يحاولون تعليم تلاميذهم بأن يقولوا أشياء مثل "hwales"، "hwlch" في وقت أصبح فيه هذا النطق محروك تكلف من الطرائق القديمة.

بينما ينتبه المتحدثون النجباء إلى مثل هذه الأمور نجد النسبة السائدة من سكان إنجلترا يعمدون إلى إسقاط الصوت "H" في كثير من المواقع الهامة، تحديدا بدأ بعض المتحدثين إسقاطه في كل كلامهم ولم يعرفوا يتطقونه على الإطلاق، فأصبحت "hair" (شعر) ينطق مثل "air" (هواء)، "hear" (يسمع) مثل "ear" (آذن)، "harm" (ضار)

مثل "arm" (يد)، هناك أدلة واضحة تؤكد أن مثل هذا النطق كان موجود فعلا منذ قرون - فعلى سبيل المثال كان كل من شكسبير ومارلو يتفكرون على هذا النطق في القرن السادس عشر، كما اعتقد عالم اللغة جيمس مطروى احتمالية استخدام هذا النطق في العصور الوسطى

مارال المتحدثون النجباء سالفو الفكر لامعبرون اهتماما إلى هذه الحقيقة (العالية العظمى من المتحدثين في إنجلترا أسقطوا الصوت "H" نهائيا من كلامهم)، توضيح الخريطة رقم (٥-١ لعام ١٩٦٠) المناطق الثلاث المحدودة المساحة بإجلترا والتي مارال سكانها يستخدمون الصوت "H" في لغتهم الدارجة، من الملاحظ أن هذه الخريطة مبالغة في نتائجها فهي توضح أن مدينة الزرويش تولى اهتماما كبيرا للصوت "H" مع أنها في الحقيقة لا تميل به الآن مطلقا، أما أغلب المتحدثين بإجلترا (وكذلك ويسر) لا ينطقون الصوت "H" في كلمات مثل "hair" (شعر)، "head" (رأس) ليتساوى بذلك مع كلمتي "light" (ضوء)، "loud" (عال).

بالرغم من التوسع في إسقاط الصوت "H" إلا أن ذلك يعد أمرا مستهجنا عند البعض، فمتحدثو الطبقة الوسطى لا يزالون يحرصون على البقية الباقية من ذلك الصوت حيث نجد أي متحدث عادي يطمح في الحصول على مهنة ذات قيمة ما عليه إلا الحفاظ على نطق الصوت "H" في كلامه لأن الاتجاه السائد في إنجلترا الآن هو اعتبار الشخص غير متعلم إذا أعمل ذكر ذلك الصوت، تذكر أنه حتى معلمى الإنجليزية الصارمين لم يحاولوا استبعاد الصوت المفقود في كلمات مثل "light" (ضوء)، "H" (هذا لغير الماقل) أو حتى "which" (أي)، يتركز الأمر برمته على الصوت "H" الذي ينطق في كلمات بعينها منذ أجيال قليلة مضت، ذلك النطق الذي يكفل لصاحبه أن يكون إنسانا ذا مكانة.



شكل (١-٥)

مناطق إنجلترا التي ينطق بها صوت "h"
صوت "h" في كلمة "hammer" مطرقة

السؤال الآن هو . إلى أين تنتهي قصة الصوت "H" بإيجاز ؟ ما من أحد يعرف إجابة لهذا السؤال. ولكننا نساند جانب التحلي عن ذلك الصوت، ففي اعتقاد أن هذا الإسقاط يقف خلفه تاريخ طويل وأنه سيواصل انتشاره حتى لا يبقى سوى حفنة من الذين ينطقون هذا الصوت ضمن كلامهم، والذين سيذهبون لا محالة وسذهب معهم آخر "H" .

إذا ثبت خطأ توقعنا السابق فسيكون ذلك بسبب التأثير المتصغر للإنجليزية الأمريكية، لم يعرف إسقاط للصوت "H" في شمال أمريكا وأمكتلندا وأيرلند وبلاد نصف الكرة الجنوبي - في كلمات مثل "hair" (شعر)، "head" (رأس)، ربما كان هذا الاهتمام ينطق ذلك الصوت هو السبب الذي جعل المتحدثين بإيجاز يتجهون نحو التحلي عن البقية الباقية من هذا الصوت، لكن من الصعب الجرم بهذا الأمر لسبب واحد وهو ملاحظة اللغويين الأمريكيين - منذ عقدين أو ثلاثة - إسقاط الصوت "H" من الكلمات التي تبدأ بالصوتين wh- مثل "where" (أين) و "whine" (أنين)، كما أنهم حددوا ثلاثة مناطق ينتشر بها هذا الإسقاط حينئذ، سرعان ما بدأ هذا الإسقاط في الانتشار عبر البلاد بسرعة مذهلة، وقد أفاد اللغوي الأمريكي ويليم برايت مؤخراً أن لقليل من كبار السن هم الذين ينطقون الصوت "H" في الكلمات "where" و "whine" يعقب الكتب أن هذا الأسلوب الحديث انتشر في قرى بعيدة مثل "كاتاروجس" - القرية التي ولد بها، فبينما ينطق هو الصوت "H" في تلك الكلمات لا ينطقها أخواه الذين يصغرونه سناً

كذلك لم تظهر أية علامات دالة على إسقاط الصوت "H" في كلمات إنجليزية أمريكية مثل "hair" (شعر) و "head" (رأس)، ولكننا لن نصاب بالدهشة إذا قرأنا مقالاً في أحد الصحف اللغوية التي ستصدر في غضون السنوات القليلة القادمة يخبرنا بظهور إسقاط لذلك الصوت في تلك الكلمات بكل من "البوكورك" و "نولوث" و "شاندوجا".

تبين قصة الصوت "H" عدداً من النقاط الهامة بشأن الطريقة التي يسير بها تغير اللغة

١ من المحتمل أن يؤثر التغير على حالات معينة في البداية ثم يعتد تأثيره إلى حالات أخرى، رأينا إسقاط الصوت "H" بداية إذا وقع قبل الأصوات "l, r, n" ثم

سرعان ما امتد إلى كل الأصوات فيما عدا تلك المتبوعة بصوت صائت أو بالصوت "w" ثم تبع ذلك المقاطع غير المتبوعة والصوت "H" المبعوع بالصوت "w" وأخيرا امتد إلى النقة الباقية

٢ ينتشر التغير تدريجيا فوق إحدى المناطق الجغرافية، توضح الخريطة بالشكر (٥ ١) أن الخطوة الأخيرة في إسقاط الصوت "H" بدأت من بعض المناطق حتى انتشرت في أغلب أنحاء إنجلترا فيما عدا ثلاثة أنحاء متفرقة أطلق عليها المناطق القديمة والتي لم يظهر بها التغير حتى الآن، توضح المخطومات من مدينة البرويج أن انتشار إسقاط الصوت "H" مارال مستمرا، كما تذهب المخطومات من أمريكا إلى أن إسقاط الصوت "H" من الكلمات التي تبدأ بالصوتين wh- بدأ في الانتشار تدريجيا من ثلاث مناطق رئيسية.

٣ - ربما يؤثر التغير على متحدثين بعينهم في مجتمع ما في البداية ثم ينتقل بعد ذلك إلى الآخرين، أثناء ذلك يكون التجديد شيئا مستهجنا، يطلق اللغويون على هذه الحالة الشائعة التغير السفلي هو تجديد يظهر بالانحرافات المنخفضة المكانة ثم يستهجنه المتحدثون الآخرون في بداية الأمر وبمرور الوقت ينتشر هذا النوع عبر طبقات المجتمع حتى يصبح معيارا وفي المقابل يحضر الشكل القديم مستهجنا، يبدو هذا الأمر وكأنه حدث في شأن إسقاط الصوت "H" تذكر أن إسقاط هذا الصوت من كلمات مثل "light" (ضوء) قاومه المدعون للعلم ثم أصبح معيارا بعد ذلك بينما اعتبر إسقاط ذلك الصوت من الكلمات التي تبدأ بالصوتين wh- شيئا مبتذلا في البداية ولكنه أصبح الآن شأن المثقفين بإنجلترا

هناك حالة تشابه مع إسقاط الصوت "H" بل تتفوق عليها ألا وهي إسقاط الصوت "r" بدأ بعض المتحدثين بإنجلترا منذ قرنين في إسقاط الصوتين "rs" اللذين لا يتبعان بصوائت من جميع كلماتهم، لذلك أصبحت "farther" (أبعد) مشابهة للكلمة "father" (ب)، وكذلك "pore" (مسام الجلد) و "paw" (مخالب)، اعتبر إسقاط الصوت "r" في بداية الأمر ولادة طويلة جهلا ولكنه بالرغم من ذلك انتشر إلى أن أصبح المعيار بـ إنجلترا، يعد إسقاط ذلك الصوت الآن ضربا من اللباقة كما اعتبر المتحدثون الذين يتمسكون بنطقه في غرب البلاد فلاحين سذج متعلما اقترح الكاتب فيما سبق أن مناطق الصوت "H" مستقبلا سيعتدون من الفلاحين السذج

٤ - يعد التغير الآخذ في التزايد تنوعاً، إن التنوع القائم بين نوعي الكلام (الناطق الكامل للصوت "H"، الناطق عن ذلك النطق) ما هو إلا نتيجة لاختفاء ذلك الصوت لدى كل من متواجدا لقرون، تمثل العديد من أمثلة التنوعات المذكورة بالفصل الرابع تنوعات أحدث في الازدياد

بإستطاعتنا ملاحظة اللغة وسماها وهي تتغير، بالرغم من أنه ربما لا يتسنى لنا معرفة أن ما مشهده هو التغير الآخذ في الازدياد، يطلق اللغويون على التغير الذي يمدد لأجيال عديدة - كإسقاط الصوت "H" باللغة الإنجليزية - الاتجاه للطور اللغوي أي اتجاه اللغة نحو التغير المستمر في اتجاه واحد، يترتب على كل من التغير البطيء طويل المدى كإسقاط الصوت "H"، وكذا التغيرات المفاجئة كإكتساب الكلمات الجديدة - نتائج ملحوظة وهي ما سوف نناقشه فيما يلي.

من أين أتت اللغة الإنجليزية ؟

عندما استوطن الأنجلوساكسون إنجلترا في بادئ الأمر منذ ألف وخمسمائة سنة مضت تواجدت بعض التباينات الإقليمية بالفعل في كلامهم ولكنها لم تكن تبيّنات هامة، تراكمت تباينات أكثر بمرور الوقت، فقد كان أي تحديث يجري في منطقة ما لا يلبث أن ينتقل - في أحيان كثيرة - إلى مناطق أخرى وهذا لايعنى أن التحديث ينتشر بالضرورة في المناطق المتحدة للغة بكاملها (راجع خريطة اللهجات بالفصل الرابع)، بعد قرون عدة تعرضت إنجلترا لبعض التغيرات اللغوية في النحو ومفردات اللغة والنطق، ولكنها في نفس الوقت لم تتعرض للتغيرات الأخرى التي تأثرت بها المذائق المختلفة، نتيجة لذلك انقسمت كل ناحية تنطق بالإنجليزية تدريجياً إلى عدد من المذائق تمتاز كل منها بعدد لا حصر له من التباينات - هذه هي اللهجات الإقليمية التي تحدث عنها بالفصل السابق قبل حلول عام ١٥٠٠ أو نحو ذلك (بعد مرور ألف عام على الاستيطان الأنجلو ساكسوني) كان من الصعب على المتحدثين من المناطق المختلفة فهم بعضهم بعضاً.

إن الجمع بين تغير اللغة والانفصال الجغرافي يعد - كما سنرى - قوة لا يستهان بها، وفيما يخص اللغة الإنجليزية نرى أن درجة ذلك الانفصال قد زادت كثيراً من جراء استيطان متحدثي الإنجليزية لأمريكا الشمالية في القرن السابع عشر،

وأستراليا ونيوزيلندا في القرن التاسع عشر. بالفعل يختلف الكلام في أمريكا الشمالية بدرجة ملحوظة عن مثله في بريطانيا، كما أن الإنجليزية المنحدرة في الميسيسيبي أو شمال كارولينا تكون صعبة الفهم للغاية بالنسبة لشخص من بريون، علاوة على ذلك ذكر أنه عندما عرضت الأفلام الأمريكية لأول مرة ببريطانيا عام ١٩٢٠ لم يتمكن الجمهور البريطاني من فهمها باعتبارها لم يسبق له سماع أي شيء من الكلام الأمريكي

ماذا نتوقع أن يحدث من نتائج لذلك التشعب المتنامي في حاله عدم حدوث تدخل من أية عناصر أخرى؟ ستكون النهاية هي تشعب التنوعات الإقليمية للغة الإنجليزية حتى تنتهي إلى شيء غير مفهوم يضطربنا في النهاية على التحدث - ليس بلهجات مختلفة - بل بلغات مختلفة.

من الممكن ألا يحدث هذا في وقتنا الحاضر بفضل ما نشهده من تقدم سريع في وسائل النقل والاتصال بالقرن العشرين، ولكن ربما يحدث هذا في وقت لاحق، مما لا شك فيه أن انشطار لغة واحدة إلى عدة لغات قد حدث مرارا وتكرارا، وهذا يفسر سبب خروج اللغة الإنجليزية لأول مرة للوجود

منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام - حين كانت أغلب مناطق بريطانيا محيطة من قبل اللغات التي تحولت في صورتها البهائية إلى الويلزية والكورنية - كانت الإنجليزية تستخدم في الساحل الشمالي للقارة الأوروبية، أي في مناطق هي الآن جزء من سويسرا وألمانيا والدنمارك، لقد قما تسمية تلك اللغة اسم *Ingvaenic* لأنه حتى وإن كان أصحابها قد أطلقوا عليها اسماً ما فإنه كان سيندر لا محالة بمرور السنين، تنقلت بعض القبائل المتحدثة لهذه اللغة - الإسجل والساكسون - عبر بحر الشمال إلى بريطانيا منذ ١٥٠٠ عام، ولكن لم تهجر تلك القبائل بكامل أعدادها فقد بقي العديد منها بأوروبا، إذن ماذا حدث لفهمهم؟ بالتأكيد لم تتحول إلى اللغة الإنجليزية

بالطبع لم تتحول إلى الإنجليزية بل تحولت إلى شيء آخر أو لعقل أشياء أخرى، أحد الإسجل والساكسون اللغة *Ingvaenic* إلى بريطانيا ولكن بحر الشمال وقف حاجلاً صعب التغلب عليه دون مواصلة التقدم، عندما استقرت تلك اللغة في التغير كان هذا لتغير يحدث على أحد جانبي البحر ولا يصل أبداً إلى الجانب الآخر، لذا في غضون قرون قليلة اختلفت التنوعات الجزرية التي تسميها الآن بالإنجليزية تمام الاختلاف عن التنوعات القارية، وبينما تحركت إنجلترا فكريجياً نحو الاتحاد تحت سلطة سياسية واحدة (كان هذا عاملاً مساعداً في الحد من انقسام اللغة الإنجليزية)، وجد الدين استقراراً بالقارة أرسنهم مقسمة بواسطة الحدود السياسية، في النهاية انقسمت اللغة

ingvaeonic القارية إلى عدة تنوعات إقليمية لا نعت إحداها للأخرى بأي صلة، ذكر علماء اللغة الآن ثلاث لغات قارية مشتقة من اللغة ingvaeonic وهي: الهولندية، "frisian"^(٨٢)، والألمانية النينا (حقيقة اشتقت بعض لهجات اللغة الهولندية والألمانية الدنيا من اللغة ingvaeonic، وكان الموقف اللغوي متزما في هذا الجزء من العالم)

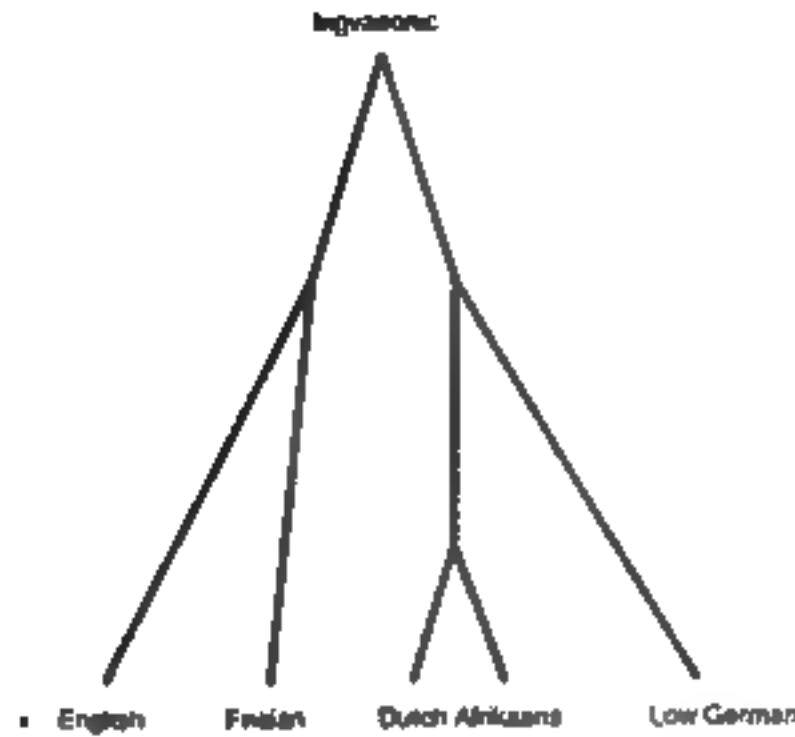
تستخدم الهولندية في كل من سويسرا ونصف مساحة بلجيكا ومساحة صغيرة من شمال فرنسا حول "نكرك"، انقسمت هذه اللغة - مثل الإنجليزية - إلى عدد من اللهجات الإقليمية، فالمتحدث من أمستردام لا يمكنه فهم الهولندية المحلية بلجيكية الغربية أو فرنسا (في بعض الأحيان يطلق على التنوعات الإقليمية للغة الهولندية (FLEMISH) فيما سبق كانت اللغة FRISIAN تستخدم في أنحاء كثيرة من سويسرا، كما أنها لا تزال تستخدم في عدد من الجزر خارج الساحل السويسري والألماني وكذلك في أحد أنحاء أخرى للقارة الأوروبية، كذلك انقسمت اللغة FRISIAN إلى مجموعتين على الأقل من اللهجات تختلفان إلى حد كبير، أما الألمانية الدنيا فتستخدم في مساحة واسعة من شمال ألمانيا، وتنقسم أيضا إلى عدد من التنوعات المختلفة تماما، (تتحدث من ingvaeonic لغة أخرى لا تستخدم في أوروبا، إنها الأفريقية والتي تعد نتجا متميزا للهولندية جاءت إلى جنوب إفريقيا منذ ثلاثة قرون).

ثم يتمكن متحدثو الإنجليزية من فهم هذه اللغة لعدة قرون، لكنه بإمكاننا معرفة أجزاء من لغة أسلافنا، ما تشير للعبارة الهولندية "koud we- een goed boek de open,ter وماذا عن الجملة "wat wilt u- kopje koffie of glas bier?"

يمكننا توضيح الأسلاف المستخدمين للغة ingvaeonic بالاستعانة بمخطط الشجرة بالشكل رقم (٢-٥)، يوضح مناه هذه الشجرة تقارب كل من اللغة الهولندية وإفريقية بنسبة أكبر من اللغات الأخرى، بما أنهما ظهرا منذ ثلاثة قرون فقط فهما لا يزالان مفهومين بالرغم من أن كل واحدة ليست مألوفة لمتحدثي الأخرى.

إن اللغة ingvaeonic ليست هي الوحيدة التي تمتد للإمجليزية بحصة، فهناك عدد من اللغات الأوروبية قريبة للإنجليزية ولكن لحد ليس بكثير، فعلى سبيل المثال لا تعد لحمل الألمانية "Mein Haus ist alt, Dies Wein ist gut" غريبة عن اللغة الإنجليزية، كذلك ربما يمكنك فهم الجملة السويدية "Nils har en penna och en bok" بالمعنى "Nick

(٨٢) لغة ألمانية تتحدث بها اللهجات .



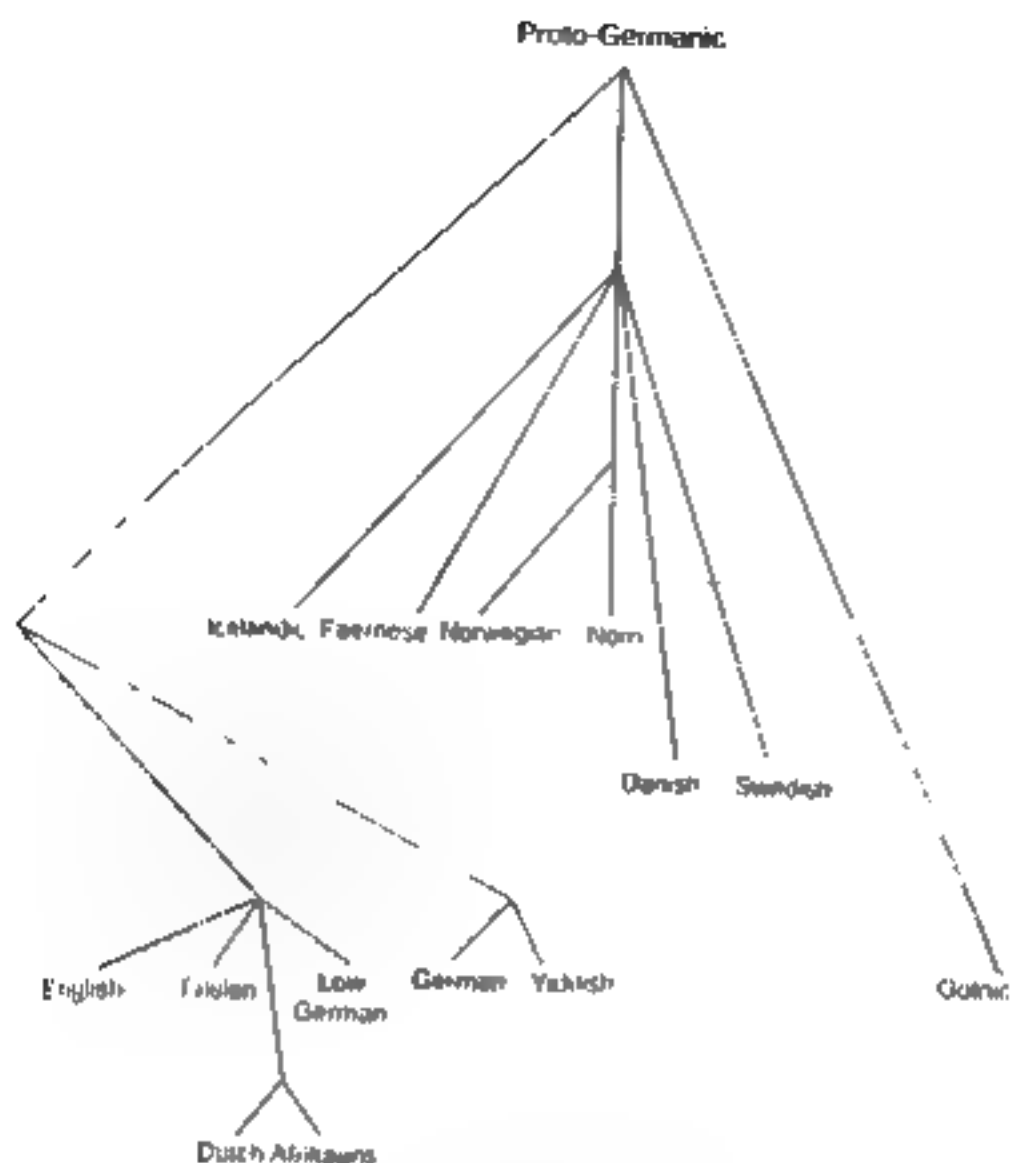
شكل (٢-٥)

شجرة عائلة اللغة Ingvaconic

الألمانية الدنيا الإفريقية Frisian الإنجليزية

"has a pen and a book" (لدى نيك قلم وكتاب): تعد الأيسلندية أكثر صعوبة، ولكننا إذا أخبرتك أن الجملة الأيسلندية *Folkúð segir, að hún sé lík Anna* تعني "people say that she is like Anna" (يقول الناس إنها تشبه أنا) ستفكر على الفور مدى تشابه بين اللغتين، من ضمن اللغات القريبة للغة الإنجليزية كل من: الدنماركية والنرويجية والفاروسية "Faeroese" (المستخدمة في جزر فاروس) والنوردية "Norn" (لغة استخدمت فيما قبل في جزر أوركناي وشيتلاند بشمال أسكتلندا)، و البيدية (نتاج مميز للألمانية) والقوطية (لغة بائدة استخدمها العديد من الغزاة الهمجيين الذين أطحوا بالإمبراطورية الرومانية)

تسمى هذه اللغات باللغات الجرمانية وقد بدأت كلها في الظهور منذ آلاف الأعوام كلهجات للغة واحدة يطلق عليها الألمانية البدائية، تظهر شجرة اللغات الألمانية بالشكل (٣-٥)



شكل (٢-٥)

شجرة عائلة اللغات الجرمانية

النوردية/النرويجية/الفاروسية/الأيسلندية

السويدية/الدنماركية

القوطية

البيدية/الألمانية/الألمانية العليا/ Frisian/ الإنجليزية

الإفريقية

من تحدث الألمانية البدائية؟ وأين، ومعنى؟ السؤال ليس بسيطاً، فمتحدثو هذه اللغة كانوا أميين لم يتركوا خلفهم أية نصوصاً مكتوبة، لكن ذهب اجتهدات العلماء إلى أنه من المحتمل أن تكون هذه اللغة قد استخدمت في جنوب إسكتلندا عام ٥٠٠ قس الميلاد تقريباً، وقد تحرك متحدثو هذه اللغة من مكانهم إلى شمال وشرق وجنوب أوروبا إلى أن وصلوا في النهاية وبعد آلاف السنين إلى بريطانيا، انقسمت اللهجات التي استخدمتها هذه المجموعات إلى عدد من اللغات المستقلة وإن كان من السهل التعرف على النسلة التي تربط بينها

إن الألمانية البدائية ليست نهاية المطاف كما أنها ليست البداية، فقد أثبتت الدراسات - التي ستمرت نحو مائتي عام - بما لا يدع مجالاً للشك أن اللغة الألمانية البدائية بدأ استخدامها كلهجة لإحدى اللغات القديمة، وفي هذا دلالة على أن اللغات الألمانية ذات علاقة بعائلة كبيرة من اللغات المستخدمة في معظم أنحاء أوروبا وكثير من مناطق آسيا، تشتمل تلك العائلة الكبيرة على: اللغات السلافية مثل البولندية والألمانية، واللغات الرومانسية مثل الفرنسية والإسبانية والإيطالية، واللغات السلافية مثل الروسية والبولندية والصربية-الكرواتية، واللغات البلطية^(٨٤) مثل الليتوانية، والعديد من اللغات المستقلة مثل اليونانية والألبانية والأرمينية، واللغات الإيرانية مثل الفارسية والكردية، واللغات الهندية الشمالية مثل الهندية ونيبالية^(٨٥) ولغة بنجلاديش والبوجاراتية، وعدد من اللغات المنقرضة التي استخدمت سابقاً في بلكانز بتركيا الجديدة وآسيا الوسطى، تطلق على تلك العائلة اسم الهندوأوروبية وتنحدر لغاتها من أصل بعيد يسمى بالهندوأوروبية البدائية أو PIE، يعتقد أن PIE كانت تستخدم منذ حوالي ستة آلاف سنة في مكان ما بأوروبا الشرقية، وعلى الأرجح بجنوب روسيا من قبل مجموعة من الناس يركبون الخيول والعربات ذات العجلات ويشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، قد جاعتنا هذه المعلومات عن تلك اللغة من كلمات مثل "horse" (فرس)، "wheel" (عجلة)، "axe" (محور العجلة)، "grain" (بذرة)، "cow" (بقرة)، "sheep" (شاه)، "dog" (كلب) والتي بقيت في لغات ذات صلة باللغة المتحدث عنها، إن على يقين بأن -على سبيل المثال - كلمة "sheep" (شاه) الإنجليزية تعبر

(٨٤) مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل اللاتيفية والسوانية والروسية القديمة

(٨٥) لغة مستخدمة بالهند وباكستان

كلمة "owis" المستخدمة في اللغة الهندوأوروبية البدائية (تستخدم الحمة للدلالة على تركيب من اختراع اللغوي) لأن الكلمة المقابلة لها في اللغة sanskrit (لغة هندية قديمة) هي "avis"، وكذلك "ovis" اللاتينية، "ois" اليونانية، "avis" اللبوانية، "oi" الأبرلندية القديمة، "owe" الإنجليزية، كلها كلمات تعنى (شاه).

شيء طمعى أن يتحدر اللغة الهندوأوروبية البدائية من أصل سابق عليها وهكذا حتى تصل إلى أصول اللغة البشرية والتي ربما تمتد إلى ١٠٠٠٠٠٠ عام أو يزيد، من الصعب تتبع الأمور لأقدم من ذلك، فقد أصبح حجم التعيرات التي حدثت بالبعث كبيراً للغاية مما جعلنا عاجزين عن التعرف على أصل واحد للغة والتيقن منه - مع أن عدداً من اللغويين يبذلون الجهد من أجل التوصل لحل هذه المشكلة - وقد بدأ بعضهم الاعتقاد بأن العائلة الهندوأوروبية وغيرها من العائلات اللغوية اشتقت من أصل لغوي بالغ القدم أطلقوا عليه PROTO-NOSTRATIC وهم يرجحون استخدام هذا الأصل اللغوي منذ ما يقرب من ١٥٠٠٠ عام، ولكن الفكرة برمتها لا تزال محل نقاش

بعيدا عما سبق، فإننا نجعلنا في النوصل إلى أصول اللغة الإنجليزية وترجع إلى أناس مجهولين أميين عاشوا بمكان ما بقوروا الشرقية منذ ما يقرب من ٦٠٠٠ عام، بدأ هؤلاء الناس في الانتشار تدريجيا في أنحاء كثيرة من آسيا وأوروبا، وقد بدأت أولى مجموعاتهم التحرك أولا إلى اسكنديافا ثم تبع ذلك التوغل جنوبا إلى أوروبا، كما عبرت بعض المجموعات الأخرى بحر الشمال حتى بريطانيا حتى أصبحت لغتهم لجرمانية - والتي أطلق عليها في النهاية الإنجليزية - اللغة القومية لإنجلترا ثم لغة إمبراطورية البريطانية، وأخيرا اللغة الأعظم مكانة والأوسع استخداما في لعالم أجمع

الفصل السادس

اللغة والعقل والمخ

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى الأهمية القصوى لجهازنا الصوتي لفريد من نوعه، وقدرته على تمكيننا من الكلام، هناك شيء آخر ظهر في إطار التطور لدى عيشه أسلافنا - بجانب ذلك الجهاز الصوتي - وكان له أهميته في استخدام اللغة أيضا - إنه المخ الشجري الذي يتميز بكبر حجمه، عاش أجدادنا منذ آلاف السنين - بعد نجاحهم في السير بقامة منتصبة - بمخ صغير الحجم يشبه مخ الشمبانزي ثم ما لبث أن تضاعف هذا المخ بين عشية وضحاها إلى أربعة أضعاف حجمه، لم يتوصل أحد إلى سبب ذلك التضاعف برغم تعدد التكهنات حول هذا الأمر، ومن أصلح تلك التكهنات ما ذكر في شأن أن المخ تطور لسبب وجيد ألا وهو تمكيننا من استخدام اللغة

سواء صح هذا التخمين أو أخطأ، فبطبيعة الحال كان هناك اهتمام كبير باكتشاف كيفية تنظيم اللغة داخل المخ ومكان تواجدها، تجلّى هذا الاهتمام في جهود الشاقّة لعلماء اللغة العصائيين (الذين يدرسون العلاقة بين اللغة والمخ)، لم تتوجد أية طريقة مباشرة في الآونة الأخيرة لدراسة وظيفية أي مخ طبيعي صحيح، وكانت الطريقة الوحيدة لاستخلاص المعلومات هي دراسة الأسلوب الذي يتحدث به أولئك الذين يخافهم الحظ وأصيبوا بثلث في المخ وكذا تشريحهم بعد الوفاة لتحديد الأجزاء المتألفة، علق أحد الأشخاص على عمل هؤلاء العلماء بأنه يشبه فحص حطام جهاز تليفزيون من أجل معرفة الطريقة التي يعمل بها، بالرغم من ذلك، فقد أبلى علماء اللغة العصائيون بلاء حسنا في عملهم هذا.

مخ تالف ، كلام مضطرب :

يمكن أن تالف المخ من جراء أسباب عدة - صقعة قوية على الرأس، حرج بالرأس، احتراق جزئي أو سكتة دماغية وهي أكثر الأسباب شيوعا، يستهلك المخ ربع

كامل من مقدار ما بالجسم من أكسجين، وإذا ما تجلط الدم بداحل الأوعية الدموية للمخ سبب ذلك هلاك الأنسجة المحيطة به بسبب الاختناق، لا يمكن التوقع بنجاة هذا التلف ولكنه في الأغلب يسبب نتائج خطيرة من أبرزها حدوث نوع من تعطل قدرة المصاب به على استخدام اللغة، يطلق مسمى الحسنة "Aphasia" عادة على اضطراب اللغة الناتج عن تلف المخ، ولكن بعبارة المعنى الحرفي لهذا المصطلح وهو "فقدان القدرة على الكلام" بالإضافة إلى قلة عدد الذين يعانون من فقدان قدرتهم اللغوية من انعدامهم حباً للعديد من علماء اللغة العصائيين الآن استخدام مصطلح "Dysphasia" والذي يعنى "عسر الكلام أو عسر فهمه".

لاحظ العديد من الباحثين المستقلين في النصف الأول من القرن التاسع عشر تشابه اضطرابات الكلام التي يعاني منها عدد من مرضى تلف المخ إلى حد كبير، كما أن جميع هؤلاء المصابين يعانون - بعد تشريح ما بعد الوفاة - من تواجد التلف بنفس المناطق بالمخ، أعلن الجراح الفرنسي "بول بروكا" في عام ١٨٦٤ توصله لتلك الحقائق عن طريق إجراء التجارب على ثمانية من المرضى، لذلك يطلق على الاضطراب الذي قام "بروكا" بتفسيره اسم "حسنة بروكا" وكذلك أطلق اسم "منطقة بروكا" على الجزء الذي قام بدراسته، يبدو أنه بنفس درجة التوافق في التسمية يؤدي التلف بمنطقة بروكا إلى الإصابة بحسنة بروكا

تشغل منطقة بروكا مساحة صغيرة لا تتعدى البوصة - من القشرة المخية (سطح المخ الخارجي المجدد ذو اللون الرمادي، والذي يتخذ شكل الجوز) - إذا وضعت إصبعك على رأسك وتعيداً فوق صدغك الأيسر ستكون مشيراً وقتئذ إلى منطقة بروكا التي تقع بالجزء الأيسر من المخ لدى غالبية البشر

يسبب تلف منطقة بروكا نوعاً معيناً من الحسنة يسهل التعرف على أعراضه حيث يكون خروج الكلام من المصاب بطيئاً وشاقاً للغاية، أي أن كل كلمة تُنطق بشق الأنف، ماثل يكون إيقاع الكلام غير طبيعي وكذلك التنغيم العادي، وفوق هذا ودك يمثل اضطراب النحو أكثر الأمور جذباً للانتباه، فلا مكان له عند المصابين بذلك النوع من الحسنة، إنهم لا يستطيعون تكوين جملة نحوية صحيحة، ولا يعرفون أعب الكلمات النحوية البسيطة مثل "of" (من، عن)، "the" (ال)، "to" (بحول إلى)، "if" (إذا)، "be" (يكون)، "or" (أو)، (مع ملاحظة أنهم يحفظون بالكلمات التي تشتمل على نفس العدد

من لأصوات مثل "bee" (نحل) و "oar" (مجداف)، كذلك فهم يضعون العلامات البحرية للكلمات مثل علامات الجمع، وعلامات الأزمنة الماضية و -ing الخاصير بالأفعال، إنهم يستطيعون بالكاد النطق بأي أفعال. فمعظم الكلمات التي ينطقونها بصعوبة ما هي إلا أسماء، أخيراً، يتميز نطقهم بالفقر حيث يتداخل الكلام مع بعضه البعض فيصعب تفسيره، إليك نموذج لكلام أحد حبيسي بروكا الذي يجيب على سؤال وجه إليه عن سبب حضوره إلى المستشفى :

نعم - آه - يوم الاثنين - أبي - وأبي - آه - مستشفى - وآه - يوم الأربعاء - يوم لاربعاء - الساعة التاسعة وآه يوم الخميس - الساعة العاشرة آه الأطباء - اثنين اثنين - آه الأطباء و - آه - الأسنان - نعم، وطبيب - آه بنت - والدة ، وأنا .

بالرغم من ذلك يحمل حديث حبيس بروكا قدراً لا بأس به من المنطقية والدلالة، فهم يستطيعون فهم ما يقال لهم فيما عدا الحمل المعقدة نحويًا مثل "The boy who was kissed by the girl cried" (بكى الولد الذي قطنته البنت)، إنهم يستطيعون القراءة بصورة طبيعية ولكن العقبة التي تعترضهم هي الأشكال المصرفية العادية مثل "dogs" (كلاب)، "wanted" (أراد)، وبالعكس يحسنون التعامل مع التصريفات الشاذة مثل "children" (أطفال)، "took" (أخذ)، علاوة على ذلك فهم على علم تام بما يكادونه من صعوبة في التحدث، وربما يكون هذا أحد أسباب استجابتهم للعلاج، إنهم يتحسنون كثيراً بمرور الوقت وإن كان من الصعب شغلهم بصورة نهائية.

عرف الباحث الألماني "كارل ويرنك" عام ١٨٧٤ نوعاً ثانياً مختلفاً تماماً من الحبسة ويعرف حالياً باسم "حبسة ويرنك"، ينطق المصاب بذلك النوع من الحبسة كلامه بسرعة وطلاقة وكأنه يتحدث تباعاً دون أن يلتقط أنفاسه، يتخذ كلاماً من الإيقاع والتنظيم مساراً طبيعياً، كما أن معظم التركيبات النموية العادية تأتي سليمة، إنك إذا استمعت دون اكتراث إلى حديث أحد هؤلاء المرضى ستعثر في ملاحظة أي خطأ به، ولكن بمجرد أن ترفف السمع سوف تلاحظ المشكلة التي يجابهها حبيس ويرنك، ما يقوله لا يمثل أي معنى، ربما يتمكن من إخراج مقاطع قصيرة كل منها ذات معنى على حدة ولكن عند ربط هذه المقاطع لا يتكون معنى مفهوم، كما أن هذه المقاطع منفصل عن بعضها البعض بكلمات عديمة المعنى، إليك هذا النموذج -

إذا استطعت سوف، أه إنتى أستخدم الكلمات استخداما خاطئا لقولهم، كل الحلاقين عندما يوقفونك يكررون ويكررون ، إذا عرفت ما أعنيه، حسنا، إننا كد نحاول للأفضل بقرر استطاعتنا بينما فى وقت آخر كانت الأسرة هناك .

يحد حببىسو ويرتك صعوبة بالغة فى الفهم، فهم يستوعبون قليلا وربما لا يستوعبون أى شىء على الإطلاق مما يقال لهم، أكثر من ذلك أنهم لا يدركون ما هم بصدد من مشكلات، وهم يصابون بالإحباط والضيق كثيرا عندما يندى أى شخص عدم قدرته على فهم ما يقولون، من الطبيعى أن تقابل صعوبة بالغة عند معاملة شخص ما لا يدرك ما لديه من مشاكل، وهم فوق ذلك قلما يستجيبون للعلاج

استطاع ويرتك - مثل بروكا - تحديد منطقة بعينها بالمخ يترتب على تلفها تلك الأعراض المذكورة أنفا، تفوق منطقة ويرتك منطقة بروكا حجما وتقع مثلها بالجزء الأيسر من القشرة المخية عند معظم الناس، يمكنك تحديد مكانها إذا وضعت إصبعك فوق أذنك اليسرى مع تحريك إالى الحلف قليلا.

نخلص مما سبق أن تلف منطقة ويرتك من شأنه التأثير سلبيا على الاستيعاب وضعف القدرة على فهم المفردات الجديدة إلى درجة كبيرة، أما تلف منطقة بروكا - على النقيض - يدمر إمكانية تكوين تركيبات نحوية صحيحة ويضعف القدرة على المنطق، أوضحت الأبحاث فى الحال نفسه أن منطقة بروكا تكون بمثابة المنطقة المحركة بالمخ والتي تتحكم فى الحركات العضلية، بينما تتجاس منطقة ويرتك مع المنطقة السمعية المسنولة من معالجة المدخلات التى تنبئها عن طريق الأذن، يفسر هذا التصنيف الطريقة التى تنتظم بها اللغة داخل المخ، فالمنطقة السمعية تستقبل المدخلات عن طريق الأذن ثم ترسلها إلى منطقة ويرتك المتولدة مسئولية الاستيعاب، فيما يخص عملية الكلام ترسل منطقة ويرتك الكلمات إلى منطقة بروكا - والتى تقوم بإنتاج التركيبات النحوية المرادة بما فيها كل الكلمات النحوية والواحق، ثم ترسل تسمياتها إلى المنطقة المحركة التى توجه عضلات الأعضاء الصوتية من أجل إخراج النتائج أو الكلام.

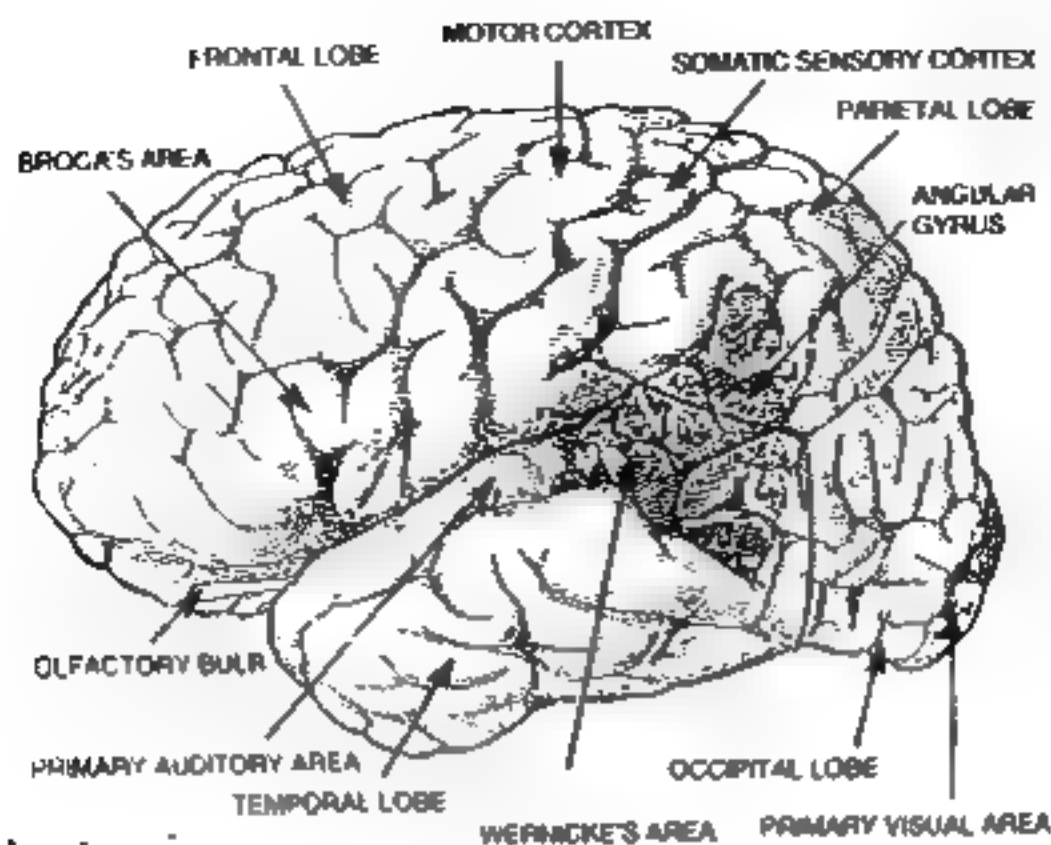
تتطلب تلك العملية التى يمكن تسميتها بالنموذج القياسى تواجد صلة بين مسطقتى ويرتك و بروكا، وبالفعل توقع بروكا منذ عهد بعيد بحتمية وجود هذه الصلة كما

أنه أشار إلى نوع آخر من الحبسة ينتج من حدوث تلف بتلك الصلة التي تربط بين المطلقين، اكتشفت تلك العلاقة مثلما تم التنبؤ بها، وبالفعل وجدت حزمة من الألياف تأخذ شكل الحرف "لا" وتسمى حزمة الألياف العصبية المقوسة وهي التي تصل بين مصقتي ويرتك وبروكا مباشرة، يؤدي تلف هذه الصلة إلى الحبسة الانصالية وفيها يعاني المريض من نفس أعراض حبسة ويرتك إلا أنه يفلح في الحفاظ على مستوى استيعابه ويريد على حبسة ويرتك عرض واحد وهو عدم قدرة المريض على تردد ما يفكر له، هذه النتيجة النهائية هي كل ما تنبأ به النموذج القياسي بما أن منطقة ويرتك تعجز عن الحديث إلى منطقة بروكا فإنتها تعجز أيضا عن نقل ما يصلها أو ما تسمعه إليها.

أما في حالة حبسة العزلة النادرة الحدوث تترك الإصابة الشاذة المذهق لخاصة باللغة في المخ سليمة إلا من اتصالها بباقي أجزاء المخ، لذا فإن المصاب لا يقدر على فهم الكلام الموجه إليه، كما لا يمكنه كذلك الحديث بطلاقة اللهم إلا عند التفوه ببعض العبارات التقليدية والمقاطع الطفولية، وهو برغم ذلك يتمكن من تكرار أي شيء يقال له بصورة ميكانيكية، كما يتسنى له عاء الأغنيات وتعلم الجديد منها

هذه حقيقة هامة بشأن ما للحبسة من تأثير على مستخدمي لغة الإشارة كتأثيرها على المتحدثين العاديين، نجد أن مستخدم الإشارة عند إصابته بحسة بروكا تجيء إشارات بطيئة ولا يعبأ مطلقا بالتصريفات النحوية (تذكر أن لغات الإشارة - كلفة الإشارة البريطانية - تتضمن الكثير من القواعد النحوية كأي من اللغات المتعددة الأخرى)، بينما يشير المصاب بحبسة ويرتك بصورة سريرية وطيقة ولا يفهم من إشارات إلا القليل، كما أنه يواجه صعوبة بالغة في فهم إشارات الآخرين. لا ينفي هذا الحقيقة القائلة بأن كل مستخدم لغة الإشارة المصابين بالحبسة والذين لا يعانون من الشس يستطيعون استخدام أيديهم بصورة طبيعية لأغراض أخرى غير الإشارة لكلام، من هذه الأغراض الإيماءات اللاغوية كالتميم والتلويح، وفي هذا دليل قاطع على أن مناطق اللغة الموجودة بالمخ هي المنحكم الرئيسي في إخراج اللغة، أي أن هذا الدور - إخراج اللغة - ليس حكرا على الجهاز الصوتي أو الأنف.

معرض الشكل (٦ ١) مخططا للنصف الأيسر من المخ بما يحويه من مناطق اللغة والمناطق الأخرى طبقا للنموذج القياسي.



شكل (١-٦)

النصف الأيسر للمخ

Occipital lobe	منطقة ورنك	Wernicke's area
Temporal lobe	المنطقة البصرية الرئيسية	Primary visual area
Broca's area	المنطقة السمعية الرئيسية	Primary auditory area
Motor cortex	منطقة بروكا	Broca's area
Parietal lobe	القشرة الجدارية	Somatic sensory cortex
Frontal lobe	القشرة الأمامية	Frontal lobe

ثبت نجاح النموذج القياسي في بيان الآثار المترتبة على تلف المخ، بالطبع لا تتطابق أعراض الحبسة عند اثنين من المصابين بتلف المخ، كما أن هذا التلف لا يحدث في منطقة معينة بالمخ عند جميع المصابين، ومن هنا تتعدد الأعراض التي يعاني منها المصابون بالحبسة، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، أضافت بعض الأبحاث الحديثة وحلاً إلى الماء عندما أثبتت أن منطقتي اللغة بالمخ لا يشغلان مكانهما - الذي افترضته

لأبحاث المسابقة - عند العديد من الناس، بل إنها بعيدان عنه بقليل، لكننا تمكنا من مشاهدة ما يجري بداخل مخ الشخص السليم بواسطة الأساليب الطمعية المتواعدة في وقت الحاضر ومنها بصفة خاصة الماسح الضوئي الذي يطلق عليه اختصارا (PET) أي المسح الضوئي بأشعة إكس عن طريق إطلاق جسيم موجب ذى كتلة تعادل كتلة الإلكترون، ومما أكدته هذه الأساليب هو أن مناطق اللغة المتعارف عليها متواجدة بالفعل وتنشط عندما يؤدى الفرد إحدى الوظائف القوية مثل الاستماع أو الكلام أو القراءة

من أكثر جوانب النموذج القياسي تعقيدا - وهو الشيء غير المتوقع - والتي تم اكتشافها منذ زمن بعيد هي أنه في الوقت الذي تشغل مناطق اللغة جرما من النصف الأيسر للمخ عند معظم الناس، توجد هذه المناطق بالنصف الأيمن عند ثلاثة بالمائة منهم، وقد يحدث أن توجد بكلا النصفين في حالات نادرة، مما يدعو للدهشة أن كل المنتمين إلى نسبة الثلاثة بالمائة يستخدمون يدهم اليسرى بدلا من اليمنى (كما أن بينهم من يستخدم كلتا يديه في الكتابة ببراعة)، ولكن بالرغم من ذلك توجد مناطق للغة بالنصف الأيسر من المخ عند نسبة ٨٥ / من الذين يستخدمون يدهم اليسرى، إنه من المستحيل معرفة الضابط لتلك العملية ولكن دعونا ننظر بإمعان أكثر إلى أمر اليمين و ليسار هذا

اليسار مقابل اليمين :

ينقسم المخ البشري - والذي يحتوى على معظم خصائصنا الإدراكية الراقية - إلى قسمين متماثلين يطلق عليهما النصفين، يتم الربط بين هذين النصفين بواسطة حزمة صلبة من الأنسجة تسمى الجسم الجاسى، منذ زمن بعيد اكتشفت مسئولية كل نصف من هذين القسمين عن أحد نصفي الجسم، ولكن لأن أسلافنا القدامى قدموا لنا دليلا أماح بذلك الاكتشاف أصبح النصف الأيسر من المخ هو القائم على رعاية الجزء الأيمن من الجسم والعكس صحيح، لذلك - ونحن بمتاح عن الحُسن - يمكن أن يحدث تلف النصف الأيسر من المخ على العين اليمنى أو صمم الأذن اليمنى أو شلل الجزء الأيمن للجسم

لا تعد اللغة الخاصية الوحيدة التي تشغل حيزا بالنصف الأيسر للمخ، فعن لظهر أن معظم القدرات التحليلية تتركز به أيضا ومن هذه القدرات القدرة على

القيام بالعمليات الحسابية وحل المسائل الجبرية وبرتتيب الأشياء ترتيباً زمنياً ومقّ
لحدثها، كما نجح علماء اللغة العصائيون - بالإضافة إلى ذلك - في تحديد عدد من
المناطق المميزة والتي تقع بالنصف الأيسر للمخ وتقوم بوظائف محددة، كمناطق اللغة.

مختلف نصف المخ الأيمن عما سبق ذكره، فهو يتخذ شكلاً غير منتظم بعكس
النصف الأيسر كما يقل بل ينعم عدد المناطق المتخصصة به، ولكن تتحلى وظيفته
الأساسية في عملية الإدراك وتداعي المعاني والأفكار، انسوّ لك مثلاً، انظر إلى الشكل
رقم (٦-٢) ماذا ترى ؟ بالتأكيد أنك ستري على الفور كلمة إنجليزية، ولكن لماذا ؟ معنى
الحقيقة لا توجد أية كلمات بالشكل، لا يوجد سوى مجموعة مختلطة من الخطوط
المستقيمة، بالرغم من ذلك فنصف المخ الأيمن لديه من القدرة ما يمكنه من التعرف على
الأشكال المألوفة التي تتضمن خطيماً من المعلومات وإيجاد تفسير لها، وهذا ما يفعله
النصف الأيمن للمخ دائماً وأبداً، إنه يتخير كم المعلومات الحسية التي ترد للمخ
وينظمها في أشكال مفهومة ومألوفة، مسألنا الآن هو : ماذا يحدث إذا تلف نصف المخ
الأيمن ؟



شكل (٦-٢)

اختبار لنصف المخ الأيمن

مثل حالة الدكتور P. أكثر حالات تلف نصف المخ الأيمن شهرة، إنه موسيقى بارع ومعهم للموسيقى يعاني من سكتة دماغية خفيفة بالنصف الأيسر من مخه، لم تظهر للسكتة الدماغية أية آثار عليه، فقد ظل كما كان ذكياً وشفافاً لدرجة كبيرة، قادراً على الكلام بطلاقة وأمانة، على إلقاء النكات الطريفة، تذكّر الحقائق، السحب، الغناء والاستمرار في ممارسة التدريس. لقد كان طبيعياً في كل شيء، قسماً عاداً شيئاً واحداً.

لقد فقد الدكتور P. القدرة على تذكر الأشياء الرتيبة التي ذكرناها لنوبا، لم يعد قادراً على تجميع المعلومات المرئية وتحويلها إلى أشكال متعارف عليها، نتيجة لذلك لم يعد قادراً على التعرف على الأشياء التي يراها، عندما وضع شيء ما في يده همّ بفحصه بحرص وباستخدام القدرات التحليلية السليمة التي يقوم بها النصف الأيسر من مخه قال "طولها حوالي ست بوصات" "تتخذ شكلاً معقداً ذا لون أحمر ملحقاً به شيء أخضر"، عندما كررنا عليه السؤال "ماذا تعتقد أن يكون ذلك الشيء؟"، أخذ يمين النظر في حيرة ثم قال "الأمر ليس بسيطاً". هذا الشكل يفحصه التماثل البسيط الذي يشبه أي مجسم أفلاطوني، وإن كان له تماثل من نوع أرقى، عندما أمر بشم ذلك الشيء، نظر في حيرة ثم استجاب للأمر وفجأة رجع إلى صوابه قائلاً "جميل! زهرة صغيرة!"

لم ينس الدكتور P. كلمة زهرة أو مفهوم الزهرة، بل فقد القدرة الرتيبة - قدرتنا على رؤية الأشياء المعتادة والتحدث عنها - لوضع كم من الصور المرئية للون الأحمر والأخضر معاً في كل مترابط لتكون النتيجة شيئاً معيناً ينتمي لفئة الزهور، لقد مكّنه النصف الأيسر السليم من مخه من تكوين وصف دقيق ومفصل من كل جزء من الشيء الذي يراه وكذلك التعبير عن ذلك الوصف بلغة إنجليزية سليمة، لكن عجز النصف الأيمن التالف عجز التعامل مع المعلومات المرئية، لهذا لم يقو على إمداد النصف الأيسر بفكرة مترابطة تتم على تسمية هذا الشيء، يكمن الخلل في المعالجة المرئية فقط، ففي الوقت الذي توافرت به المعلومات غير المرئية - الشم في حالتنا هذه - لدى النصف الأيمن من المخ وتطبيقه بكفاءة، ولم يجد الدكتور P. أدنى صعوبة في التعرف على الرائحة المعتادة للزهرة وتفسير ما تعنيه هذه الرائحة.

نتج عن عجز الدكتور P. أمر مؤسف للغاية وهو فقدان القدرة على التعرف على الوجوه، إنه لم يتمكن من معرفة أكثر الوجوه ألفة لديه فصب بل إنه أيضا لم يستطع لحزم يكون الشيء الذي ينظر إليه وجها أم لا، عندما اختبر في هذا الأمر معرض صور فوتوغرافية عليه لم يتمكن من التعرف على أغلب الأشخاص بالصورة بما فيهم أخيه ورواحته ونفسه، تسنى له من حين لآخر التعرف على شخص ما عن طريق انقاط واحدة أو اثنتين من الصفات المميزة له على سبيل المثال، كان عند رؤية لشعر والشارب الكليل يضمن أن الشخص الذي بالصورة هو آلبرت إيشتين، لكن عجزه بلغ المدى عندما كان يربط على رأس عداد وقود السيارات مدعيا أنهم أطفال، وكان يحاول الدخول في حوارات مع النقوش المنحوتة على الآثار معتقدا أنها وجوه

لا يعد عجز الدكتور P. عجزا لغويا بصفة أساسية رغم تبعاته التي لا يمكن عفاها والتي أثرت بدورها في استخدامه لغة بشكل طبيعي، قد تفصح قدرات النصف الأيسر للمخ عن اتصالاتها بالجانب اللفوي بعدة طرق مباشرة، تتمثل إحدى هذه الطرق في التعبير عن المشاعر، فنجد بعض المصابين بتلف النصف المخ الأيمن يفتقرون القدرة على التعبير عن عواطفهم - بالرغم من أنهم لا يزالون يشعرون - ونتيجة لذلك يلتي حديثهم - الذي يكون طبيعيا بخلاف هذا الجانب - فائرا بلا حياة وأليا بل في أغلب الأحيان ميكانيكيا، كما تبقى وجوههم مسطحة وإن تخرج شعورهم ما بين الزهو والامتعاض، عادة يتمكن المصابون بتلف النصف الأيسر للمخ العاد، والذين فقدوا القدرة على الكلام تماما - من العناء وفي بعض الأحيان يكون غناؤهم جيدا كما يستطيعون تعلم الأغنيات الجديدة - يبدو ظاهريا أن تعلم كلمات الأغنيات الجديدة والقدرة على النطق بها وظيفة من الوظائف الموكلة بها نصف المخ الأيمن، مما يشير الدهشة احتفاظ العديد من هؤلاء الناس بقدرتهم على القسم كضباط بحرية - يبدو أن نصف المخ الأيمن به بعض المفردات (في الواقع هناك من الأسماك ما يجعلك تعتقد بأن القسم - مثله في ذلك مثل الضحك والبكاء والصراخ - لا تحكمه القشرة المخية على الإطلاق ، بل يقع تحت تأثير جزء من المخ أعمق قليلا وأكثر قدما)

يدعو أمر مستخدم لغة الإشارة المصاب بتلف النصف الأيمن من المخ إلى الدهشة، فمن شأن هذه الإصابة إتلاف القدرة على التعرف على تعبيرات الوجه العادية، ولكن هذا لا يفقد المصاب القدرة على استخدام تلك التعبيرات والتي تعد جزءا

من القواعد النحوية لغة الإشارة - في ذلك برهان على أن استخدام اللغة للتعبيرات يحكمه حرة من المخ مختلف عن ذلك الجزء الذي نقول أمر التعبيرات غير اللغوية - كذلك يُحدث تلف النصف الأيمن للمخ عجزاً من نوع غريب يطلق عليه 'إهمال اليسار' فيه يفتش المصاب بالرغم من كونه مبصراً في رؤية أي شيء يقع جهة اليسار، كما أنه يفشل في رسم الجانب الأيسر في أية لوحة فنية يقوم بتصويرها، حتى إنه يفشل في ارتداء الملابس بالجزء الأيسر من جسده، لكن مستخدم لغة الإشارة الذي يعاني من نفس هذا النوع من العجز يستخدم الجانب الأيسر من مجال الرؤية بصورة طبيعية عند الإشارة، في هذا دليل آخر على استقلال الحصانص اللغوية بدرجة كبيرة عن غيرها من الخصائص، أولئك الوظائف غير اللغوية للمخ.

تمثل الطريقة التي تحفظ بها الكلمات داخل المخ واحدة من الأمور التي تبحث على الحيرة، في اعتقادنا أن منطقة وبرتوك تلمب دوراً حيوياً كسبيل لدخول المفردات، وهذا لا يعني أن الكلمات تحفظ داخل تلك المنطقة، إنما متأكدون تماماً من هذا الأمر، جاء عدد من حالات عجز اللغة أثناء السنوات القليلة الماضية بأفكار جديدة ولكنها لم تزدد، لا دهشة وحيرة، فقد عانى معظم المصابين بالحُصّة من عرض العجز عن إيجاد الكلمات المعبرة عن الأشياء، كما أن بعضاً منهم - وإن كان يمارس الحديث بصورة طبيعية - يكاد لا يجد أية كلمات على الإطلاق، هذا وتظهر عند مرضى بعينهم أنماط من الحُبسة لا يصاحبها أية أعراض، إليك النموذج التالي

ورد أن العديد من المصابين لم يقابلوا أية صعوبة في إيجاد مسميات للأشياء غير الحسية (الجمادات) مثل الكرسي والطريق، في الوقت الذي لا يمكنهم إيجاد مسميات تعبر عن الكائنات الحية مثل سيدة وكتب، هل يعني ذلك أننا نحفظ بالكلمات الدالة على لكائنات الحية في مكان مخصص بالمخ؟ في حالة أخرى نجد رجلاً فقد كل الكلمات الدالة على الفواكه والخضراوات فقط ليست عنده أية مشكلة من أي نوع بشأن كلمات أخرى، فمشكلته تكمن في أنه لا يستطيع تسمية أي نوع من الفاكهة أو الخضراوات سواء تم إمداده بوصف لذلك النوع أو صورة له أو حتى إعطائه إصبع موز أو ثمرة خيار، كما أنه لا يمكنه الجزم إذا ما كان الشيء الذي بيده والذي يمثل له مشكلة نوعاً من الخضراوات أم الفاكهة، يبدو الأمر غير معقول إذا اعتقدنا أننا نحفظ

بالكلمات الدالة على الخضروات والفاكهة بمكان ما داخل المخ، كما أن عددًا قليلًا من اللغويين سوف يقنع بهذه النتيجة، إنَّ كيف يمكننا تفسير ما يحدث لهذا المريض؟

ربما تكون حالة السيعتين اللتين ستحدث عنهما فيما بعد من أكثر الحالات إثارة الدهشة، إنهما يعانيان من سكتة دماغية بالنصف الأيسر للمخ، ولقد ثبت أنهما لا يواجهان أية صعوبات عند استخدام الأسماء، بل تكمن الصعوبة القصوى هي الأفعال حتى وإن كانت الكلمة التي تعبر عن كل من الاسم والفعل كلمة واحدة، إنهم لا يواجهان أية صعوبة في نطق وكتابة الجمل "There's milk in the glass" (يوجد لبن بالكوب) أو "That's a nice picture" (إنها صورة لطيفة)، في كلتا الجملتين كلمتي (لبن ، صورة) أسماء، أما في الجمل التي تكون فيها هاتين الكلمتين أفعالاً مثل "She can milk a cow" (إنها تستطيع حلب البقرة) أو "Try to picture the scene" (حاول رسم المشهد) فإنهما لا تحسنان التصرف حتى إن كانت الجملة تملئ عليهما ويطلب منهما كتابة كلمة واحدة بها، فإنهما في هذه الحالة يستطيعان كتابة الاسم وليس الفعل، يرجح هذا الأمر أن الأسماء والأفعال تحفظ بأماكن مختلفة بالمخ، يتقبل العديد من اللغويين هذه النتيجة أكثر من تقبلهم للنتيجة الخاصة بأسماء الفاكهة والخضروات، هذا ولم يتسن لنا بعد معرفة كيفية تخزين الكلمات، أي أن كل ما تم لنا معرفته زاد الأمر تعقيداً

يعد فقدان بعض المرضى للغات بأكملها أمراً من الأمور التي نقف أمامها مكتوفي الأيدي ولا نريدنا سوى حيرة، يفقد الكهول الذين تعلموا لغات عديدة في مراحل متقدمة من حياتهم - الذين أصيبوا بمرض يتلف العقل كالزهايمر - اللغة ثلث الأخرى ولكنهم في الأغلب يحتفظون بلفتهم الأم أطول فترة ممكنة، بينما يفقد صغار السن - الذين يتحدثون لغتين أو ثلاث والذين تعرضوا لتلف بالمخ - كل اللغات التي تصروف مرة واحدة ويستعيدونها كذلك مرة واحدة وبسرعة كبيرة، فعلى سبيل المثال فقد أحد الكنديين الفرنسيين - ثنائي اللغة - لفته الفرنسية وأبقى الإنجليزية فأصبح لا يستطيع التحدث مع زوجته الفرنسية أحادية اللغة، بعد مرور أسبوع استعاد اللغة الفرنسية وفقد الإنجليزية فأصبح لا يمكنه الحديث مع الأطباء والمرضات بالمستشفى الذي يتلقى بها علاجه، يستمر الأمر هكذا في بعض هذه الحالات لمدة شهور وما من أحد يمكنه تفسير ما يحدث.

في الواقع، اكتشف أن المصابين بالحُبسة يعانون من مجموعة أعراض يمكن التعرف عليها فمنهم من يستطيع التحدث وليس القراءة، ومنهم من يمكنه القراءة وليس لكتابته، ومنهم من يتمكن من الكتابة وليس القراءة (حتى قراءة شيء تم لهم كتابته منذ فترة وجيزة)، مكنت هذه الملاحظات المحيرة العديد من المتخصصين من الوصول إلى نتيجة مفادها أنه من الواجب أن تكون قدرتنا اللغوية مجزأة إلى حد ما ، أي لا تكون كلاً واحداً بل يجب أن تقسم إلى عدد من التقسيمات الجزئية المميزة، كل منها يشغل جزءاً مختلفاً من الألياف العصبية بالمخ، لا تعد هذه النتيجة أمراً معجذباً بالرغم من كونها باعثة لكثير من النقاش ، بما أننا أدرنا جزئية خصائصنا العقلية - كما يتراءى لنا من تجربة الدكتور P. - تعتبر الرؤية جزئية فالأجزاء المختلفة من المخ تتولى مسئولية الجوانب المختلفة للرؤية، إذن فلماذا نتوقع أن تكون اللغة مختلفة عن ذلك؟

كما أننا ندرك تمام الإدراك أن عملية معالجة اللغة جرئية، فعلى سبيل المثال يقوم المخ دائماً عند سماع شخص ما يتحدث بتحليل أصوات الكلام إلى ثلاثة مكونات كحد أدنى وهي : هوية الصوت، ونبرة الصوت (غاضباً أو فرحاً أو غير ذلك)، والمحتوى اللغوي، حتى وإن كنا نستمع إلى لغة أجنبية لم يسبق لنا معرفتها، يمكننا التعرف على أصواتها المفردة واستنتاج بررتها، ولكن يظل الجانب اللغوي غير واضح بالنسبة لنا، من الواضح أن المخ يكون فواصل بين هذه الأشياء الثلاث ويتعامل معها كل على حدة.

النفس المقسمة :

تظهر أمراض مرض الصرع الحاد على شكل صدمة كهربائية تصيب المخ : ففي إحدى نوبات هذا المرض تتدفق دفعات من المؤثرات العصبية على المخ باتجاه دائري مما يجبه غير قادر على القيام بوظائفه الطبيعية فلا يستطيع المصاب التحكم في نفسه، توصل الجراحون منذ سنوات قليلة مضت إلى طريقة يتم بها تقليل ثورة ذلك النشاط العصبي هذا وهي قطع الجسم الجاسي.

يمثل الجسم الجاسي - كما سنذكر - العنصر الوحيد الذي يصل ما بين نصفي المخ لأيمن والأيسر، لذا فإن قطعه سينتهي أي اتصال ما بين النصفين، لكن هذه الطريقة تؤدي في أغلب الحالات إلى إرضاء المرضى الذين يعانون من هذا المرض المزمع إلى حد كبير، لذلك قنع العديد من المرضى بإجراء العملية على أمل أن يحياوا الحياة الطبيعية والحالية من النوبات الصرعية الحادة والمزعجة، بالفعل تم لهم الخلاص من تلك النوبات ، لكن ماذا يكون شكل الحياة بمنح مقسم؟

تكون الحياة غريبة، وإن كانت هذه الغرابة لها معنى في إطار ما ذكرناه بشأن
وظيفية المخ ، انقسامه إلى نصفين كل منهما ذي وظيفة محددة

هنا جدلا أن شخصا سليما وطبيعيا ويمالك مخا مقسما أعطى مطرقة، سيتمكن
بالفعل من استخدامها بكلتا يديه وبصورة طبيعية، إذا أمسك المطرقة بيده اليمنى،
سيتمكن من فهم وتلبية التعليمات الموجهة إليه بفعل شيء ما بهذه المطرقة، لكنه لن
يفعل شيئا إذا أمسكها بيده اليسرى، إنه يستوعب التعليمات بدقة ويمكنه شرح
المطلوب منه فعلة ، ولكنه لا يستطيع فعله، فلماذا؟

يمكننا تفسير ما يحدث على النحو التالي : تشغل مناطق اللغة حيزا من النصف
اليسر للمخ الذي يتحكم باليد اليمنى، لذلك يستطيع هذا النصف تفسير التعليمات
المشار إليه بفعلها وتوجيه اليد اليمنى لفعل المطلوب، بينما يتحكم النصف الأيمن باليد
اليسرى، وفي حالة قطع الجسم الجاسي لا يجد النصف اليسر سبيلا للاتصال
بالنصف الأيمن الذي لا يملك خصائص لغوية خاصة به، من هنا يمكن للنصف اليسر
فهم التعليمات ولا يمكنه توصيلها لليد اليسرى، تؤكد هذه النتائج بما لا يدع مجالا
للشك أن اللغة تقع بالنصف اليسر من المخ وحده عند أغلب الناس.

أثبتت الدراسات التي أجريت على المصابين بانقسام المخ أن النصف الأيمن من
لا يخلو تماما من الإمكانيات اللغوية، فهناك تقنيات بسيطة تمكنه من توصيل كلمات أو
أشياء محسوسة ليمين واحدة أو أذن واحدة في المرة الواحدة، لا يجد المصاب بانقسام
المخ أدنى صعوبة في فهم أو شرح الكلمات التي تأتي إلى العين اليمنى أو الأذن
اليمنى (مسئولية النصف اليسر)، ولكن حتى إذا استقبلت العين أو الأذن اليسرى
المسة يستطيع النصف الأيمن التعرف على عدد ضئيل من هذه المنبهات، أي أن القدرة
اللغوية للنصف الأيمن محدودة للغاية ولكنها غير منعدمة.

قد يبدو سلوك بعض المصابين بانقسام المخ غير متوقع بالمرة في بعض الحالات،
معظمهم عندما يرى صورة إباحية تعرض على عينه اليسرى فقط ربما يحمر خجلا أو
يقهقه ولكنه لا يستطيع وصف ما رآه بل يصر على أنه لا يرى شيئا على الإطلاق، كما
شكت إحدى السيدات من معاناتها في اختيار ملابسها بالصباح لأن يديها تصر على
اختيار شيء لا ترغبه هي، كما أنها عندما تقوم بقراءة كتاب يجب عليها أن تحلس على
إحدى يديها التي تدير الصفحة كلما همت بالقراءة، أنهل هذا السلوك كلا من علماء

اللغة العصبانية والفلاسفة، إنه يوحى بأن كل نصف من المخ له ذاتيته وشعوره، وهما يندمجا بمصنحان شينا واحدا عن طريق الجسم الجاسي وعندما يفقد هذا الاندماج يذهب معه نصف المخ كل في طريق.

أشياء مضحكة، والسنة :

يعرف علم اللغة النفسي بأنه دراسة العلاقة ما بين اللغة والعقل، يعني علماء اللغة لفسيون بصفة أساسية بطريقة معالجة اللغة : فهم يهتمون كثيرا بالخطوات التي من خلالها تخرج اللغة وتفهم، لقد أعد هؤلاء المتخصصون عددا من التقنيات المتماثلة لاختبار ما يقوم به الأفراد عند إسناد مهام مختلفة لهم في إطار مناخ تجريبي، تبع لذلك تم استخلاص مجموعة من المعلومات القيمة من الحديث التلقائي لهؤلاء الأفراد بجانب الأفعال العملية، وواحد من أروع الأشياء التي تدور في فلك الحديث التلقائي هو حديث هفوات اللسان

يطلق أحيانا على هفوات اللسان - نو لنقل الأكثر شهرة منها - اسم " السبونرية" نسبة إلى السيد المجل " و.أسبوتر " بنيو كولاج. جامعة أكسفورد الذي أنتج العديد من تلك الهفوات

بالمثل تنتمي الكلمات المحولة إلى نفس الفئة النحوية بشكل أو بآخر، يقول الناس أشياء مثل " He threw the window out the clock " (ألقى المافذة من الساعة) وبها أسماء محولة، أو " Please wash the table and clear the dishes " (من فضلك اغسل المائدة ورتب الأطباق) وبها أفعال محولة ، لكنهم لا يقولون مطلقا أشياء مثل " He clocked the throw out the window " وبها الأسماء والأفعال محولة

يتحمل الاكتشاف الثالث في الكلمات التي يتم استبدالها بكلمات أخرى، في هذه الحالة تكرر الكلمة المستخدمة قريبة الصلة في معناها بالكلمة التي كان من المفروض استخدامها. لذلك نحد جملا مثل " Her marriage broke up an hour and a half ago " لقد انفسخ عقد زواجها منذ ساعة ونصف) (المقصود منذ سنة ونصف مضت)، " I really like to get up in the morning " (أحب حقا أن أستيقظ في الصباح) (المقصود أكره حقا الاستيقاظ في الصباح).

استكمالاً لتلك الاكتشافات، وجد أن هفوات اللسان يتكرر حدوثها مع الكلمات ذات المعنى التي يتغير ترتيبها وأيست الكلمات العديمة المعنى لهذا يحدث أن يقول بعض الناس "rare bug" (بق نادر) والمقصود بها "bear rug" (بثار الناب)، ولا يحدث أن يقال جمل مثل "tinner date" والمقصود منها "dinner table" (مائدة لعداء)، دائماً نجد الكلمات التي تم تغيير ترتيبها أو استبدالها بكلمات أخرى كلمات فعلية، يقول البعض "to go first and girl" (الأول والعناة) والمراد هو مصطلح من كرة القدم الأمريكية يعني "first and goal to go" (الهدف الأول وليس الأخير)

جاء عالم النفس "فرويد" باستنتاج في شأن هفوات اللسان لاقى قبولاً كبيراً، فقد رأى أن تلك الهفوات ما هي إلا إعلان عن الاضطرابات الخفية التي يكادها المتحدث ويفضة تلك الاضطرابات الجنسية، يؤيد هذا الاستنتاج مجموعة متواضعة من الأدلة القائمة على العناصر الحكائية، فعثلا في أحد المواقف صدر عن مجموعة من طلبة لجامعة كماً من الهفوات أثناء اختبارهم من قبل سيدة جميلة، ومن تلك الهفوات قولهم "fast passion" (عاطفة) بدلا من "past fashion" (موضة منقضية)، ولكن لا ترقى مثل هذه الهفوات إلى منزلة الأغلبية

مما يدعو للدهشة احتفاظ هفوات اللسان بالتركيب اللغوي، قالت أم لولدها "brush your bed" بدلا من "brush your teeth and make your bed" (نظف أسناتك ورتب مضجعتك). في ضوء ذلك استنتج بعض الباحثين أن المخ البشري يحتوى على ما يشبه المحرر الذي يفحص المقاطع الكلامية حتى تكون محتفظة بالتكامل اللغوي

تمثل ظاهرة انقلاب اللسان من المشاكل الماثقة الخاصة بالكلام، إننا نمر بهذه المشكلة من وقت لآخر، فنحن أثناء حديثنا نتوقف فجأة البحث عن كلمة ما أو اسم معين ولا نجد، يخبرنا الكاتب أنه في محاولة لتفكير لقب المحرر أخذ يفكر قائلا "أعرف أن الاسم قصير يتكون من أربعة أو خمسة حروف وربما يتكون من مقطع واحد، ولكن اللحظة واحدة استطعت فقط تذكر البداية، شيء يشبه الأسماء 'إيفانز' و 'جوز' ثم 'دل' و 'هيل' إلى أن قفر الاسم الصحيح إلى خاطري 'هال'.

إن السبب وراء حدوث ذلك غير معروف . إن قدرتنا الطبيعية على إيجاد مسميات للأشياء - والتي تعمل بصورة ميكانيكية سريعة - على إيجاد الكلمات تتعطل عند

لرعة هي إيجاد مختصر ما، إن هذا العنصر المفقود يمكن استعادته ببذل جهد غير عدي، تعد الطريقة التي يتدرج بها ذلك الجهد المبثول في عملية انقلاب اللسان من النقط الجديرة بالاهتمام.

يقول الكاتب أنه في حالته كان كل ما يتذكره هو قصر الاسم المفقود وتكوينه من مقطع وحيد، بالرغم من ذلك أثبتت الدراسات التي أجريت على الظاهرة أن المتحدث لاي يبحث عن الكلمة المفقودة يمكنه تذكر معظم المعلومات غير المتوقعة عنها ولا يمكنه تذكرها في اللحظة ذاتها، لابد أنك معتاد سماع جمل مثل "إنني متأكد أنه يحتوي على الصوت "m"، كذلك يمكننا تذكر طول الكلمة - مثلما حدث لكاتبنا - أو حتى عدد المقاطع التي تشتمل عليها بدقة، مثلما يمكننا تذكر أصوات أو حروف معينة تشتملها هذه الكلمة، كما يمكننا أيضا تذكر مقاطع بأكملها، الشيء المدهش هو تواجد الدليل لقاطع على أن بداية الكلمة المفقودة ونهايتها يسهل تذكره عن وسطها وهي الظاهرة التي أطلق عليها بعض علماء اللغة النفسيين "تأثير حوض الاستحمام" لأنها تذكرهم بشخص يرقد في الحمام ورأسه وقدمه خارج المياه (يرى وجوب أن يأخذ هؤلاء النساء حماما منتما)، إن الشخص الذي يبحث عن كلمة "silicosis" (السليكي) (٨٦) ويأتي بكلمة "psittacosis" (داء البغاء) (٨٧) - يوضح هذا الاتجاه جيدا

يسبب التشابه بين الكلمات حدوث التخمين العاطفي، فعند البحث عن الصفة "articulate" (بين القول) قد ترد إلى أذهاننا صفات مثل "ثرثار" و"كثير المزاج" و"لبق" و"كثير الكلام" وكلها صفات تشابه في معانيها، كذلك عندما يبحث شخص ما عن "لمجرد رقم ٥" (عنوان كتاب) لا يتذكر سوى "ترجمة ٤٥١ فهرنهايت" (عنوان كتاب آخر ينتهي برقم)، في إطار بحث ألفوي "بول شاشتر" عن الاسم "Olivia Newton-John" ورد إلى ذهنه الأسماء "Harriet Beecher Stowe" و "Enda May Oliver" (أسماء لسيدات تتكون من ثلاث كلمات) وكذلك الأسماء "Debbie Harry" و "Helen George" (أسماء لسيدات تصلح أن تكون أسماء لرجال أيضا) دفع هذا الاستنتاج الأخير شاشتر إلى تذكر الاسم الصحيح.

(٨٦) داء رئوي مقيم بقصر النفس ناشئ عن مشق متكرر لتقارب السليكا

(٨٧) مرض من أمراض الطيور يسبب بالإسهال والهرال

تخبرنا مثل هذه المعلومات بوضوح الطريقة التي تحفظ بها المفردات داخل المخ وكيفية استعادتها وقت الحاجة إليها، يبدو بصورة واضحة أن المخ لا يحرر الكلمات مثلما تحزن الضر في زجاجات، بل يبدو أن الكلمات تخزن ويربطها بالكلمات الأخرى عدد لا يحصى له من الروابط . روابط تربط ما بين الكلمات المتشابهة في الصوت والهاء، الكلمات المرتبطة ببعضها بعضا من ناحية المعنى، الكلمات المنتمية لنفس الفئة لحرية، أو تلك التي تربطها أية صلة يمكن التمسك بها طبقا لحبرات ومعارف الحيانية، تقترح خيرة "شاشتر أن الروابط غير المتوقعة مثل "Women whose name are men's given names" (ألقاب النساء التي تصلح أن تكون أسماء الرجال) تتواجد بالفعل داخل المخ، إننا في الوقت الحالي لا نملك الفكرة الواضحة لتي تبين لنا ما يفعله بمثل هذه الملاحظات، ولكنها على جانب من الأهمية.

ما لون اسمي ؟

تذكر الصحفية " أليسون موتوك " أن معلمة اللغة الإنجليزية بالمرحلة الثانوية طلبت منها تفسير اسم إحدى الشخصيات التي تصممها القصة القصيرة التي كتبتها، ولكن " أليسون " مرت قائلة "إنها تريد اسما قويا ذا لون أحمر" - ماذا تعنيه باسم ذا لون أحمر ؟ إنها تعني نفس المعنى الذي نفيه عندما نتحدث عن إشارة المرور الأحمر ، فالأسماء عند "موتوك" ملونة كالأشياء المسية، وليس الأسماء فقط بل كل الكلمات والأرقام وحروف الهجاء.

يطلق على هذه الظاهرة اسم الأصوات الرامزة، وهي تؤثر على شخص واحد من بين خمسة وعشرين ألفا، يستقبل هذا الشخص بصورة ثابتة وإبلا من التسميات الحسية لا يلحظها غيره من الذين لا يملكون ظاهرة الأصوات الرامزة . من ضمن أقوالهم أن لون الطلاء الأبيض رائحته زرقاء، العشب رائحته قرمرية، صوت الطيرة الهيكويتر المحلقة أخضر، مذاق الليمون شائك وكذلك مذاق الشيكولاتة ، الصوت الصائت "o" في كلمة "too" (هديل الحمام) يبدو وكأن لونه أصفر بالرغم من تنوع استجابات هؤلاء الأشخاص فيما بينهم، فإن كلا منهم يظل ثابتاً في استجابته أي عندما يحضر أي منهم على فترات زمنية بعد عدة أسابيع يكشف ذلك عن حدوث نفس الاستجابات بشأن نفس الأصوات الرامزة.

لا تمثل البعثة عند الأشخاص الذين يمارسون ظاهرة الأصوات الرامزة مجرد شيء مسموع، إنهم يرونها وكتفها كرفال من الألوان. وقد تم في لندن مؤخرا فحص مع جمعة منهم وهم معصوبي العينين عن طريق المصح الضوئي باستخدام أشعة إكس وذلك وقت استماعهم للكلمات وأصوات، أثبت هذا الفحص أنه عدد سماعهم لشيء ما فإن مطلق الرؤية بالمخ تنشط ويخاصة المناطق المعروف عنها التحكم بالألوان بينما لا يحدث هذا النشاط عند الأشخاص الذين لا يمارسون هذه الظاهرة.

إن الأشخاص الذين تظهر عندهم ظاهرة الأصوات الرامزة يكتسبون منها أصغر وربما منذ ميلادهم، لذا فهم يصابون بالدهشة عندما يعرفون أن هناك أشخاصا لا يمارسون هذه الظاهرة، إننا لا نملك أدنى فكرة عن الطريقة التي تعمل بها الأصوات الرامزة، كل ما نعرفه هو أن المالكين لهذه القدرة من الناس لديهم روابط إضافية دخل المخ لا يملكها غيرهم، علاوة على ذلك، ضمن بعض الباحثين أن كل الأطفال يولدون بها لفترة ولكنها تختفي عند معظمهم باستثناء القلة القليلة، هذه الفكرة يؤيدها عدد قليل جدا من الأدلة

إنه من اليسير التيقن بالفكرة القائلة بأن الممارسين لظاهرة الأصوات الرامزة أداس محظوظون لدرجة كبيرة، فهم يعيشون في عالم بديع يكون فيه أغلبنا مصابين بالعمى، الشيء المذهل هو إثبات الدراسات الحديثة بأن هؤلاء الناس لا يمثلون نسبة عشوائية من سكان منطقة ما، تبلغ نسبة الدين يستخدمون يدهم اليسرى بدلا من اليمين أو الذين لديهم القدرة على استخدام كلتا يديهم أكثر من خمسين بالمئة، كلهم يمتلكون ذاكرة حادة وأحليهم ضعيف في الرياضيات وهم دائما ما يضلون الطريق، كما يسرد العديد منهم خبرات غريبة مثل الاعتقاد بأنهم قد ارتادوا مكانا ما من قبل بالرغم من أن زيارتهم لذلك المكان هي الزيارة الأولى، والأحلام التنبؤية والاستبصار، كم أن الغالبية العظمى منهم نساء. وهذا الاكتشاف الأخير أعاد الحياة إلى الفكرة القديمة التي مادي بها الكثير وأيدها القليل من الأدلة. والتي تذهب إلى اختلاف تركيب المخ عند كل من الرجال والنساء، يصعب علينا الآن استنباط أية نتائج محددة من دراسة ظاهرة الأصوات الرامزة، وقد خلصنا من الأدلة القاطعة الآخذة في الإزداد أن خصائص اللغة تستقل كلية عن الوظائف الأخرى للمخ، وفي الوقت ذاته بدا لنا موضوع أن تلك الخصائص تتصل ببقية أجزاء المخ بواسطة طرق معقدة وغريبة

الفصل السابع

الأطفال واللغة

تتوهر في أغلب صغار الثدييات (باستثناء الكنغر) درجة معينة من التطور لا تظهر في المراحل المتقدمة من عمر الأطفال، فصغير الدب يتمكن من الانتمساب والسير في غصون بقائق من ميلاده في حين أن الطفل لا يمكنه الالتفات أو الزحف قبل بلوغه عدة أشهر من العمر، عند ميلاد الطفل لم تكون جمجمته قد تكونت بالكامل، فالغمد النخاعي الذي يفصل بين الخلايا العصبية بالمخ لم يتطور بالدرجة الكافية، كما أن النظام البصري بالمخ لم يتم له بعد العمل بكفاءة؛ لذلك كان من ضمن التقديرات التي قيلت في هذا الشأن ألا يولد الطفل قبل بلوغه من العمر ثمانية عشر شهرا بدلا من تسعة أشهر.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نولد عند مرحلة نكون فيها ناقصي النمو؟ لا توجد إجابة مباشرة للسؤال ولكن كل ما في الأمر أنه بسبب رأس الطفل الضخمة والتي تكبر تبعا لحجم الكبير الحجم يكون من الصعب عليه حتى في الشهر التاسع من الحمل شق طريقه خلال قناة الولادة، لذلك من المتوقع أن تتحول عملية الولادة - إذا تأخرت شهرا أو أكثر بعد الشهر التاسع - إلى عملية مستحيلة، بالإضافة إلى ذلك تفوق عملية الولادة عند البشر مثيلتها عند بقية المخلوقات في الصعوبة ودرجة الألم والخطورة، كما أنه ليس ببعيد أن يصاب مخ الطفل بالنشوء أثناء تعرضه لصدمة الميلاد.

يظل الطفل لسنوات عدة بعد ميلاده عاجزا لدرجة كبيرة، ومتواكلا على والديه كلية من أجل أن يستمر في الحياة، إنه لا يفعل شيئا طوال هذه الفترة من حياته سوى تعلم اللغة.

بعد اكتساب اللغة من أكثر الأمور - روعة وجمالا - التي يمكننا إنجازها على مدار حياتنا بأكملها، فنحن نقطعها في عمر نكاد نكون لا نفعل به أي شيئا آخر، كما تعد اللغة الشيء الوحيد الذي يتمكن الأطفال من تعلمه ببراعة أكثر من البالغين، لأنه

من الممكن لأي طفل صحيح بدنيا تعلم اللغة المحيطة به بكفاءة، بينما يحزن عن أداء هذا العمل البطولي غيره من البالغين، كيف يقوى الأطفال على فعل ذلك الأمر؟ وكيف يمكنهم اكتساب لغتهم الأم؟

أسند العديد من الناس منذ سنين قليلة مضت اكتساب اللغة إلى عمليات التقليد والتدعيم، يحاول الطفل ببساطة تطبيقاً لهذه الرؤية - تقليد ما يقوله الكبار، ورداً ما أبلى بلاء حسناً في تقليده هذا يكافئ بالمدح والإطراء، أما إذا حدث العكس فإن صنيعة هذا يقابل بالاستهجان والتصويب، تبعاً لذلك ينتقل الطفل في تقليده للكبار من أفضل إلى أفضل إلى أن يصل إلى تلك الحالة التي يكون فيها قد تعلم اللغة

بعد إثبات خطأ أسلوب "التقليد والتدعيم" من أبرز إنجازات علم اللغويات في لسنوات الأخيرة وأكثرها ثباتاً، فهو أسلوب من شأنه عدم تمكين الأطفال من تعلم اللغة على الإطلاق، إننا نعرف الآن جيداً كيفية تعلم الأطفال للغة، وكيف أن الطريقة التي تعلمهم اللغة تعد أفضل بكثير مما يقوم به أسلوب التقليد الذي يتسم بالقصور.

سنبدأ بوصف لما يمكن ملاحظته عند متابعة طفل يكتسب لغته الأم، ومن تلك الملاحظات نصل إلى بعض النتائج الأولية، سنتبع ذلك بملاحظة اكتساب اللغة في ظروف غير عادية لمعرفة مدى صحة هذه النتائج، وسوف نسوق الأدلة من حالات أطفال يعانون عجزاً

ما لاحظناه :

يبدأ اكتساب اللغة في مرحلة مبكرة للغاية ترجع إلى ما قبل ميلاد الطفل، فقد أثبتت الاختبارات أن الأطفال حديثي الولادة المنتمين إلى أم فرنسية وبيئة متحدثي لغة الفرنسية أيضاً يفضلون الاستماع إلى تسجيلات ناطقة باللغة الفرنسية وليس بآلة لغة أخرى، لا بد وأن تنغم اللغة وإبقاها يجنبهم، كما أننا نفترض اعتيادهم على استماع هذين العنصرين وهم لا يزالان داخل الرحم (بانتقال الصوت عبر بطن الأم)، يبدو حقاً أن الأطفال - في تلك المرحلة المتقدمة من العمر - يبدعون في استقصال اللغة المحيطة بهم بل يعيرونها اهتماماً خاصاً

يمر كل طفل صحيح بعد ميلاده بمراحل محددة لاكتساب اللغة وذلك وفقاً لتدريب لا يتغير، ولكن قد يختلف هذا الترتيب بشكل أو بآخر عند بعض الأطفال.

يبدأ الطفل - في سن شهرين تقريباً - بإصدار صوت كهديل الحمام ، أصوات تشبه الضوضاء المألوفة التي يصعب وصفها، تتحول تلك الأصوات إلى الببأه في سن ستة أشهر، وهي نوع من الألعاب الصوتية تتضمن سلسلة من المقاطع التي تفقد إلى المعنى والقرباط، يصدر الأطفال غالباً في مرحلة الببأه أصواتاً لا تتواجد في البيئة المحيطة بهم كما لو أنهم يديرون جهازهم الصوتي، ثم تبدأ الأصوات التي يصدرونها بعد ذلك في التشابه مع لغتهم شيئاً فشيئاً، تبدأ الببأه بصيغة خاصة - في عرص تنغيمات مطابقة للغة المحيطة بالطفل، وقد أثبتت التجارب أنه في مثل هذه المرحلة من العمر تستطيع الأم الفرنسية التعرف على الأطفال الفرنسيين (بخلاف طفلها) بمجرد الاستماع إليهم، كما ينطبق الأمر ذاته على الأمهات المتحدثات للإنجليزية والروسية والعربية، يفشل عدد قليل جداً من الأطفال في إحداث الببأه ولا يُعرف سبب ذلك

يبدأ الطفل أحياناً في سن من عشرة إلى اثني عشر شهراً في إنتاج كلمات مفهومة، وقد جرى العرف أن يعتبر الطفل قد بدأ في الكلام عندما يصل هذه المرحلة، (من لطيف أن الإناث يبدعن هذه المرحلة قبل الذكور) تستمر مرحلة الكلمة الواحدة هذه لبعض الوقت حيث يضيف الطفل كلمات جديدة لفرداته ببطء، لا تتزايد المفردات في تلك المرحلة بسرعة ولكنها تشمل العديد من الأنواع المختلفة للكلمات مثل (أب، كلب، ملعقة، حمام، ساخن، ياكل، فوق، وداعاً، وحتى كلمة ذلك)، لا تتضمن هذه المرحلة أية كلمات نحوية كفعل يكون، ربما، من، إلى، اله كما أن الطفل لا يستخدم أية نهايات نحوية كعلامات الجمع والأزمنة الماضية.

يحدث أحياناً في سن ما بين ثمانية عشر شهراً وأربع وعشرين شهراً شيء هام، حيث يبدأ الطفل في نطق مقاطع تتكون من كلمتين مثل "جورب أبي"، "أريد عصيراً"، "أعطني ملعقة"، تسمى هذه المرحلة بمرحلة الكلمتين، التسمية هنا مثالية فالطفل لا يمكنه نطق أية مقاطع تشتمل على ثلاث كلمات مثل "أمي أحضري الكرة"، كل ما يمكن قوله "أمي أحضري" أو "أحضري الكرة"، جدير بالذكر أن الطفل في هذه المرحلة يكرر لا يتفوه بكلمات مثل "الكرة أحضر"، والتي لا تتبع الترتيب السليم للكلمات، ومن هنا يكون لطفل قد اكتسب بعض القواعد النحوية، تذكر ما قلناه في الفصل الثاني بشأن دور المهم الذي يلعبه ترتيب الكلمات في علم النحو وبخاصة فيما يخص اللغة الإنحليزية، بالإضافة إلى ذلك لا تزال الكلمات والنهايات النحوية غير متواحدة

تبدأ مفردات الطفل - في نفس هذه المرحلة العمرية - في التزايد بسرعة أكبر مما كانت عليه، بحيث لا يستطيع الأبوان تسجيل الكلمات التي يعرفها طفلهما. يعتقد أن الطفل العادي يمكنه معرفة حوالي ١٠٠٠ كلمة قبل بلوغه سن الخامسة، وهذا يعني أن معدل تعلمه للكلمات يبلغ عشر كلمات في اليوم.

تستمر مرحلة الكلمتين شهراً بعد ثم يبدأ الشقاء في الانعراج - وفق تعبير النعوى "ستيقن بنكر"، ترداد المقاطع في الطول لتصل إلى أربع، خمس، ست، سبع، عشر كلمات وربما أكثر، تظهر الكلمات والنهائيات النحوية وفي غضون شهر يستخدم الطفل أغلب الأشكال النحوية للكلمات والتي يستخدمها البالغون، كما تظهر كل أنواع التركيبات الجديدة مثل النفي والعبارات النابعة والأسئلة، ويستخدمها الطفل بسرعة ودقة وثقة أكبر.

إليك نموذج لمقاطع طفل شهير عُرف في الأدب الإنجليزي باسم "آدم"، وقد قام بدراسته اللغوي "روجر براون"، كان "آدم" في سن سبع وعشرين شهراً لا زال ينطق مقطع من كلمتين مثل "big drum" (طبل كبير)، كان يقول قبل بلوغه الشهر التاسع والعشرين "what that paper clip doing" (ماذا يعمل دبوس الورق هذا؟)، قبل الشهر الثاني والثلاثين "let me get down with the boots on" (دعني أنزل بالحداء الطويل)، قبل الشهر السادس والثلاثين "you dress me like a baby elephant" (إنك تجعلني أرتدي الملابس مثل صغير الفيل)، قبل الشهر الثامن والثلاثين "can I put my head in the mailbox so the mail man can know where I are and put me in the mailbox" (هل أستطيع وضع رأسي في صندوق البريد فيعرف ساعي البريد أين أنا ويضعني في صندوق البريد؟).

كان "آدم" بطيء التعلم، فقد تبعته في الدراسة طفلة أخرى تسمى "إيف" وكانت تنطق بحمل مثل "Fraser, the doll's not in your briefcase" (يا هراسر، الدمية ليست في حقائبك) و "I got peanut butter on the paddle" (وضعت فول سوداني وريد على المحرك) وهي لم تبلغ سنتين من العمر، كان "آدم" في نفس عمرها لا يزال في نهاية مرحلة الكلمتين، إنني أرى أن كلا من "آدم" و"إيف" قد مرا بالمراحل نفسها ولكن "إيف" احتازها بسرعة أكبر.

يكتسب الأطفال أغلب القواعد النحوية للغة التي يتعلمونها فيما بين الثانية والثالثة أما قبل بلوغهم الخامسة فإنهم يكونون قد تعلموا كل شيء فيما عدا قليل من التركيبات المفصلة التي يتم لهم تعلمها في مرحلة متأخرة، كما أنهم يستمرون في ارتكاب لاطاء الغريبة مثل "two mens" (رجلان، الصواب two men) و "I brokeed it" (كسرتها، الصواب I broke it)، وهي أخطاء يلحظها البالغون بسهولة، بالرغم من هذا أوضحت الدراسات نبرة حدوث مثل هذه الأخطاء، فطفل الخامسة يتسنى له تعلم جل الأشياء التعلم الصحيح، انظر إلى ما يلي يعرف طفل الخامسة - بالرغم من الهدوات الغريبة التي يرتكبها - عن نحو اللغة الإنجليزية أكثر مما تجده في كتاب للبحر، تذكر ما أثرنا إليه في الفصل الثاني بشأن الكم الهائل من القواعد النحوية التي تعرفها ولكن من المرجح لا تعي ذلك إنك اكتسبت هذه المعرفة قبل سن الخامسة وفي أغلب الأحيان قبل الثالثة.

إن طفل الثالثة لا يمكنه إجراء عملية الجمع لرقمين أو الحديث تليفونيا أو ربط هذات أو عبور الشارع بمفرده، ولكنه يتمكن من معرفة نحو اللغة الإنجليزية ومفرداتها - براءة - أو الفرنسية أو الباسكية أو الغافامو أو أية لغة يتعلمها وهذا بكل المقاييس بجازعيرعادي (كما أن الأطفال الذين يشنون في بيئة ثنائية اللغة يتقنون كذلك كلتا اللغتين).

يتوالى اكتساب اللغة بعد مرحلة الكلمات بسرعة هائلة بحيث يكون من المستحيل تسجيل كل شيء يقوم الطفل بنطقه، بالرغم من ذلك فإننا إذا ما ركزنا على جانب واحد اللغة وتابعناه عند الطفل سنحصل بشأنه على العديد من المعلومات ذات القيمة

نظرة أكثر قرباً :

لأن لنا وقفة مع صياغة الجمع في اللغة الإنجليزية، افترض أننا أخبرناك أن كلا من الكلمات "ziff, zo, zax" مبهمة مثل على أشياء يمكن عدها، ماذا تفترض أن يكون الجمع من تلك الكلمات ؟ إننا متأكدون من أنك لن تواجه أية مشكلة في الإجابة على هذا السؤال - حموع هذه الكلمات على التوالي هي "ziffs, zos, zaxes" ، إذا أرهفت لسمع ستلاحظ أن نهايات الكلمات يتم نطقها بطرق مختلفة في الحالات الثلاث الكلمة الأولى تنتهي بصوت z، الثانية بصوت z، الثالثة بصوت zمتبوعاً بصوت

صاغت إضافي، إننا متأكدون تماماً من اختيارك للشكل الصحيح من الجمع في كل حالة من تلك الحالات، فمعرفتك بنحو اللغة الإنجليزية تتضمن معرفتك بالطريقة التي يصيغ بها جمع كلمات تلك اللغة

يمكن اختيار قدرة الأطفال الصغار على صياغة الجمع عن طريق ما يسمى باختبار "wug"، وفيه يعرض على الطفل شيء صغير ويتم إخباره بشئ هذا الشيء يسمى "wug"، ثم يقدم له شيء آخر مشابه للشيء الأول ويخبره الباحث أن هذا الشيء "wug" آخر، عند تواجده عنصرين من هذا الشيء يكون الطفل الذي يطلق عليهما - "wugs" - نهاية تتطابق كصوت - Z - قد تعلم كيفية صياغة الجمع، يستطيع طهر الربعة تعلم هذه القدرة، ويفرغ جميع الأطفال من تعلمها قبل بلوغهم السادسة

كيف تمكن الطفل من صياغة الجمع بصورته الصحيحة وهو لم يسبق له التعرف على الكلمة المخلقة "wug" كما لم يتعرف على جمعها؟ بالطبع لم يتسن للطفل فعل ذلك عن طريق التقليد أو الحفظ - الشيء الوحيد الذي يمكنه من ذلك هو القاعدة المتكونة عنده بشأن صياغة الجمع، وهي قاعدة يمكنه تطبيقها على الأسماء الجديدة دون أدنى جهد، إنها نفس القاعدة التي استخدمتها مع الكلمات البهيم التي عرضتها من قبل، تتشابه هذه القاعدة النحوية الإنجليزية مع قواعد أخرى سبق لنا مناقشتها بالفصل الثاني من الكتاب، وإن كانت أبسر منها قليلاً.

إذن كيف تمكن الطفل من تعلم هذه القاعدة ؟ بالتأكيد لم يدرب الأبوان طفلها على صياغة الجمع كأن يقولون له (انظر يا "جينفر" هذا كلب، هذان كلبان، هذا عود ثقاب، هذان اثنتان)، حتى إن حدث هذا، هل هو كاف أن يساعد في تعليمهم كل ما يتعلق بصياغة الجمع؟ إن الآباء ليسوا على دراية كاملة بالأشكال الثلاثة لنهايات الجمع وبالتالي لن يتمكنوا من إظهارها لأطفالهم، بالرغم من ذلك، نجح "جينفر" قبل بلوغه الرابعة أو الخامسة في تعلم القاعدة، تذكر ما قلناه في شأن الجمع وسنعود مرة أخرى لسؤالنا هذا فيما يلي

فكر الآن في الطريقة التي يتعلم بها الأطفال النفي، إنها طريقة واحدة يتبعها جميع الأطفال، أولاً يضعون كلمة نافية، عادة "no" (لا)، في بداية أية جملة مثل "No I want juice" (لا أريد عصيراً)، بعد ذلك يحركون هذه الكلمة النافية ليكون موضعها قبل الفعل "I no want juice"، في النهاية تظهر الأنوات النافسة الأكثر تعقيداً، "I

"don't want juice"، هنا تكمن المشكلة - يظل الأيوان إذا رغبوا في ذلك يصويرون ما بقوله أطفالهم إلى ما لا نهاية، لكن الطفل يستمر في استخدام نمط النفي للمرحلة العمرية التي يمر بها حتى ينتقل إلى المرحلة التي تليها، حتى وإن أغفل الآباء عن التصحيح لأطفالهم (أغلبهم يغطون ذلك) فإنهم ينتقلون بين المراحل نفسها حتى يصلوا إلى مرحلة النافعين

ما الذي يفعله الطفل ؟ إنه يكون القواعد لصياغة النفي ويظل يجربها ويستقل فيما بينها حتى يجد القاعدة التي تشبه تلك التي يستخدمها البالغون، لاحظ أن الطفل لا يحاول الرجوع إلى أية مرحلة تشتمل على قواعد قديمة، فكل طفل يجرب القواعد ذاتها بترتيب تصاعدي واحد، علاوة على ذلك، يفعل الأطفال الذين يتعلمون لغة ثانية نفس الشيء - لكن الطفل الذي يتعلم لغة كالإسبانية يتوقف عند المرحلة الثانية لأن نمط النفي الذي تستخدم به الكلمة النافية قبل الفعل، كما يتضح من الجملة "I no want juice"، هو النمط الذي يصاغ به النفي في اللغة الإسبانية

بصورة أخرى نستطيع القول أن الأطفال يعرفون أية قواعد من الواجب عليهم استخدامها ! هذا الأمر مدهش للغاية، فهو يعظم ما سبق ذكره بشأن التقليد والتدعيم، إذا كان الطفل مجرد مقلد لما يقوله البالغون، سيكون كلامه سلاسل مبعثرة من الأنماط الشبيهة بأنماط البالغين، وهذا ما لم نلاحظه في كلام الأطفال، ينطبق الأمر ذاته على صياغة النفي، وكذلك كل جانب من جوانب اكتساب اللغة، فمثلا تتطور طرق تكوين السؤال على النحو التالي :

أولا "why you eating?" (لماذا تاكل ؟) (لاحظ أن السؤال لا يشتمل على فعل مساعد).

ثانيا : "Why you are eating" (الفعل المساعد ليس بموقعه السليم)، "Why are you eating" (تحرك الفعل المساعد إلى موقعه الصحيح بعد كلمة الاستفهام)

حان الوقت الآن لتأمل الملاحظات الآتية:

لماذا يحدث ذلك ؟ :

يتوافق تحت أيدينا الآن قدر هائل من المعلومات التي تم التوصل إليها عن طريق الملاحظة، والتي أثبتت أن الأطفال يكتسبون اللغة وفق نظام محدد ذي ترتيب خاص

حدا، إياهم لا يصدر عن كلاما عشوائيا يفارب في شكله كلام البالغين، كما أنهم لا يعمسون أخطاء عشوائية، لذلك فإن معظمهم للكلام لا يتم عن طريق التقليد، كذلك رأيت أن أية محاولة يقوم بها الآباء لتصويب كلام أطفالهم تنتهي بالفشل فالطفل يسير في اكتسابه للغة وفق مراحل مرتبة، لذلك فإن التدعيم - سواء كان ذا تأثير إيجابي أو سلبي - ليس عاملاً مساعداً في تعلم اللغة، إذن كل ما يفعله الطفل لتعلم اللغة هو تكوين قواعد متفاوتة التعقيد، قواعد يتبعها جميع الأطفال بنفس ترتيب اكتسابها، أي أن اكتساب اللغة عملية نشطة : فالطفل لا يمتص اللغة التي تصادفه بطريقة سلبية، بل به يكون اللغة وينظمها، يعد هذا الاكتشاف واحداً من الاكتشافات الرئيسية لعلم اللغويات الحديث، الذي بدوره يطيح بأية فكرة واهية تعترف بفضل التقليد أو التدعيم

في الحقيقة، يحكم بالفشل على أية فكرة تذهب إلى أن عملية اكتساب اللغة عملية سلبية للغاية، تأمل مشكلة "gavagai" الشهيرة، افترض أنك تعاني في تعلمك لإحدى اللغات الأجنبية، وفي أحد الأيام شاهدت أرنباً يقفز فنظر إليه معطك وقل "gavagai"، ماذا تعني كلمة "gavagai" ؟ هل تعني أرنباً؟ أرنباً ذا حجم ولون خاص؟ هل هي اسم لذلك الأرنب بعينه؟ أم أنها تعني "انظر إليه وهو يذهب"، أم إنه يأكل كثيراً؟ أم لقد أضرب بحقل الخس الخاص بي؟ أو عدد يبلغ التريلليون من الإجابات التي يمكن تصورها؟ ما إجابتك؟

يواجه الطفل الذي يتعلم اللغة لأول مرة مثل هذه المشكلة كيف يمكنه معرفة معنى شيء ما؟ عند سماعه لمقطع من الكلام بقوله أحد البالغين، كيف يمكنه معرفة إذا ما كان هذا المقطع الذي سمعه يقصد به اسم لوحد مفردة أو اسم لعدد من الوحدات أو تعليق على صفات لبعض الوحدات أو وصف لبعض الأشياء، أو أي شيء آخر؟ كيف يتسنى له تحمين معنى جملة مثل "أمك مرهقة" أو "أبوك بالعارج" وهو لم ير بعينه في اللحظة ذاتها كلا من الإرهاق أو والده؟

الأسوأ من ذلك عندما يتعلم الطفل معان لبعض المقاطع ويتسنى دور تكوين التعميم، أي إذا سمع شخصاً بالغا يقول "الكلب جائع"، قميصي أزرق"، كيف يتسنى له قول جمل مثل "كثيراً جميلة" أو "الكوب غير نظيف"، بالطبع كل هذه الجمل متشابهة في تركيبها ولكن كيف يعرف الطفل هذا؟ ما دام الطفل ليس عنده أي سابق معرفة باللغة كيف يمكنه استنتاج أن هذه الكلمات شبيهة لكلمات أخرى وكل منها يستخدم في بناء الجمل؟

سالفعل يعرف الأطفال هذا الأمر، فالطفل عندما يسمع جملة كـ "أنا سعيدة" و "تبدو أنا سعيدة" ثم يسمع "الكلب جائع" يمكنه تكوين جمل صحيحة مثل "يبدو الكلب جائعاً"، ولكن عند سماعه للجملة "أنا سعيدة" لا يكون الجملة "تبدو أنا سعيدة"، فلم يسنو لنا سماع أى طفل يقول هذه الجملة الخاطئة، لماذا؟ لأن "جائع" صفة بينما "سعيدة" فعل، لكن كيف يوصل الطفل لهذه المعرفة؟ كيف تسنى له حتى معرفة أشياء، مثل الصفات والأفعال؟

تسمى تلك المشكلة الحيوية "بالمشكلة المنطقية لاكتساب اللغة" يبدو من المستحيل من حيث المبدأ - تعلم أى شيء عن لغة ما دون معرفة شيء عنها أولاً، لا يمكن للطفل حفظ أعداد لا حصر لها من المقاطع التي يمكن تصورها بجانب كل المعلومات التي تخبره بكيفية استخدام هذه المقاطع (تذكر المقاطع الجديدة التي ذكرناها بالفصل الثاني)، بالطبع هذا لا يحدث، يحدث بدلاً منه أن يكون الطفل القواعد بنفسه، كي يكون الطفل القواعد يجب عليه أولاً ملاحظة تشابه المقاطع مع بعضها البعض، لكن كيف يمكنه إدراك التشابه بين المقاطع وهو لا يعرف معنى التشابه؟

هناك إجابتان لهذا السؤال، حيث ذهب بعض الناس إلى أن الأطفال يكتسبون اللغة عن طريق استخدام قدراتهم الإدراكية المتعددة الأغراض وهي نفس القدرات التي تؤهلهم لاكتساب أنواع المعارف العيانية الأخرى، من ناحية أخرى، فضل الآخرون الإجابة التي اقترحها القفوي الأمريكي "شومسكي"، يرى "شومسكي" أن الأطفال يولدون وهم على دراية باللغة البشرية، أى أن جزءاً كبيراً من تركيب اللغة البشرية فطري، كما يذهب "شومسكي" إلى أن فصيلتنا قد طورت خاصية اللغة داخل المخ، كما أن اللغة تنمو عند الأطفال بقدر كبير مثلما تنمو قدراتهم البصرية الأخرى. لا زال تفسير "شومسكي" محلاً للجدال، ولكن يتوافق قدر كبير من الأدلة الأخذة في الاعتبار تدل على صحته، لذا دعونا الآن ننظر إلى بعض هذه الأدلة.

البحث عن اللغة :

إن ملاحظة الأطفال الذين يواجهون مشكلة تعلم اللغة في ظروف غير عادية إحدى الطرق لاختبار مدى صحة فرضية "شومسكي"، سنعرض فيما يلي طرفين من هذه الظروف.

أولا - الأطفال المصابون بالصمم، إنهم يصنعون أصوات الهدل ويأبسون مثلهم في ذلك مثل أي طفل طبيعي، ولكن بما أنهم لا يستقبلون أي مثير سمعي من قدرتهم على البنية تتوقف ويظلون صامتين، لكنهم إذا شاهدوا الناس من حولهم يستخدمون لغة الإشارة فإنهم يمارسون البنية ولكن باستخدام أيديهم هذه المرة، إذا كان أبائهم مصابين بالصمم أيضا ويأبسون في استخدام لغة الإشارة فإنهم بالتالي سيستخدمون في تعلمهم لغة الإشارة بصورة طبيعية وناجحة، كما أنهم سيبدأون مراحل تعلم اللغة كغيرهم من الأطفال الطبيعيين - مرحلة الكلمة الواحدة، مرحلة الكلمتين، مرحلة عياد العلامات النحوية ثم إتقان الكيان النحوي الكلي للغة الإشارة، وهكذا، إننا لاحظ أدنى فرق بين اكتساب اللغة المتحدثة واكتساب لغة الإشارة، تذكر أننا ذكرنا في الفصل السادس ما يفيد بأن تلف المخ يؤدي إلى نفس النتائج سواء كان الشخص يتحدث بشكل طبيعي أو يستخدم لغة الإشارة - وهذا يدفعنا إلى القول بأن خاصية اللغة مستقلة لدرجة كبيرة عن الخصائص العقلية الأخرى - هذا ما توقعه "شومسكي"

أما إذا كان والدا الطفل غير بارعين في استخدام لغة الإشارة كأن يستخدمونها بصورة غير منتظمة وغير دقيقة، فإن الطفل بالرغم من ذلك يتعلم اللغة بصورتها لصحيحة، يبدو أن الأطفال ماهرون في تعلم اللغة حتى إنهم يتمكنون من استخلاص القواعد التي يتطلبها ذلك التعلم من مصادر فقيرة، ومن هنا فإنهم يتمكنون من استخدام لغة الإشارة أفضل من والديهم^١ (مسمار آخر بقى في نفس نظريات تعلم اللغة عن طريق التقليد)، لاحظ شيئا آخر - إذا كان الأبوان غير قارين على استخدام لغة الإشارة على الإطلاق فإن الطفل يظل متحميا لأية فرصة يصدر فيها أبواه أية تلميحات، ثم لا يلبث أن يطور هذه التلميحات لغة للإشارة من إنتاجه هو بالفعل تمت دراسة العديد من هذه الحالات، فلا شك في حدوثها، جاءت نتائج ذلك البحث مؤكدة، لقد نجح أمثال هؤلاء الأطفال في اختراع قواعد نحوية صارمة متضمنة لأشياء مثل معرفات الأفعال، إنهم يتصرفون كالأطفال الذين تعلموا لغة الإشارة بالطريقة التقليدية إلا أن اختراعهم لإشارات خاصة بهم هي الفارق الأوضح بينهما، يكتب لنتل هذا التعلم الذاتي - لصوء الحظ - التوقف عند حد معين يكون بعده التقدم شيء مستحسلاً، وذلك يرجع إلى غياب التدعيم المناسب بلا أنتمى شك.

ماذا سسج من تلك الملاحظات؟ هناك تفسير واحد يمكننا الخروج به وهو - كما وصفه الغوى "راى جاكينوف" - أن الأطفال يبحثون عن اللغة، إنهم يبحثون عن اللغة استحدثه أولا وعندما لا يجدونها فإنهم يبحثون عن لغة الإشارة وعندما يفشلون فى ذلك يبحثون عن أى شىء حولهم يشبه اللغة ثم يبدلون قصارى جهدهم لنحويل ذلك الشىء إلى لغة كاملة، هذه النتيجة مذهلة، ولكن يمكن تدعيمها بثلة أخرى

حدث ثمرات عديدة على مدى التاريخ الإنسانى أن تقابل أناس من أماكن مختلفة ومتنوعة، يتحدثون لغات مختلفة ومتنوعة أيضا فى مكان واحد، تحقق ذلك - على سبيل المثال - للأفارقة الذين جاؤا إلى أمريكا الشمالية أو الكاريبى كعبيد، والناس من "بابو"، بجنوة الجديدة والذين اتحدوا كشعب واحد يتحدث مئات اللغات، وكذلك لكم الهنل من العمال الذين وفدوا إلى هاواى قادمين من العديد من البلدان ليعملوا فى زرع السكر، كان رد فعل هؤلاء الناس إزاء لغاتهم المختلفة واحدا - احترعوا لغة لاتصال الهجينية، إنها نظام أساسى غير منقن للتواصل مكون من شتات من لغات عدة مجمعة مع بعضها بعضا بطريقة عشوائية، لا تشتمل هذه اللغة على مفردات بعينها أو قواعد نحوية، يتحدثها أشخاص مختلفون بطرق مختلفة، إنها وسيلة للتواصل، فقيرة ومحدودة للغاية ولكنها تؤدى العرض منها ويتعلمها كل فرد بالمجتمع

بمرور الوقت يتزوج الأشخاص الذين يستخدمون هذه اللغة الهجينية وينجبون لأطفال، يتحدث هؤلاء الأطفال تلك اللغة مع بعضهم بعضا، بغض النظر عن اللغة التى يتحدثونها بالفضل، هنا يبرز سؤال مهم : ماذا يحدث؟

إذا تدبعت المناقشة السابقة يمكنك تخمين الإجابة - يمول الأطفال هذه اللغة لهجينية إلى لغة حقيقية ! إنهم سرعان ما يتفوقون على نظام صوى معين يتضمن ترتيب محدد للكلمات لا تشتمل طيه اللغة الهجينية، إنهم يمرضون كل أنواع التفاصيل النحوية الجديدة التى لا تتواجد باللغة الهجينية - أرمئة الأفعال، العبارات التسعة، وكل شىء تترقع تواجد به لغة، كما أنهم يعملون على زيادة مفردات اللغة حتى يتسنى لهم الحديث عن أى شىء ييخونه، تسمى هذه اللغة الصيدة باللغة المولدة، ويكرس الأطفال الذين قاموا باحتراعها الناطقين الأصليين الأوائل لها، قد تظل هذه اللغة فى بعض الحالات وتزدهر، ففى هايتى - على سبيل المثال - تعمل اللغة التى يتحدثها السكان تكلمهم لغة مولدة اخترعها أسلافهم الأفارقة منذ أجيال مضى، كما

أن اللغة المولدة حديثاً في "بابوا" بجنوة الجديد تستخدم على نطاق واسع هناك، قد تحتفي اللغة المولدة نهائياً في حالات أخرى، فقد انتشرت اللغة المولدة بهاواي نهائياً بفصل اللغة الإنجليزية

إن مضمون اللغة المولدة يعد متداً هاماً لموقف "جاكيندوف"، كما أنه يعطي ضرورة قاضية لتلك الأفكار العتيقة التي تذهب إلى أن تعلم اللغة أمر سلبى يتم عن طريق التقليد أو التدعيم، عندما يخترع الأطفال لغة مولدة فإنهم لا يكونون قد تعلموا لغة لم يعرفها أبائهم فحسب بل يكونون قد تعلموا لغة لم يكن لها وجود من ذي قبل، لنكف لأن عن ذكر المزيد من الأدلة المباشرة والمقنعة المدعمة لما أكدناه في موقع متقدم من هذا الفصل، وهو أن الأطفال يكونون لغتهم بطريقة نشطة إيجابية

هل هناك سن معينة يتوقف عنده اكتساب اللغة ؟

أشرنا فيما سبق أن الأطفال يتعلمون اللغة المحيطة بهم، في حين لا يستطيع أغلب البالغين فعل ذلك، قدم عالم اللغة العصابى "إيريك لينبيرج" تفسيراً لهذا الأمر في عام ١٩٦٠، فهو يذهب إلى أن الأطفال يمتلكون قدرة خاصة في تعلم اللغة والتي يحولها الجسم في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تقريباً، إذن تدل فرضية التوقف أن هذه فترة محددة من عمر الطفل لا يمكنه بعدها تعلم أية لغة، من السهر اختبار فرضية "لينبيرج" على النحو التالي : تقوم بتربية طفل في عزلة تامة عن أية لغة حتى يبلغ الرابعة عشر من العمر، ونرى إذا ما كان هذا الطفل سيتمكن من تعلم لغته الأم بعد ذلك أم لا، بالطبع ما من شخص يتمتع بالصحة العقلية يمكنه إجراء مثل هذه التجربة الفاسية، ولكن - لسوء الحظ - قام البعض بإجرائها، فيما يلي سنعرض ثلاث حالات لأطفال كانوا ضحايا تلك التجربة، لم تُعرف الأسماء الفعلية لهؤلاء الأطفال، لذا فقد اشتهروا على مر التاريخ بالأسماء التالية: "إيرابيل"، "جينى"، "شيلبس"

كانت "إيرابيل" فتاة فرنسية عزلها والداها لسنوات فلم تتمكن من سماع أية لغة عندما تم اكتشافها في سن السادسة، كانت لا تتقن أية لغة على الإطلاق كما كانت متحيرة في معظم مناحى الحياة، لكنها عندما عاشت في بيئة طبيعية بدأت في تعلم اللغة الفرنسية بسرعة كبيرة، وفي غضون العام تميزت كثيراً عن الأطفال في مثل عمرها، يرى "لينبيرج" أن "إيرابيل" كانت محظوظة حين تم إنقاذها قبل أن تصل سن التوقف

كانت "جيني" أقل حظاً من "إيزابيل" فقد سجنها والداها - المخبولان - أثناء طفولتها، بأن قيدوها ليل نهار ومنعوها من الحركة، ولم يتحدثوا إليها مطعماً كما لم يسمحوا لها بالكلام فكان أى صوت يصدر عنها يُقابل بعقابها، عندما بلغت الثالثة عشرة - فى إحدى فتراتها النادرة مع والديها خارج البيت - رآها أحد المسئولين وبعدها من قسوة أبيها.

بحسب "جيني" كثيراً عندما مارست الحياة فى بيئة طبيعية، تحولت من تلك المحروقة لسجينة الحزينة الصامنة إلى فتاة مرحة مليئة بالحيوية شجوة بعمامة الأخرى، شرعت بعد ذلك فى تعلم اللغة الإنجليزية، بدأت بالمقاطع المكونة من كلمة واحدة ثم سرعان ما انتقلت إلى مرحلة الكلمتين، وتمكنت بسرعة من اكتساب العديد من ملامح النحو الإنجليزي وكذلك المئات من الكلمات، توقفت "جيني" بعد ذلك، وحتى حين استمر تدريبها بكثافة لم تبرز أى تقدم يذكر، فعلاً لم يتقدم استخدامها للنفس بعد المرحلة التى سبق الحديث عنها والتى تستخدم بها الكلمة النافية "no" فى بداية الجملة، خلاصة القول أن قدرتها اللغوية توقفت عند سن الثانية وال نصف فى حين أن قدراتها الأخرى وصلت إلى مستوى طفل السابعة أو الثامنة

تدعم حالة "جيني" المنسوبة فرضية التوقف، لكن الأمر لا يرقى لهذه الدرجة من البساطة، عندما تم اكتشاف "جيني" كانت متخلفة لدرجة كبيرة وظلت كذلك بالرغم من تقدمها فى بعض الجوانب الحياتية إلى حد ما، يمكن القول أنها كانت متخلفة فعلاً عند ميلادها، لكن الأجدد هنا أن نقول أنها وُلدت طبيعية وجاء تخلفها نتيجة هتمية للسنوات الطوال التى عُمِلت فيها بوحشية، لا يمكن الحكم أن فشلها فى تعلم اللغة الإنجليزية كان نتيجة لعجزها الإدراكي العام فقط.

يطبق الأمر ذاته على "شيلسا" التى وُلدت فاقدة لحاسة السمع، وعندما فشلت فى تعلم الكلام جاء تشخيص حالتها خطأ بأنها متخلفة عقلياً، تُختلف "شيلسا" عن السفتين السابقتين فى أنها عاشت وسط أسرة متحابية مكنتها من الحياة بصورة طبيعية قدر الإمكان، عندما بلغت الواحدة والثلاثين من عمرها رآها طبيب ووصف لها علاج لمساعدتها على استعادة حاسة السمع، بدأت "شيلسا" فى تعلم اللغة الإنجليزية بعد أن تمكنت من السمع بشكل طبيعي لأول مرة، وبعد مرور سنوات من التدريب المكثف تسبى لها اكتساب ما يقرب من ألفى كلمة، ومعرفة أصول النحو الإنجليزي .

كما استطاعت أن تقرأ وتفهم ما يقال لها بالقدر الذي يجعلها تقوى على الحياة بصورة طبيعية وتلتحق بوظيفة لنصف الوقت، هذا ولم تتمكن من اكتساب ما يجعلها تتقن استخدام اللغة كإنسانة عادية، لقد توقفت قدرتها اللغوية أيضاً عند سن الثانية والنصف تقريباً

على ما يبدو أن الأدلة التي قدمها لنا المرضى المصابون بعقلاً والأطباء عبر البارعين تؤكد فرضية "لينيرج" وهي أن قدرتنا الخارقة على تعلم اللغة تظهر بحورتنا حتى السنوات الأولى القلائل من عمرنا ثم لا تلبث أن تنهد بفعل بعض الترتيبات الجينية، كما لو أن اللغة جزء من جينائنا التي هي هبة طبيعية.

هل تتواجد اللغة في جينائنا ؟

تقول فرضية "شومسكي" بشأن الفطرية، ضمنتاً، أن قدرتنا اللغوية تستقر في جينائنا يدعم ذلك أن العيوب الجينية تؤثر على عملية اكتساب اللغة، بالطبع لم يسم أحد الأفراد جيلاً معيناً خاصاً باللغة - فأمر الجينات ليس بسيطاً إلى هذه الدرجة، لكن بعض الدراسات الحديثة أثبتت تواجد صلة ما بين اللغة والجينات وتبعاً لذلك كانت الصلة بين اللغة وفرضية الفطرية

هناك أنواع متعددة من العيوب الجينية والتي ينتج عنها عدد من الاضطرابات الجسدية والعقلية، فقد اكتشف عدد سمين مضت أن عيباً معيناً يصيب عدد الكروموسومات العادية عشر يؤثر سلباً على أيض الكالسيوم^(٨٨) فيحقق ضرراً بأجسامنا، يعاني الأطفال المصابون بهذا الضرر من "أعراض ويليمز" فهم يتسمون بصغر الجسم والنحافة كما يعانون من اضطرابات بأعضائهم الداخلية ويشبه وجههم الجنية، إنهم متخلفون عقلياً لدرجة كبير، فلا يمكنهم جمع اثنين واثنين أو عقد رباط حذوهم أو إعداد المائدة وإن تقدم بهم السن. برغم ما سبق، يمكن لأطفال "ويليمز" تعلم اللغة - كيف؟ - إنهم يتعلمونها بصورة طبيعية بل يظهرون براعة في استخدامهم، فهم يتحدثون سريعاً وكأنهم يلهثون، فقد لاحظ الباحثون أنه من الصعب إيقاعهم عندما يبدعون في الكلام، إنهم يكتسبون عدداً هائلاً من المفردات، كما يمكنهم تكوين جمل

(٨٨) الأنس تغيرات كيميائية في الخلايا الحية التي تؤمن بها الطاقة الضرورية للعمليات والمضطربات لصورة الحياة لتعويض المتغير منها

طوبية ومعقده بلا أدنى جهد - كما أن قدرتهم على اكتساب القواعد النحوية بارعة بالفعل فيما عدا اتجاههم إلى جعل الأشكال الشاذة غائبة - يتقون بالشكل "take" على أنه الصيغة الماضية للفعل "take" (يأخذ)، (took هو الفعل الصحيح)، إنهم يسرون حكايات مذهشة ومفصلة، إلا أنهم في بعض الأحيان يواجهون بعض المشاكل مع الوقوع فقد يثرون بمرح عن أشياء أو أصدقاء ليس لهم وجود، عندما يتهجون يستخدمون كلمات لا تناسب المقام الذي يقال به، اطلب من أي طفل عادي تسمية بعض الحيوانات، ستجده يقول "cat" (قط)، "dog" (كلب)، "cow" (بقرة)، "horse" (فرس)، اطلب من طفل "ويليمز" نفس الشيء - ستسمعه يقول أشياء مثل "ibex" (الوعل)، "yak" (الياك، شور من حيوانات آسيا الوسطى)، "unicorn" (حيوان خرافي يشبه الحصان وله قرن طويل في وسط جبهته)، مجمل القول، إذا استمعت إلى طفل "ويليمز" لن تلاحظ أي خطأ في كلامه، يجب أن يقضى هؤلاء الأطفال حياتهم في مؤسسات للرعاية

تدل أعراض ويليمز على أن التلف المدمر الذي يصيب العمليات العقلية والإدراكية لا يؤثر على سلامة القدرة اللغوية، يعد هذا دليلاً على صحة فرضية الجزئية المذكورة بالفصل السادس، ولكنه لا يثبت الصلة بين اللغة والحيات، الآن دعونا نختبر نوعاً آخر من الإعاقة

أدرك الأطباء منذ زمن بعيد أن طائفة معينة من الأطفال الذين يظهرون طبيعيتين وأصدقاء وأذكىاء يواجهون صعوبة بالغة في تعلم لغتهم الأم، إنهم في الغالب يبدون في التعلم في مرحلة متقدمة ويتقدمون ببطء ويتكلمون بصورة بطيئة وشاقة ويجدون صعوبة في إكمال ما بدأوه من جمل حلوة على الأخطاء الكثيرة التي يرتكبونها، كما أن بعضاً منهم يتكلم بسرعة وطلاقة ولكنهم يصنعون عدداً كبيراً من الأخطاء النحوية، في النهاية قد ينجح بعض هؤلاء الأطفال في اكتساب القدرة اللغوية في حين قد يفشل بعض آخر، وفي كلتا الحالتين تبقى الإعاقة قائمة طوال حياتهم، تسمى هذه الإعاقة "بالتلف المحدد للغة"، وللاختصار تسمى "SLI"، مسمى عديم المعنى ولكنه يشتمل على عدد من الإعاقات المختلفة، لاحظ عدد من الأطباء انتشار "التلف المحدد للغة" داخل العائلة الواحدة - كما اكتشفت اللغوية الكندية "ميرنا جوينك" ودرست عائلة بأكملها في بريطانيا ظهرت بها تلك الإعاقة عند ١٦ من بين ٢٠ من أفرادها على مدى ثلاثة أجيال، تسبب اكتشافها هذا في قيام عاصفة من المناقشات الحادة

عائى من "SLI" من أفراد هذه العائلة الجده وأربعة من أولادها الخمسة وأحد عشر من أحفادها الذين يبلغون أربعة وعشرون، ولم يصب أى من أولاد أحد أبنائها الذى لم يكن مصابا، نلاحظ إصابة الذكور والإناث بصورة متساوية، كذلك لم يصب توأم لأحد الأحفاد المصابين، كالعادة كان كل الأفراد المصابين أسويا، سوى نكاه عادى وسمع طبعى

تظهر الأعراض ذاتها على كل الأفراد المصابين، فهم يتكلمون بصعوبة وبطء، كما أنهم يوقفون من حين لآخر لتصحيح أخطائهم ولكنهم فى الغالب يحاولون فى تصحيحهم هذا الأشكال السليمة إلى أخرى غير سليمة، يمثل كلامهم التلقئى بالأخطاء النحوية فى أشكال الكلمات وأيس تركيب الجمل، إبهم يتفاضون عن لهجات النحوية للأسماء بشكل منتظم وقد يستخدمون النهايات الخاطئة كأن يقولون جملا مثل "There's a trains coming" (هناك قطار قادم) استخدام أداة التنكير "a" (مع لاسم الجمع، "Yesterday I eat dinner late" (تناولت عشاءى فى وقت متأخر بالأمس) استخدام صيغة الفعل المضارعة مع الزمن الماضى، لا يعطى طفل فى سن المدرسة مثل هذه الأخطاء مطلقا - لكن المصابين فى سن ما بين الأربعين والسادسة والسبعين، والأطفال فيما بين الثامنة والتاسعة عشر يحطنون هذه الأخطاء وقت إجراء الدراسة عليهم، بالإضافة إلى ذلك، تلقى جميع المصابين - ما عدا الجدة - علاجا مكثفا لمعالجة مشكلاتهم ولكن لم يحدث أى تحسن ينكر

لاحظت "جوبنيك" عندما قامت باختبار الأفراد المصابين عدم قدرتهم على التمييز بين الأشكال النحوية الصحيحة وغير الصحيحة أو اختيار الصحيح منها، عن سئل أحدهم هل الجملة "The boy eat three cookie" (أكل الولد ثلاث كعكات) صحيحة أم خاطئة، لم يأت بآية إجابة، عندما طُوبى بإكمال الجملة "Every day he walks three miles. Yesterday he ..." (إنه يسير ثلاثة أميال كل يوم، بالأمس .) أضافوا الفعل "walk" (الصيغة المضارعة للفعل بدلا من الماضية)، كما كان مثلهم فى اختبار "wug" المذكور آنفا شئيا منفلا، فعندما طلب منهم جمع "wug" جاء بالكلمات "wugs" و "wugness" كما أنوا بجمع كلمة "zat" بالكلمات "zack" و "zacko"، لكلمة "zoopez" كجمع للكلمة "zoop"، "zatches" للكلمة "zash"، "tobyas" للكلمة "tob" الذى يحدث بالله عليكم ؟

جاءت "جوينيك" باستنتاجي، أولهما عدم امتيعاب هؤلاء الناس لحقيقة وجود
مرعد لصياغة الجموع والأرمئة الماضية، لذا كان لزاما عليهم تعلم كل صيغ الجموع
والأرمئة الماضية مثلما نتعلم نحن صياغة الأشكال الشاذة أمثال "men" (رجال) ،
"took" (أخذ) وعندما تصادفهم أحد الكلمات الجديدة فإنهم لا يعرفون طريقه جمعها،
ثانيهما تشابه توزيع الإعاقة على أفراد الأسرة مع ما نتوقعه من مشكلة أخرى بسببها
غيب في جين ما، لذلك فإن هؤلاء الناس قد توارثوا جينا معيبا .

يتوافق تحت أيدينا الآن دليل مباشر يقول أن قدرتنا اللغوية يتم التحكم فيها عن
هريق الجينات، وذلك لأننا لا نعرف من الآثار المترتبة على الجينات المعيبة سوى فقد ن
القدرة على تكوين قواعد نحوية بعينها، بالطبع لا يزال الجين المعيب الذي نتحدث عنه
غير واضح المعالم، فهو لا يزال قيد التخمين بالرغم من أنه يحظى باستحسان كبير،
تشبهت الصحف ذات الشعبية بما قالته "جوينيك" في شأن "الجين النحوي"، ولكن
لسوء لحظ أسماء العديد من رجال الصحافة الذين كتبوا عنه فهم معنى مصطلح
"لنحو" تماما، كما أنهم توصلوا لنتيجة منافية للعقل ألا وهي أن متحدثي الإنجليزية
غير النموذجية الذين يقولون "I am not none" (لا أملك شيئا) لديهم مشكلة جينية
(نظر الفصل الثامن للأمر ذاته)

لا زالت فرضية "شومسكي" محلل الجدل، ولكن هناك كما من الأدلة المؤثرة
الأخذة في الازدياد تقر بصحتها - توارثنا لقدرتنا اللغوية الفريدة أمر مذهل - والتي لا
يشتركنا فيها أي من المخلوقات الأخرى - من أسلافنا الذين قاموا بتطويرها، إننا
لأن هي يقين بأن قدرتنا اللغوية جزء من حياتنا، مثلها في ذلك مثل أشياء تصح
جرأ لا يتجرأ من أجسام الحيوانات، أجنحة الطيور التي تمكنها من الطيران، رقص
النحل، ارتداد الموجات فوق الصوتية التي تمكن الصفاش من إيجاد طريقه

الفصل الثامن

اتجاهات حول اللغة

فى أحد العروض المسرحية القصيرة المغمورة والتي أداها فريق "مونتى بايثون" الكوميدي، كان أحد المديعين يتحاور مع أستاذ لتاريخ العصور الوسطى بجامعة أكسفورد بشأن نظام الزراعة المفتوح، أخذوا يتناقشون أثناء حديثهم عن حقوق والتزامات الأحرار والعاملين، هاج الجمهور وماج لأن المذيع كان يتحدث كإنى فرد هادى بينما كان الأستاذ الجامعى يتحدث بلكنة ساكنى أحياء لندن الفقيرة - أى لكنة الطبقة العاملة بلندن، نظراً لأن أساتذة جامعة أكسفورد لا يتحدثون باستخدام هذا النوع من اللكنات فإن ما قاله الأستاذ الجامعى يبدو غريباً على الأذان البريطانية بالرغم من أنه منطقي ومفيد. لقد وجد المتحدثون البريطانيون أنه من المستحيل قبول أستاذ جامعى يتحدث بلكنة الطبقة العاملة التى تقطن المدن، ويستخدم فى كلامه اختصار "ويقول" "yeah" (نعم) بدلاً من "yes".

خلصنا من خبراتنا السابقة أن اللغة تحنوى على عدد من الجوانب الفريدة فى نوعها، سواء على المستوى العام - المملوكات بمختلف أنواعها - أو المستوى الإنسانى، كما أن اتجاهات البشر حول اللغة تكون غير متعادلة، لذا فإننا سندرس فى الفصل الحالى بعض النماذج المثيرة لاتجاهات البشر حول اللغة

هل من الممكن أن تكون اللغة لا أخلاقية ؟

كان للفيلسوف والعالم اليونانى القديم "أرسطو" صولات وجولات على جانب كبير من الأهمية فى مختلف فروع المعرفة (يخل علم اللغويات ضمن هذه المعارف، لكن هذا لا يعنىنا الآن)، بلغ أرسطو درجة من رفعة الشئ خلال العصور الوسطى جعلت من أى قرار يقوم بإصداره محل قبول لدى الجميع، ويئون أية مناقشات، كانت مساهماته فى علم الأحياء من أروع ما توصل إليه حيث كان ملاحظاً بارعاً فى هذا المجال، بالرغم من ذلك فقد وجدناه يؤكد فى إحدى مؤلفاته أن النساء يملكن عدداً من الأسنان أقل من الرجال.

إننا متأكدون تماما - بالرغم من أننا لم نجر دراسات كافية في هذا الشأن - من أن عدد الأسنان عند النساء مساوي تماما عددها عند الرجال، أي واحد وثلاثون سنًا وعيك، التحقق من ذلك إذا قممت بفحص أسنان بعض الناس، إذن كيف لنا أن نحاج هذا المناقضى بين ما أكده أرسطو وما توصلنا إليه عن طريق ملاحظتنا ؟ يمكن حل هذا التناقض بأحد الافتراضين الآتيين :

١ - خطأ ما أكده أرسطو . فربما يكون اكتشافه هذا غير رافع، بل من المؤكد أن يكون خاطئًا تمامًا

٢ - خطأ ما ألفناه من حقائق : أي أن أسنان النساء لا تنمو بالطريقة الصحيحة ويجب حثها على جعلها تنمو بالطريقة المناسبة

ما رد فعلك تجاه هذين الافتراضين ؟ تبعًا لذلك شخص طبيعى للغاية مستجد الافتراض الأول هو وحده المقبول في حين أن الثاني جدون فحسب

دعونا نسأل نفس السؤال في معنى مختلف تماما عما سبق ذكره، خص المورخ الأمريكي الشهير 'كراس برينتون' هي إحدى دراساته عن الثورات إلى أن كل ثورة تتم بطريقة واحدة وينفس ترتيب أحداثها . لتأخذ ثورة نيكاراغوا التي قامت عام ١٩٧٩ كمثال، افترض - من أجل إتمام المناقشة - أننا قمنا بدراستها فوجدنا أن أحداثها لم تسر وفق ما توصل إليه 'برينتون' أي افترض حدوث أشياء بها ذات ترتيب مختلف عن غيرها من الثورات الأخرى إذا ما توصلت إلى هذه النتائج، ماذا ستكون إجابتك ؟

١ - خطأ ما توصل إليه 'برينتون' - أي أن عمله غير رافع، أو لنقل خاطئ تمامًا

٢ - خطأ الحقائق التي ألفناها . أي أن سكان نيكاراغوا لم يقوموا بثورتهم هذه بالطريقة الصحيحة، لذلك لنا أن نعلن عدم صلاحيتها وبحثهم على القيام بها مرة أخرى بالطريقة الصحيحة، ما رد فعلك هذه المرة ؟ إننا وانقون هذه المرة أيضا أنك مستختر الاستنتاج الأول كنسب استنتاج

نرى لماذا سأل هذه الأسئلة غير المجبية ؟ دعونا نعرض مثالًا آخر، هناك تكويش في اللغة الإنجليزية يسمى بالمصدر المشطر (تخضع اسمية التقليدية هذه إلى حد كبير)، من أمثله ما يلي "I want to gradually save enough money to buy a car"

(.سى هى حاجة إلى توفير نفود كافية حتى أممكن من شراء سيارة) ، "She decided to never touch another cigarette" (لقد قررت ألا تقرب السجائر على الإطلاق)، سادل كل من النحويين ومعلمي اللغة الإنجليزية الاتهامات حول المصدر المشطر على مدى مسنى عام، واعتبروه شكلا غير نحوى ولا يمت للإنجليزية بصلة، لكن بالرغم من ذلك فإب ملاحظ احتواء كلام كل متحدثي الإنجليزية على هذا التكوين فهم يستخدمونه وبصورة تلقائية . إنه ملحق أساسى من ملامح اللغة فى جميع أنحاء العالم، يتكرر فى مثالنا هذا التناقض بين ما نادى به المتخصصون وما جرت عليه العادة، ماذا ترى ؟

١ - خطأ ما نادى به المتخصصون . أى أن عمل النحويين غير واف بالعرض أو أنه خطأ إلى درجة كبيرة

٢ - خطأ الحقائق المتعارف عليها . أى أن متحدثي اللغة الإنجليزية لا يطلقون تلك اللغة بالطريقة السليمة والواجب علينا توجيههم نحو الاستخدام الأمثل لها

ما شعورك هذه المرة ؟ لا يمكننا الإجابة بدلا منك هذه المرة، كل ما نستطيع قوله هو أن عددا كبيرا من حملة لواء العلم من متحدثي اللغة الإنجليزية أثروا الاستنتاج الثانى . إنهم مقرون بخطأ العقائق ويحاولون قدر الإمكان تجنب نطق أى مصدر منشطر، من أمثلة ما يقولونه "I want gradually to save enough money to buy a car" (إننى فى حاجة إلى توفير النفود الكافية من أجل شراء سيارة)

يبدو أن رد الفعل تجاه هذا الأمر مدهش، فالذين يقبلون الاستنتاج الثانى يقرون بصحة ما توصل إليه النحويون فقط لأنه تم تدعيمه بقوال أناس نوى ثقل، كما دعمه ظهوره فى كل الكتب، وهم يرون وحسب تفسير الحقائق حتى تتناسب مع وصف النحويين.

كيف يستقيم ذلك ؟ لو أخبرك الميكانيكى أن "سير المروحة" سليم بينما تراه أنت غير ذلك فبذلك ستبحث عن ميكانيكى جديد، كذلك إذا أكد أحد البائعين أن كلا من الجوشة القصيرة القرمزية والبلوزة البرتقالية يصلح ارتداؤهما وقت الذهاب للالتحاق بوظيفة فى بنك، فإنك ستتركين المحل وتبحثين عن غيره، كما أنك ستبحث عن وكيل آخر للعقارات إذا أخبرك أحدهم أن المنزل الكائن فوق حافة الصخور المنقطة فرصة للشراء فى حين أنك شاهدت المنزل المجاور له متساقطا، إذا أقر لك أكثر الخبراء شهرة

بصحة شيء ما في شتى جوانب النشاط الإنساني - مراه أنت خطأ فندحا هات
مستجاهله ويتحدث عن شخص أرجح عقلا نتحدث إليه.

لكن يبدو أن اللغة مسبوقة من ذلك، إننا عندما نقضى إلى أمر اللغة نجد أن
الاستنتاجات غير المعقولة في كل جوانب النشاط الإنساني تكون مقبولة عند معظم
الناس ومنطقية بل تكون الإجابة الوحيدة الممكنة - يسعد أمثال هؤلاء الناس هذه المرة
وهم يتعفون على خطأ الحقائق ولزوم تغييرها، وتسمى هذه الرؤية الفريية الواسعة
الانتشار بالمعيارية، إنها اعتقاد بئنا لا نقوى على اعتبار اللغة أمر يمكن تناوله
بطبيعتة، بل يجب علينا تغييرها لتتناسب مع القوانين الموضوعية من قبل مجموعة من
الخبراء المستقلين، بغض النظر عما إذا كانت هذه القواعد خاطئة أو غير مقبولة

لم تقتصر هجمات النحاة المعياريين على المصدر المنشطر، فقد رفضوا أيضا
استخدام الشكل "It's me" (إنه أنا) ورشحوا الشكل "It's I" بدلا منه، ولكن كل منا
يقول "It's me"، هل فكرت في إحدى المرات التي نظرت فيها إلى صورتك الفوتوغرافية
أن تقول "Good heavens! Is that really I?" (يا إلهي، هل هذا أنا؟)، لقد شاع
استخدام الشكل "It's me" باللغة الإنجليزية لقرون عدة كان فيها الشكل "It's I" اخترع
غريب من صنع النحاة المعياريين الذين أحسرونا أن الشكل "It's I" أكثر منطقية من
الشكل "It's me" - بغض النظر عما يعنيه هذا الشكل - وأنه من الخطأ استخدام
الشكل "It's me" الذي ألفنا عليه لم يعبا الكثيرون ما قاله المعياريون، ولكن قلة قليلة
اتبعت أراءهم فكان من ضمن كلامهم "The person you're looking for is I" (أنا ذلك
الشخص الذي تبحث عنه)، كما واصل حملة الهجوم ضد الشكل "It's me" الصحفي
صاحب عمود في أحد الصحف والذي تخصص في الكتابة عن استخدامات اللغة
الإنجليزية فرفض العبارة القديمة "Woe is me" (المرن أنا) وحث قراءه أن يصوبوا
تلك العبارة "الهمجية" لتصبح "Woe is I"، ولكنه تراجع عن موقفه هذا بعد مرور
أسبوعين عندما أخبرته جماعة من قرائه نوى الخلفية الثقافية أن العبارة "Woe is me"
استخدمت منذ آلاف السنين وهي تعني "Woe is to me" (أنا المقصود بالحزن)، (قرن
تلك العبارة بالعبارة الألمانية "Weh ist mir")، بالرغم من ذلك، لم تعبأ المعيارية بالحقائق
كثيرا، وأصبحت بالأهواء الشخصية والآراء التي تصدرها الحكومات.

نطرق هجوم المعياريين إلى أشكال مثل "Who did you see?" (من الذي تراه) حيث طالبوا استخدام الشكل "Whom did you see?" بدلاً منه، وحينهم في ذلك أن هذا الشكل الأخير تم استخدامه منذ خمسمائة عام، وهي حجة واهية، هل هناك حاجة ملحة لإحياء هذا الشكل وانتشاله من بين ركام من آلاف الأشكال التي انقرضت لحد أن جماعة قليلة العدد من المتعصبين أراونا ذلك، منذ خمسمائة عام كان الناس يقولون "He is yclept John" بدلاً من "He is called John" (إنه يدعى جون)، فلماذا لم يبعث هذه الشكل من جديد أيضاً؟

كذلك رفض المعياريون إنهاء الجمل بحروف الجر، فبدلاً من استخدام العبارة "Who are you staying with" (مع من تسكن) يجب استخدام "With whom are you staying". لماذا؟ ليس من سبب محدد، كل ما في الأمر أنهم لا يفضلون وضع حروف الجر بنهاية الجمل، لاحظ أن حروف الجر جزء من النحو الإنجليزي بالغ الأهمية ولا يمكن الاستغناء عنه، إن الطفل الصغير الذي يقول لأبيه "Daddy, what did you bring that book I didn't want to be read to out of up for" (لماذا أحضرت هذا الكتاب يا أبي لا أريد أن يقرأ لي أحد) يتكلم لغة إنجليزية صحيحة، وإن يتمكن أي شخص من إعادة ترتيب جملة تلك لكي يتقدم حرف الجر بدلاً من أن ينتهي في نهاية الجملة، أجاب "ويستون تشرشل" على شخص ما انتقد وضعه لحروف الجر بنهاية الجمل - برد لا يفسر من حكمة - قائلا "This is an outrage up with which I shall not put" (هذا عتاء أن نقوى على احتماله).

يمكننا الاستمرار في ذكر الأشكال التي هاجمها المعياريون إلى ما لا نهاية، ونتيجة لهجماتهم تلك اعتقد متحدثو الإنجليزية وجود خطأ بلغتهم حيث أنها لا تتوافق مع الكتب التي تصف تلك اللغة، ترى لماذا يمتنعون ذلك؟ إننا نعتقد أن استخدام اللغة معكوم باعتبارات أخلاقية عند العديد من الناس.

يتضح مما تقدم أن محاياة المعياريين للشكل "It's" ورفضهم لاستخدام كل من المصدر المنشطر وحروف الجر بنهاية الجمل ليست قواعد نحوية على الإطلاق، بل إنها مجرد آراء شخصية حول الاستخدام الأمثل للغة، كذلك القواعد التي يبيعها قائلو لسيارات والتي ذكرناها بالفصل الثاني من الكتاب، يمكن للأراء الشخصية أن تكون راء صائبة ولكنها قد تكون خاطئة أيضاً، إن الآراء الأربع التي نادى بها المعياريون

حاصلة بالفعل، إنها فتاج للأهواء الشخصية والجهل وليس للملاحظة أو الرعشة من إصفاء الوضوح أو اللباقة على الكلام، أي إتنا في غنى عن هذه الآراء، ولكن بعض الناس لا يمكنهم الاستعناء عنها لأنها ارتقت عندهم إلى مكانة الصلوة الأخلاقية، يسا تنعاصي عن الآراء التي تقال لنا بشأن ملابسنا، ولكننا عندما نأتي إلى أمر اللغة نكون شعوبين لتقبل أي آراء يقض النظر عما إذا كانت مناقية للعقل أو الطبيعة، كذلك لإمبراطور الذي أخيره الناس بإعجابهم الشديد بروعة ملابسهم، خلاصة القول أن البعض يعتقدون بأن الجهل بالآراء التي تقال في شأن اللغة أو رهص تلك الآراء هي إن بلغت درجة من حماقة - أمر غير أخلاقي

إننا على يقين بأن ذلك الأمر الأخلاقي هو السبب وراء محاباة الرأي الخاص باستخدام الشكل "whom" بدلا من "who"، لقد قرر البعض أن استخدام الشكل "whom did you see" مسئولية أخلاقية ينتهجها كل فرد مهذب مستقيم، بينما اعتبر استخدام الشكل "who" انحياز أخلاقي يتساوى بالتعامل مع الحال التي تروج البضائع الضارة أو حتى مع القهوب الضريبية، قد تعد هذه الحاتمة مفاجئة لك ولكنه لتفسير الأمثل لما سبق

ماذا يحدث للغتنا؟

رأينا بالفصل الخامس أن حدوث التغير ملمح ثابت لا يمكن تجنبه في كل اللغات، فعلى مدى حياة أي شخص تكتسب اللغة عددا من الكلمات الجديدة والهجمات والأشكال النحوية وتفقد كذلك عددا من الأشكال القديمة، لا يسعد كل الأشخاص بهذا الصنيع، انظر إلى الجمل القليلة التالية

(8-1) Fortunately, I have a spare fan belt.

(٨-١) لمسن الحظ أن هندي إطارا احتياطيا

(8-2) Frankly, you ought to stop seeing Bill.

(٨-٢) أقولها لك بصراحة، ينبغي أن تتوقف عن رؤية بل،

(8-3) Mercifully, the ceasefire appears to be holding.

(٨-٣) إن وقف إطلاق النار أمر يدعو للتفؤل.

(8-4) Undoubtedly, she has something up her sleeve.

(٤-٨) مما لا شك فيه أنها تخفى شيئاً ما

(8-5) Hopefully, we'll be there in time for lunch.

(٥-٨) نأمل أن نصل في موعد الغداء.

(8-6) Honestly, you have no taste in clothes.

(٦-٨) بأمانة، ذوقك في اختيار ملابسك غير موفق.

هل هناك شيء ما أصابك بالدهشة في تلك الجمل ؟ أم أنها جمل عادية ؟ إن هذه الجمل عادية لدرجة كبيرة بالنسبة لمعظم الناس، ولكن في الحقيقة نقول أن خمسة منها جملاً طبيعية للغاية عند كل الناس، بينما جملة واحدة غير ذلك.

تتسبب الجملة (٥-٨) في مشاكل لبعض الناس، فقلة من متحدثي اللغة الإنجليزية لا يرفضون أمثال هذه الجمل فحسب بل يفعلون ذلك وهم يموتون غيظاً.

تمثل كلمة "hopefully" بموقعها هذا مشكلة لهؤلاء الناس، فهم لا يفضلون هذا الموقع ويتذمرون من وجودها به، وقد وصف الأستاذ "فيليب هورد" - الكاتب الشهير - هذه الكلمة في موقعها السابق بأنها "معقولة"، "غامضة"، "مبهمة"، "كريهة"، "رتانة"، "جاهلة"، ويؤكد أن من يقف بها في هذا الموضع يكون أكاديمي أمريكي غير صادق في مهنته، إنه يرفضها في موقعها هذا بكل حال من الأحوال.

لم يكن (فيليب هورد) هو الوحيد الذي تصدى لاستخدام تلك الكلمة في موقعها ذلك، فقد اشتكى العديد من الكتاب الآخرين منها بنفس الدرجة من الامتناع، لكن لماذا تصدى هؤلاء القلة لمثل هذا الاستخدام بينما اعتاده الآخرون ؟

تسمى الكلمات المتنوعة بالفاصلة في الجمل السابقة بالتعبيرات الطرفية، ولكن كل ما في الأمر أن هذه التعبيرات تم استخدامها منذ أجيال عديدة بينما استخدمت "hopefully" كتعبير ظرفي على نطاق واسع منذ عقدين أو ثلاثة، أي أنها مجديده حديث في التاريخ الطويل لتغير اللغة الإنجليزية.

إن الذين يرفضون استخدام "it" يكوّنون من متوسطي أو كبار السن، إنهم أساساً، يستخدموا الإنجليزى لعقود عدة قبل أن يظهر هذا التجديد بها، وعلاوة على ذلك، فهم أساساً نالوا قسماً وافراً من التعليم ويولون اهتماماً خاصاً لاستخدام اللغة، إنهم عالماً محفظون مشاعر وجهتهم للغة، فهم يميلون إلى التصدى للتغيرات التى تحدث فى اللغة الإنجليزى على أنها "قتل" و"فساد"، على العكس من المتحدثين من صغار السن على هذا الاستخدام الجديد واعتبروه طبيعى للحياة.

لم تكن الجلبة التى صنعت حول الصوت "it" اتجاهها جديداً فهناك اعتراضات مشابهة فى كل مرحلة من مراحل التاريخ اللغوى للغة الإنجليزى وكذلك أية لغة أخرى، ما رأيك فى الأمثلة التالية ؟

(8-7) My car is being repaired.

(٧-٨) يتم إصلاح سيارتى

(8-8) My house is being painted.

(٨-٨) يتم طلاء بيتى.

(8-9) This problem is being discussed at today's meeting.

(٩-٨) سيتم مناقشة هذه المشكلة فى اجتماع اليوم

هل من شىء غريب ؟ إنما لا نعتقد ذلك، وليس هناك متحدث للإنجليزى يصف هذه الجمل بأنها غير عادية

لم يظل الأمر كذلك، فصلى القرن الثامن عشر لم يعد لمثل تركيب هذه الجمل وجود بالغة النموذجية، وكان على المتحدث الإنجليزى أن يقول بدلاً منها مثلاً "My car is re-pairing"، "My house is painting"، "This problem is discussing at today's meeting"، لكنّها كانت الأشكال الطبيعية فى القرن الثامن عشر، وعندما بدأ بعض المتحدثين الجدد قول جمل مثل "My house is being painted" لم يقو المحاضرون اللغويون آنذاك على تورية غضبيهم. أخذوا يهاجمون التركيب الجديد بصرارة وقالوا أنه "غير مناسب"، "غير منطقي"، "مثير"، "شاذ"، لكن ذهبت جهودهم أدراج الرياح فقد مات كل هؤلاء المعارضون منذ زمن بعيد ومات معهم الشكل التقليدى

لدى طالما دافعوا عنه باستماتة، ثم أصبح الشكل الجديد "غير المنطقي" و"الشاذ" هو الشكل الوحيد الممكن استخدامه، ولم يتمكن أكثر كتاب اللغة الإنجليزية حرصاً وبراعة من الإملات منه ولو حتى في أحلامهم، والعودة للشكل القديم البائد، قد تتعجب من حق القرن الثامن عشر وتتساءل لماذا كل هذه الجلبة؟ كما سيقراً الجيل القادم لهجمات ضد الصوت "h" في حيرة ويسألون لماذا كل هذه الصجة ؟

أظهر الكتاب الرومانيون عداء مشابها للتغيرات التي كانت تحدث للغة اللاتينية المتحدثة حينئذ منذ ألفي عام، لكن فرعهم بسبب "الفساد" المستمر للغة لم يكن له أي تأثير حيث استمرت اللغة اللاتينية في التغير "الاضمحلال" حتى تطورت إلى اللغات الحديثة المعروفة لنا مثل الإسبانية والفرنسية والإيطالية، بالطبع لا يعتبر متحدثو هذه اللغات لغتهم فاسدة ولكنهم اعتبروها غنية وجميلة ومعبرة، فقد أظهر المحافظون على اللغة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا إعجاباً شديداً بلغاتهم التي نشأوا عليها ولكنهم أبقوا على استخدام بعض الكلمات لأشياء يتفوق بها صغار السن حالياً، تنادى طائفة من المحافظين في كل وقت ومكان بأن اللغة منذ أجيال مضت كانت في أوج ازدهارها بينما تأخذ في الانحطاط سريعاً باستخدام مثل هذه الكلمات "الريثة"، "التفهة"، "الجاهلة" التي تنهافت على أسماعنا هذه الأيام.

التقية اللغوية :

يتلقى نوع بعينه من التغير قدراً من الاهتمام قد يستمر لعقود أو حتى لقرون بعد حدوثه، إنه الاقتراض - كما نكرنا بالفصل الخامس - يتم استخدام عدد قليل جداً من اللغات في عزلة تامة أي أن متحدثي اللغات الأخرى يكونون على اتصال ببعضهم بعضاً ويترتب على هذا الاتصال اقتراض الكلمات من لغة إلى أخرى، كذلك لا يقنع الجميع بحوث مثل هذه الاقتراضات، فقد يعترض المحافظون على وجود المدد الهائل من الكلمات المقترضة بلغتهم ويعتبرونها نوعاً من "التلوث" الذي يشوه "نقاء" اللغة، وهم نساً لذلك ربما يثورون من أجل "تطهير" اللغة وينادون بإحلال الكلمات الأصلية محل الاقتراضات الأجنبية

بالرغم من أن اللغة الإنجليزية تحتل المكانة الأولى بين اللغات المقترضة إلا أنها أصبحت لغة مباحة في العقود الأخيرة، إنها اللغة الأساسية للعلم والتكنولوجيا والعمل ولثقافة العامة لذا فقد نهلت منها لغات مثل الفرنسية والإسبانية والألمانية والإيطالية

وحتى اليابانية بكثرة، ما عليك إلا أن تصفح أى مجلة أوروبية أو يابانية منذ ولة سنجد صفحاتها مليئة بالكلمات الإنجليزية المقترضة، أما نحن فقد تحيرنا محبة إيطالية فوجدنا التالي . فى كل صفحة يوصف شخص بأنه "a rockstar" (نجم الروك)، "a top model" موديل مثالى، "a sex-symbol" رمز للحس، "a top man" (كثير مديرين)، فى أحد الإعلانات عن الحاسيات الآلة نقرأ عن "a hard disk" القرص الصلب و "a mouse" الفأرة و "a floppy" القرص المرن، كذلك يسمى فيلم م بعيلم الرعب "horror" والآخر ذو نهاية سعيدة "a happy end"، أما المعادلات عن الموضة فتحدث عن "look" (المظهر) وأحدث الصيحات، أى أن الصمحات تكون متحمة بكلمات إنجليزية مثل "jogging" (السير الوثيد)، "fan" (نصير)، "gadget" (آلة صغيرة مبتكرة)، "hobby" (هواية)، "t-shirt" (قميص بأكمام قصيرة)، "massage" (تدليك أو مساج)، "parlour" (صاله استقبال)، "zoom" (تكبير أو تصغير)، "pay-tv" (تليفزيون بجهاز تلقى به العملات عند استخدامه)، "show" (عرض)، "home video" (فيديو منزلى)، "mass media" (وسائل إعلام)، "status" (مكانة)، "checkup" (فحص شامل).

إن الولع بالافتراضات من اللغة الإنجليزية أزعج المحافظين اللغويين بفرنسا، لقد كانت اللغة الفرنسية - قبل ازدهار اللغة الإنجليزية فى بداية القرن الحالى - هى اللغة الأولى فى العالم لذا كان من الصعب عليها تقبل الموقف والانصياع لسيادة اللغة الإنجليزية، لهذا بذلت السلطات الفرنسية جهودا مستميتة ومضنية لوقف اقتراض صئات الكلمات الفرنسية من اللغة الإنجليزية، وتم ذلك عن طريق استبدال تلك الاقتراضات بكلمات فرنسية أصلية ومطالبة المواطنين باستخدام هذه الكلمات الفرنسية الحقيقية وليس غيرها، إذن بينما يكون الألمانى والإيطالىون واليابانيون سعداء عند شراء جهاز حاسب آلى "computer" وملحقاته من برامج "software" وقلم ضوئى "light pen" وقرص من "floppy" يكون الفرنسى مضطرا لشراء "ordinateur" و "logiciel" و "a crayon optique" و "a disquette" اقترضت الفرنسية الكلمة الإنجليزية "debug" (يخرج برنامجا تليفزيونيا لأول مرة) على الشكل "débugger" فى أول الأمر ولكن السلطات الفرنسية أمرت أن تكون الكلمة على الشكل "déboguer" والذي مقرب كثيرا من الشكل الذى تلقى عليه الكلمات الفرنسية، يدكروا المثال الأخير بمحاولة البعض لتبديل الكلمة الإنجليزية المقترضة "bulldozer" (بلدوزر) بالكلمة الفرنسية "bouladozer".

لنضع الأمور في نصابها الصحيح نقول أن السلطات اللغوية الفرنسية نجحت إلى حد ما في إقصاء بعض الاقتراضات الإنجليزية خارج لغتهم، ومع ذلك لا زال المتحدثون الفرنسيون يقصون "le weekend" (أجازة نهاية الأسبوع) في "le camping" (لربف)، ويسمعون إلى "un CD" (أسطوانة) أو "un walkman" (جهاز كاسيت)، ويريد بفضولهم الاستماع لموسيقا "le rock" (الروك) أو "le jazz" الجاز أو "le blues" (الأغاني الكئيبة الرجبية الأصل) أو "le heavy metal" (الهيافي ميتال)، إنهم إذا فكروا في قضاء سهرة خارج المنزل قد يذهبون إلى "le pub" (البار) ويتناولون "un scotch" (ويسكي أسكتلندي) أو "un gin" (الجن)^(٨٩) أو "un cocktail" (كوكتيل)، أو يذهبون لمشاهدة "un western" (ميلم غربي)، أو قد يمكنهم بالزل لقراءة "un best seller" (أكثر الكتب رواجاً) أو مشاهدة "le football" (كرة القدم) بالتلفزيون، أثرت دهشتنا تلك الحملة الإعلانية التي شنتها السلطات الفرنسية عندما أقتلها انتشار مرض الإيدز، وفي أحد هذه الإعلانات تظهر سيدة صغيرة السن جميلة تحرج لسانها من فمها، ومكتوب على الصورة تعليق "يسقط الإيدز"، يبدو أن العامية الإنجليزية قد وجدت طريقها باللغة الفرنسية وبخاصة في حديث صغار السن، يسمى العداء تجاه الكلمات المقترضة من لغات أخرى بالتنقية اللغوية، وهو ظاهرة واسعة الانتشار

يمثل الاقتراض بالترجمة أحد الطرق المنبعة في إطار حملة التنقية اللغوية، إنها طريقة جيدة لاقتراض الكلمات الأجنبية، فبدلاً من اقتراض الكلمة بذاتها تقوم اللغة المقترضة بترجمة تلك الكلمة حرفياً لتبدو هذه الترجمة قريبة الشبه بالكلمات الأصلية لتلك اللغة.

اتبع الرومانيون القدامى تلك الطريقة عند اقتراضهم لكلمات من اللغة اليونانية لتي كانت ذات مكانة عظيمة حينئذ، تتكون الكلمة اليونانية "sympathie" - على سبيل المثال - من جرتين: السابقة sym- وتعني (مع) والجذر "pathia" ويعني (معاناة)، قام الرومانيون بترجمة هذه الكلمة باستخدام اللاحقة com- (مع) والجذر "passio" (معاناة) لخصين بهم، لينتج عن تلك الترجمة الاقتراضية الكلمة "compassion"، أما المتحدثون للألمانية فقد ترجموا هذه الكلمة بدورهم باستخدام العناصر الألمانية "mit" (مع) و "leid" (معاناة) لينتج عنها "mitleid" ومعناها (بمناطف) أو (شفقة)، بالمثل تكونت لكلمة اللاتينية "expressio" من "ex" (خارج) و "passio" (ضغط)، وتم اقتراضها للألمانية بالترجمة فأصبحت "Ausdruck"، "aus" (خارج) و "druck" (ضغط)

(٨٩) شراب مُسكر

كانت كل من اللاتينية والألمانية من أكثر اللغات اعتمادا على الاقتراض بالترجمة كبديل للاقتراض المباشر، ولكن قد يسبقهما في ذلك اللغة المجرية، تعد الكلمات اليونانية "thermos" (حرارة) و "metron" (مقياس) مصدرا للكلمة "thermometer" الإنجليزية و "thermometer" الفرنسية و "term?metro" الإسبانية و "thermometer" الألمانية و "thermometr" البولندية و "termometro" الباسكية و "termometre" التركية و "termometr" الروسية و "thermometer" السويدية، وهكذا مامتداد الفترة الأوروبية - فيما عدا اللغة المجرية - فالكلمة بها هي "termér?" وهي اقتراض بالترجمة من نفس اللغة.

فضلت اللغة الإنجليزية الاقتراض عن الاقتراض بالترجمة، فقد اقترشت على الرحب والسعة الكلمات اليونانية "expression" و "compassion" والكلمة اليونانية "sympathy"، لم ينزعج أحد من ذلك الكم الهائل من الاقتراضات، فيما عدا الشاعر "ويليم بارنز" الذي - في القرن التاسع عشر - احتج احتجاجا فريدا قائلا بأن كلمة "omnibus" (أتوبيس حديث) يجب استبدالها بكلمة "folkswain" (كلمة تشبه في تركيبها اسم السيارة الألمانية - Volkswagen فولكسوجن)، لم يعبأ بما نادى به "بارنز" إلا القليل ولكن في عام ١٩٦٦ عرض الكاتب الساخر "بول جينينجز" بمجلة "البانش" نموذجا للغة الإنجليزية إذا حدث واتبعت طريقة اللغة المجرية، فيما يسي فقرة تتحدث عن هزيمة الملك "ويليم" النورماندي في معركة "هاستنجز"

كتبت في الفقرة السابقة "foregoing" عن الذكرى التسعمائة لمعركة "هاستنجز"، مما سببته هذه المعركة العظيمة من تغيير "othering" لمعرفتنا لمدة قرن تال "hundredyear" وحتى يوم القيامة، وكيف كان الغزاة "inganger" مهملين في أمر الحرب، وكيف ظلت لغتنا الإنجليزية بمنحى عن تأثير لغتهم الفرنسية التي استعنت شتقاقاتها "outshoot" من اللغة اللاتينية، لقد كنا نتحدث الإنجليزية منذ العهد الذي اشتغلنا فيه بالزراعة ودرس الأرض وأمور صرف المبادء، في جو ينحير دائم تملأه الأمطار والسحب وتترجات الألوان، كانت الحياة بشكلها هذا معين لا ينضب يثرى "enrich" فنون ذلك العهد، فقد ظهرت مجموعات الكلمات غير المسبوقة "unbettered" المتجانسة "againclanger" الدالة على الأصوات الحقيقية "samenoiselikey" مثل "الريح والماء"، "الفرس والكلب" وغيرها، لقد أمدت لسانا

لإنجليزية كلا من الشعراء "bards" والفلاسفة "deepthunker" والكتاب
"tryplacemen" باستعارات "switchmeangroup" لأفكار "withtaking" معبوية
"unthingsome" ومجرده "overthingsome" لا مثيل لها

كما نرى، مددو بعض الابتكارات التي أتى بها "جيتنجز" غير يسيرة
"samenoiselike"، "againclanger"، "switchmeangroup"، "unthingsome"،
"overthingsome"، "withtaking" (هذه الكلمة لقتراض بالترجمة)، "tryplacemen"

م رد فعك الآن ؟ هل من الممكن أن تكون اللغة الإنجليزية أفضل حالا بدون
الاف الكلمات التي قامت باقتراضها ؟ وهل من الممكن أن تكون أكثر ثراء إذا قلنا
"foregoing" بدلا من "preceding" (السابق)، "yearday" بدلا من "anniversary"،
(ذكرى سنوية)، "othering" بدلا من "changing" (تغير)، "hundredyear" بدلا من
"century" (قرن)، "inganger" بدلا من "invader" (غزاة)، "outshood" بدلا من
"derivation" (اشتقاق)، "enmulch" بدلا من "enrich" (يثرى)، "unbettered" بدلا
من "unsurpassed" (غير مسبوق)، "deepthinker" بدلا من "philosopher"
(فيلسوف) ؟ على أي حال، إننا لن نسير على نهج متحدثي الفرنسية في تنقيتها لغة
من جميع الاقتراضات التي دخلتها.

أخيرا نود القول بأن "جيتنجز" قد أخطأ قليلا عندما جاء بالكلمات "noise"
و "age" و "piece" والتي هي اقتراضات من اللغة الفرنسية وإن كانت متخفية بعض
الشيء بعكس الكلمة "bard" المقترضة من اللغة الأيرلندية أو الويلزية، إنه من الميسر
كتابة جملة إنجليزية دون استخدام الاقتراضات، وهذا يجعلنا نستنتج أن التنقية
اللغوية ليست ذات أهمية عند متحدثي الإنجليزية

الطريقة المثلى للحديث:

دبرا ما يتواجد الشكل "doesn't" في الكلام العامي للمنطقة القروية بنيويورك
وهي المنطقة التي نشأ بها الكاتب، فهناك يقول كل فرد "I don't matter" (لا أعبأ)
و "He don't matter" (لا يعبأ)، وهي أشكال مألوفة بكل تأكيد مهما اختلف مكان
مشارتك

يسرد كاتبنا خبرة شخصية مفادها أن السيدة "بريك" معلمة اللغة الإنجليزية اعترضت بشدة على استخدام الشكل السابق وشتت عليه حريا ضارية، به يتذكر جيدا يوم أن كان جالسا بالقصل وكانت السيدة "بريك" في أوج غضبها، وعند سماعها لواحد من الطلاب يدعى "نورمان" يقول "He don't know that" (إنه لا يعرف ذلك) انفجرت قائلة "he doesn't know that, Norman"، أجاب نورمان "نعم، هذا صحيح ولكنه كرر استخدام الشكل "don't" ثانية، وكذلك كررت السيدة "بريك" "ليس don't" وتحول لون وجهها وهي تقول له "He doesn't know"، وتمكنت "نورمان" الحيرة وهو يقول لكنها لا تبدو صحيحة^١.

يلخص المرقف السابق بنقطة شديدة التناقض بين جانب بعينه من أشكال اللغة والذي نطلق عليه الإنجليزية النموذجية، وكافة التنوعات الأخرى والتي من الممكن تسميتها جمعا بالإنجليزية غير النموذجية، يتولى معلمو اللغة الإنجليزية مسئولية غرس الشكل النموذجي للغة في أذهان الطلاب والذين يفظون كثيرا عن هذا الجانب، فالغالبية العظمى من متحدثي الإنجليزية ينشأون على تعلم الشكل العامي من اللغة والذي يختلف كثيرا عن الشكل النموذجي، إذن لماذا يحدث ذلك؟

تكون إجابة هذا السؤال واضحة لعديد من الناس وهي ما اللغة الإنجليزية، لا لغة نموذجية، إن اللغة النموذجية لغة سليمة من الناحية النحوية ومنطقية ومعبرة، في حين تكون اللغة غير النموذجية غير سليمة محويا وغير منطقية، إنها لا تتبع أي قواعد، يرجع استخدام الناس للغة غير النموذجية إلى تقصير من جانبهم، إنهم غير مستعدين للتحدث بطريقة سليمة.

يمثل متحدثو الإنجليزية النموذجية قلة لأن أغلب من يتحدث تلك اللغة يستخدم بصفة منتظمة أشكالا واسعة الانتشار مثل "I ain't got none" (لم أحصل على شيء) "I seen him yesterday, but I ain't seen him today" (رأيتُه بالأمس ولكني لم أراه اليوم)، "Me and him was here" (كلانا كان هنا)، كذلك يستخدم هؤلاء المتحدثون أشكالا مطبوعة تبعا للمكان الذي يعيشون به مثل العبارة "Ye divvent knaa, div ye" وتعني بلغة شمال شرق إنجلترا (إنك لا تعرف، أليس كذلك)، وكذلك العبارة "I done"

"shot me a squirrel" التي تعنى فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية (لقد أصبت سنجاباً)، قد تكون مثل هذه الأشكال محيرة أو غير متوقعة بالنسبة لمحدثى اللغة الإنجليزية النموذجية، ولكن هل هناك سبب يحثنا على اعتبارها غير منطقية أو غير صحيحة من الناحية النحوية ؟

بالتأكيد لا يوجد أى سبب، تذكر الصديق "نورمان" الذى قال (ومن المحتمل أنه مارال يقول) "He don't" لأن هذا الشكل يستخدمه كل المحيطين به وقد سمعه وتعلمه منذ نعومة أظفاره، إن رد فعله تجاه ما قالتها السيدة "بريك" بشأن استخدام الشكل "doesn't" سليم جداً، لقد رفضه لأنه لا يعد صحيحاً نحويًا من وجهة التنوع الذى نشأ عليه، فهو من وجهة نظره شكل غريب ولا تحوى مثل الشكل "he divvent" المستخدم فى نيويوركاسيل، لم يكن "نورمان" مقصراً فى استخدام اللغة، كما لم يكن متكاسلاً عن استخدام الطريقة الصحيحة للكلام، لقد تعلم التنوع المحلى للإنجليزية على أكمل وجه، وكأى متحدث أصلى لأية لغة عرف جيداً القواعد التى يستخدمها كمعرف السليم منها وغير السليم نحويًا، تشتمل اللغة الإنجليزية التى يستخدمها "نورمان" على العديد من القواعد النحوية كئى تنوع إنجليزى آخر، كل ما فى الأمر أن هذا التنوع لم يحظ بامتياز كونه تنوعاً نموذجياً.

كما أنه ليس من الممكن اعتبار الشكل "he don't" أقل منطقية من الشكل "doesn't"، كذلك فإن الشكل "he don't" لا يعد أكثر منطقية من الشكل الشاذ "he won't" الذى يعد شكلاً نموذجياً آخر، لم يحدث أن اتهم أحد مستخدمى الشكل لنموذجى الشكل "he won't" بأنه غير منطقي وأصر على استخدام شكل أكثر منطقية مثل "he willn't" كانت الأحداث التاريخية من الحكم الأول فى اختيار الأشكال النموذجية، فكان للشكل "he won't" السبق كشكل نموذجى، بينما كان الشكل "he don't" أقل حظاً حيث لم يتم اختياره، قد يبدو حديثنا هذا مدهشاً قليلاً حيث أن عدد الذين يقولون "he don't" أكثر من هؤلاء الذين يقولون "he doesn't".

إن وصف صيغة الفعل ما بأنها منطقية أو غير منطقية لا معنى له، فمناقشة موضوع ما قد تكون منطقية أو غير منطقية، وكذلك بنية معال ما، أما الحكم على الشكل "doesn't" بأنه أكثر منطقية من غيره لا معنى له على الإطلاق، فليس من علافة ربط بين الإنجليزية النموذجية والمنطق، إذن ما الذى يتميز به الشكل "does" عن غيره ؟

لا شيء سوى المكانة التي اكتسبها من اتفاق جماعة من المثقفين على اعتبار أشكالها بعينها نموذجية وما عداها غير نمونجي، كيف تحقق هذا الاتفاق ؟

عندما استوطن الأنجلوساكسون إنجلترا منذ ١٥٠٠ عام كانوا يتحدثون لغة إنجليزية منشعبة إلى العديد من التنوعات الإقليمية، وتوضح النصوص المكتوبة للإنجليزية القديمة هذا التنوع على نحو نابض بالحياة، أنتجت عمليات التعبير اللغوي كالعادة وبمرور الوقت تنوعات إقليمية متزايدة، وقد استمرت هذه العمليات إلى وقتنا الحاضر لدرجة أننا شهدنا تباينا كبيرا فيما بين الإنجليزية المستخدمة في الأماكن المختلفة، تتجلى هذه الاختلافات في كل منحنى من مناحي اللغة، سنتخذ من هذه المناحي مثلا واحدا يتحدث عن أشكال الفعل.

لاحظ الفعل "be" (فعل الكينونة) الذي اندمجت أشكاله - في مرحلة مبكرة من التاريخ الإنجليزي القديم - بأشكال لعلين آخرين يتشابهان معه في المعنى، وتنتج عن ذلك - بالإنجليزية النموذجية - الأشكال الشاذة مثل "I am, you are, he is, I was, you were, I have been" (أكون، تكون، يكون، كنت، كان)، اختار كل تنوع لفظ هذا النزاع بطريقته الخاصة والتي تختلف دائما عن الاتفاقات النموذجية، فنجد أن ساكني مقاطعة (سومرست) "Somerset" اتفقوا على الأشكال التالية "I be, thou art, he be, we be, you be, they be" (أكون، نكون، يكون، يكون، يكون، يكون)، بينما تم تعميم الشكل "is" في أجزاء كثيرة من شمالي إنجلترا على النحو التالي "I is, he is, we is, you is, they is" في حين حمت بعض التنوعات الغربية الشكل "am" كما يلي "I am, you am, he am, we am, they am" استقرت مناطق أخرى على أشكال مختلفة حيث اختارت إنجلترا الأشكال "I am, I is, I are, I be, I bin". ينطبق الأمر ذاته على الصيغة الماضية للفعل الكينونة، فممت بعض التنوعات الشكل "I was" "was, you was, we was" بينما عمم البعض الآخر الشكل "I were, you were, he were" والآن لم تعد بعض الأشكال أكثر منطقية من غيرها، كل ما في الأمر أن هناك أشكالا أصبحت أكثر اعتيادية من غيرها ولكن لم يحالفها الحظ حتى تصبح إحدى الأشكال الإنجليزية النموذجية، ومن أمثلة تلك الأشكال "I seen her" (رأيتها)، "I done it" (فعلتها)، "I drew a picture" (رسمت لوحة)، "I writ a letter" (كتب خطابا)، "I've took a picture" (التقطت صورة)

لا تتوحد الإنجليزية النموذجية في جميع المناطق، ففي الإنجليزية الأمريكية يقولون "I've just got a letter yesterday" (تسلمت خطاباً بالأمس)، بينما يقولون في إنجلترا "I've just gotten a letter" (تسلمت خطاباً لنوى)، بينما اعتبر كلا الشكلين نموذجيين، تم استبدال الشكل الثاني بأخر نموذجي وهو "I've just got a letter" = "I've just received a letter" (تسلمت رسالة لنوى) من ناحية أخرى تتفق النموذجية البريطانية مع النموذجية الأمريكية في الشكل "I've forgotten her name" (لقد نسيت اسمها)، برغم انتشار الشكل "I've forgot her name" إلا أنه غير مقبول في الوقت الحالي كشكل نموذجي، ولكن ربما يعتبر كذلك في يوم من الأيام

كيف يتم الاختيار ؟ من وما الذي يحدد الأشكال التي ستصبح نموذجية وغيرها من التي تتدنّى في المنزل فلا يمكن اعتبارها نموذجية ؟ على الأغلب أن ذلك حدث ببعض الصدفة، فقد حدث في فترات مبكرة من التاريخ الحديث (القرن الخامس عشر والسادس عشر)، فنظروا لاستفعال الاختلافات الإقليمية بين متحدتي الإنجليزية، الأمر الذي خلق صعوبة في التواصل ما بين ساكني الجهات المختلفة من إنجلترا، وكذلك نظروا لزيادة حركة السفر والتنقل والتجارة وازدهار التعليم، كان من الضروري لتوصل إلى حل ما، لم تتبع اللغة الإنجليزية طريقة اللغة الفرنسية في إنشاء أكاديمية لغوية تضع القواعد الخاصة باللغة وتعرضها على المتحدثين، فبدلاً من ذلك تم حل المشكلة بالطرق السياسية، حيث أصبحت العاصمة لندن وما حولها من مقاطعات أهم مناطق البلاد سياسياً (حيث تواجدت تلك المناطق المعركة، وهي محور النظام القضائي والإداري)، واقتصادياً (حيث كانت مركزاً للتجارة والنظم البنكية)، وثقافياً (حيث اقترنت من الجامعات العريقة كأكسفورد وكامبريدج)

كان هذا هو الحل، حيث اعتبرت التنوعات الإنجليزية المستخدمة في لندن وما حولها أكثر أنواع التنوعات اللغوية قبولا وأعظمها مكانة، تبعاً لذلك وفد الرجال والنساء من أصعاب الطموح إلى لندن لإيجاد فرصة في عيش أفضل، وما كان عليهم إلا أن يوفقوا كلامهم مع الأشكال التي سمعوها هناك، نتيجة لهذا اعتبرت الكلمات والأشكال المستخدمة في المناطق المحيطة بلندن - تدريجياً - هي الرؤية النموذجية للغة الإنجليزية بصرف النظر عما إذا كان الإقبال على استخدامها غير كبير في مدطق

أخرى، وعلى الجانب الآخر لم ترق الأشكال التي تم استخدامها في تلك المناطق إلى درجة النموذجية، وحتى إن كانت واسعة الاستخدام في تلك المناطق الأخرى

من الأهمية بمكان إدراك أن أشكال الإنجليزية النموذجية ما هي إلا نتائج للأحداث التاريخية، فلو كان تحققت لبعض مناطق أخرى من إنجلترا - السيادة لكان من المحتمل أن تصبح أشكالا مثل "he don't" و "they was" نموذجية ولندل معمو اللغة الإنجليزية المتشددون قصارى جهدهم لحرق الأشكال "الجاهلة" و"السادجة" مثل "he doesn't" و "they were".

لا تظل الأشكال النموذجية بمعزل عن التغيير، فعند عدة قرون تواجد لشكل "I caught a cold" (أصابتنى الأنفلونزا) وجاء الشكل الجديد الجاهل "caught" (يبدو أنه جاء على نهج الفعل taught تعلم) ليحل محل الشكل الأول الذي يعتبر الآن جاهلا حديثا تم استدال الشكل الأمريكي "I dived into the water" (غطست في الماء) بالشكل "I dove into the water" عند كثير من الناس بما فيهم مؤلف كتابنا، وبذلك أصبح الفعل "dive, dove" يصرف على غرار الفعل "drive, drove" (يقود).

إذن كيف يتسنى لنا معرفة الرؤية النموذجية للغة الإنجليزية ؟ قبل أي شيء نود القول أن الإنجليزية النموذجية شكل ملائم، فالمتحدثون من "جلاسكو" و"نيوكاسيل" و"نيو أورلينز" و"كاب تاون" يمانون من مشكلة صعوبة فهم بعضهم بعضا إذا تمسكوا باستخدام تنوعاتهم المحلية كل فيما يخصه. أما إذا اتفقت هذه الأطراف على شكل نموذجي واحد يتعلمه كل المتحدثين في كل مكان لكان من السهل عليهم حل مشكلة صعوبة الفهم هذه.

لا يوجد تنوع بعينه أفضل أو أسوأ من غيره، كل ما يعتد به هو مدى طواعية هذا التنوع وكونه مرضيا إذا تم اختياره كنموذج، يتم اختيار تنوع للإنجليزية وفق سلسلة من الأحداث التاريخية ليصبح بعد ذلك نموذجا يفي بالأغراض التي اختير من أجلها. أي يكون هذا التنوع ملائما لكل متحدثي اللغة، فبغض النظر عن طريقة الكلام التي نستخدمها للحديث إلى أخواتنا أو أمهاتنا فإننا في تأليف كتاب ما نستخدم الإنجليزية النموذجية التي تعلمناها بغض النظر أيضا عن مكان نشأتنا ومن هنا يكون من السهل فهم ما قلنا بكتابته

لقد أصبحت الإنجليزية النموذجية - في عالم مثل عالمنا - أكثر من ملائمة، أصبحت ضرورة، فلن يقوى أى متحدث للإنجليزية على العيش فى ذلك العالم المتسع إذ لم يمكن من إجادته إحدى اللهجات النموذجية (ما الإنجليزية النموذجية سوى لهجة ضمن العديد من اللهجات)، إننا نتعامل على مدار حياتنا مع العديد من منحدثى لإنجليزية من شتى أنحاء العالم، لذا يجب علينا أن نستخدم تلك اللهجة النموذجية الاستخدام الأمثل، ومن يعجز عن ذلك يكون قد خسر خسرانا مبيدا، فقد يكتب عليه إم عملا مهينا زهيد الأجر أو بطالة طويلة المدى، إن السيدة "بريك" التى سبق الحديث عنها قد علمت تمام العلم أن "نورمان" لن يتمكن من الارتقاء فى حياته المستقبلية إذا أصر على استخدام ذلك الشكل غير النموذجى من اللغة

لا تتوفر اللغة الإنجليزية بأمر النموذجية هذا وحدها، فقد يتراعى لنا هذا الأمر فى جهات أخرى من العالم، لنأخذ اللغة الألمانية كمثال، تختلف اللهجات الإقليمية لعدة، الألمانية لدرجة كبيرة، حتى أن المتحدثين من "برلين" و"بون" لا يتسنى لهم فهم بعضهم بعضا إذا ما استخدموا لهجاتهم العامية، تبعا لذلك، يستخدم متحدثو الألمانية تنوعاتهم المحلية عند الحديث مع أشخاص يشاركونهم تلك التنوعات، بينما يستخدمون الألمانية النموذجية عند الحديث مع الأشخاص الآخرين . أى أن متحدثى الألمانية ثنائيو اللهجة، إنهم لا يعتبرون أى لهجة من تلك اللهجات "جاهلة" أو "غير مهذبة"، بل يتعاملون معها باعتبارها ذات وظيفة مغايرة لتلك التى تقوم بها الألمانية النموذجية

لا بد أنك لمست أن اتجاه البلاد المتحدة للإمجليزية نحو التنوعات غير النموذجية يختلف تماما عن ذلك الخاص بالبلدان المتحدة للألمانية، لقد ألصقت بالتنوعات الإنجليزية أشنع الاتهامات وهذا اتجاه مخزى للغاية، إن الرعبه فى جعل كل فرد بالمجتمع يتحدث صورة نموذجية للغة أمر ليس بسيى، ولكن السفرية من التنوعات غير النموذجية واتهام من يستخدمونها بالتقصير أو الجهل هو الأمر السيى بحق

يبقى لنا نقطة واحدة فى موضوعنا هذا وهى احتمالية عدم اقتناعك بكل ما عرضناه فى الفصل الذى بين أيدينا الآن، ربما تكون قد أصبحت بارتكاع فى درجة حرارتك عند كل مرة تقرأ فيها ذلك الفصل وربما تكون أيضا من أولئك الذين يرون أن الضرورة الأخلاقية تحتم قول العبارة "Whom did you see" أو هؤلاء الذين يجتنون استخدام المبسط، إننا نختلف مع أمثال هؤلاء الأفراد سالفى الذكر ولذا أسمايت فى

ذلك، لذا يجب ألا متهمنا بأننا نزع من كل أشكال اللغة الإنجليزية جيدة ومقبولة، ليس الأمر كذلك والدليل أننا جميعاً نعرف أشكالاً للإنجليزية المتحصنة أو المكتوبة تتميز بأنها مطلوبة ومبهمة ورفانة أو يافها غير دقيقة وغير مهذبة وغير واضحة، إنما معترض على مثل هذه الأشكال وتدعو إلى مجاهدة أنفسنا قدر الإمكان من أجل التحدث والكسبة بلغة إنجليزية واضحة وغنية ومعبرة، يمكننا القول بأن الإنجليزية غير النموذجية يمكنها أن تكون واضحة ومعبرة لدرجة كبيرة، مثلما أمكن للعديد من الأشكال المفضية التي نستخدمها أن تكون أشكالاً نموذجية، ومن أمثلها الوثائق القانونية والرسمية، والنصريحات العلنية التي يصدرها السياسيون ورجال الجيش، إذا كان من شأن كل من استخدام الشكل "whom" واجتباب المصدر المشطر جعل اللغة واضحة ومعبرة لكننا أول من نادينا بأخذ هذا وترك ذلك، إن كلا من المصادر المشطرة وحروف الجر التي تحتل موقعها بنهايات الجمل والظرف "hopefully" أشكال واضحة ومعبرة أكثر من غيرها، وأولئك الذين يرفضون هذه الأشكال - لسبب أو لآخر - إنما يرفضون أشكالاً جيدة ويستبدلوها بنقري طنانة سيئة.

اللغة والهوية : تكرار

علمنا من الفصل الرابع أن طريقة الفرد في التحدث تلعب دوراً حيوياً في تشكيل هويته داخل المجتمع، كذلك تتمثل العلاقة بين اللغة والهوية على نطاق أوسع فيما بين لغات وشعوب عدة، ولكن أهملت أهمية تلك العلاقة مراراً وعلى مدى القرنين السابقين من جراء الأحداث السياسية التي جرت خلال العديد من القرون، دعونا نخصص اثنتين من تلك الحالات باختصار.

فلنبدأ بالنرويجيين، حيث كانت النرويج مقاطعة دانماركية تتحدث اللغة الدانماركية تبعاً لذلك، عرف كل النرويجيين المتعلمين اللغة الدانماركية، كما تقرر كلام النرويجيين الذين سكنوا المنطقة الجنوبية المزدهرة بتلك اللغة إلى حد كبير (بطريق مباشر عبر الدانمارك)، كان تأسر تلك اللغة على القرى البعيدة بالساحل الغربي - على العكس - غير كبير، وعندما دالت النرويج استقلالها عام ١٨١٤ كان الشبه بين النرويجيين الجنوبيين أقرب إلى اللغة الدانماركية من اللهجات القريبة، (على سبيل المثال، كانت النرويجية الجنوبية حسينية بحويين بينما كان النرويجية الغربية ثلاثة أجناس نحوية)

اتفق النرويجيون بعد الاستقلال على أن محل اللغة النرويجية محل اللغة الدانماركية كلمة رسمية البلاد، ولم يكن هذا أمراً غريباً على الإطلاق، لذلك كان على كل مستعمرة اتباع سياسة معاكسة، ولهذا السبب لم يتحول الإنجليز إلى مواطنين دانماركيين، أو بريقتانيين أو روسيين من الدرجة الثانية، إنهم أناس شعب متميز ذي هوية خاصة، إن لغتهم هي الشعار المميز لهويتهم على المستوى العالمي.

لذلك اتفق كل أفراد الشعب النرويجي أن تكون اللغة النرويجية هي لغة الأمة الجديدة، لقد ظهر ذلك وكنت إجماع عام ولكنه لم يكن كذلك، كانت المشكلة تكمن في التساؤل التالي: أى نوع من النرويجية؟ اقترح بعض النرويجيين أن يتحدث كل المتعلقين شكلاً من اللغة النرويجية يشبه اللغة الدانماركية، ولكن اللغة الدانماركية النرويجية حتى يتسنى لهم تقليل حجم التشققات الذي سيحدث من جراء تكوين لغة جديدة، على الجانب الآخر، تبى الآخرون وجهة نظر مختلفة تماماً وهي أن الدانماركية النرويجية نتاج غير نقي للغة النرويجية وهي أكثر صوباً من الدانماركية، لذلك فإن اللغة النرويجية الفعلية هي اللغة المتحدثة بالساحل الغربي والتي لم تتأثر باللغة الدانماركية والتي تعد أنقى أشكال اللغة وهي من أجل ذلك يجب أن تكون لغتهم القومية.

تعتبر وجهة النظر الثانية عما قلناه بشأن التنقية اللغوية كما تعبر عن رغبة عامة من جانب اللغات القومية الحديثة العهد والتي طالما اختلطت بلغات مجاورة أكثر منها قرة وهي الرغبة في "abstand" وهي كلمة ألمانية تعني (البعد اللغوي) فقد حرص المؤيدون لوجهة النظر الثانية على إبعاد لغتهم عن اللغة الدانماركية القريبة الصلة بهم خوفاً من أن يعتبرها الغرباء مجرد لهجة غريبة من لهجات اللغة الدانماركية.

لم تتمكن إحدى وجهتي النظر من الانتصار وكانت النتيجة تأرجع الشعب لنرويجي - الذي يصل تعداداه إلى أربعة ملايين نسمة - ما بين شكلين نموذجيين لغة لنرويجية يتحتم عليه تعلمهما، لقد استمرت هذه الحالة الشاذة حتى يومنا هذا بالرغم من الجهود الشاقة التي تبذلها السلطات من أجل الاتفاق على شكل واحد للغة، تحيل مدى الإهدار في الوقت والمال عندما يضطر كل فرد من أفراد الشعب أن يتعلم كلا الشكلين وأن يصدر التصريحات الحكومية بكلا الشكلين، وهكذا، إن قصة اللغة النرويجية مدكر قوي بمدى عمق المشاعر اللغوية

تخص الحالة الثانية التي نحن بصددتها الآن اللغة الباسكية والتي تم استخدامها منذ آلاف السنين في أقصى غرب "Pyrenees" (بايرنز)، في منطقة تابعة للإمبراطورية الرومانية والتي تم ضمها بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا مروراً بالحدود اليمنى للمنطقة المتحدثة للغة الباسكية، كانت هذه اللغة ذات مكانة لا تنكر في ذلك الحين وفي القرن التاسع عشر والقرن العشرين تم اضطهادها بضراوة من قبل الحكومات المركزية في باريس ومadrid والتي نما عندها الاعتقاد بأن استخدام اللغات الإقليمية أمر غير وطني مخرب، ولقد ساد هذا الاعتقاد بين الحكومات في جميع أنحاء العالم في هذا القرن، بلغ هذا الاضطهاد ذروته من الجانب الإسباني بعد انتصار الفاشية في الحرب الأهلية الإسبانية عندما أعلن "فرانكو" الديكتاتور والجنرال الإسباني عدم قانونية تحدث اللغة الباسكية.

بعد الانفراج التدريجي للقيود التي فرضها فرانكو وبخاصة بعد الإصلاحات الديمقراطية التي تبعت موته، بدأت اللغة الباسكية تواصل طريقها حديثاً نحو نيل حقوق سياسية، انتهى هذا الطريق بمنح معظم الباسكيين الإسبانين الحكم الذاتي (لم يكن الباسكيين الفرنسيين في مثل حظهم)، سار الجهاد من أجل تحسين مكانة اللغة الباسكية جنباً إلى جنب مع الصراع السياسي.

ترك كل من الإهمال والاضطهاد وكذلك اقتصر التعليم والعمل والسياسة والإدارة والنشر والطباعة والمنح الدراسية - اللغة الباسكية في حالة من الضعف، وكان لانتشار وسائل الإعلام أسوأ الأثر، فقد كانت تهديداً جديداً بالغ التأثير، فقد فرقت المنازل الباقية البعيدة بأجهزة الراديو والتلفزيون التي ثبت إنتاجها بلغات أخرى غير الباسكية.

بدأ الباسكيون في تغيير مكانة لغتهم - مثلهم في ذلك مثل النرويجيين والكثيرين من قبلهم - حتى يتسنى لهم إنشاء تنوع لغوي نموذجي في متناولهم، أملين أن تتساوى لغتهم في المكانة مع اللغة الإسبانية، واجه الباسكيون مثل النرويجيين من قبلهم بعض العوائق المثبطة للهمة والتي تبدأ في التساؤل الآن "أي نوع من الباسكية يجب تنشيطه؟".

بالرغم من صغر مساحة بلاد الباسك فإنها تحوي سلسلة جبلية تقسمها إلى وديان ضيقة، وتختلف اللهجات الإقليمية الباسكية عن بعضها بعضاً بدرجة أكبر من

اختلاف اللهجات الإنجليزية بإنجلترا، إذن من الممكن لكل من المفردات والنطق والأشكال النحوية أن تتغير بصورة درامية في كل جزء من البلاد لا تتعدى مساحته الكيلومترات.

تطلب هذا الأمر قدرا من القرارات والحلول الكافية، فقد تاق أغلب الناس رؤية خلق جديد لنموذج لغوي واحد ولكنهم في ذات الوقت لم يرغبوا في ترك الكلمات والأشكال التي ألفوها من أجل أشكال وكلمات يستخدمها آخرون، علاوة على ذلك، كان للباسكيين رأيهم الخاص في التنوعات التي يتحدثها الآخرون، فقد اشتكى الباسكيون الإسبانيون أن اللغة الباسكية الفرنسية تبدو طنانة، بينما اعترض الباسكيون الفرنسيون أن الباسكية الإسبانية تبدو غير مهذبة وجافة، هذا وتمكن اللغويون رفيعو المستوى من أكاديمية اللغة الباسكية من وضع نموذج جديد للغة الباسكية يسمى "Euskara Batua" أو الباسكية الموحدة (يطلق الباسكيون على لغتهم (Euskara)، تقبل الباسكيون النموذج المثالي تدريجيا بحماس تارة وتذمر تارة أخرى حتى أننا نجد المتحدثين من سفار السن يتحدثون ويكتبون لغة "Batua" بجانب لهجتهم المحلية.

لا تسير الأمور عادة سيرا سهلا بلا مشاكل، فقد كانت الحرب التي قامت بشأن صوت "H" واحدة من أغرب الحوادث التي وقعت في التاريخ السياسي للغات الأوروبية ككل والتي أضرت بالبلاد عام ١٩٧٠

يمتلك الباسكيون الفرنسيون الصوت الصامت "H" وينطقونه في مئات من كلماتهم ويكتبونه بهجائهم التقليدي، أي أنهم يكتبون وينطقون كلمات مثل : "hau" (هذا)، "horma" (حائط)، "aho" (فم)، "behar" (يحتاج)، "alaba" (ابنة)، "ethorri" (يأتي)، من الناحية الأخرى نجد أن الباسكيين الإسبانين فقدوا صوت "H" من جميع كلماتهم منذ قرون مضت وقبل العهد الذي بدأت فيه كتابة اللغة الباسكية، فهم يكتبون وينطقون كلمات مثل : "au"، "orma"، "ao"، "bear"، "alaba"، "etorri"، لذا قررت الأكاديمية كتابة الصوت "H" في كل الكلمات (كالكتابة الفرنسية) فيما عدا إذا كان هذا الصوت مسبقا بصامت، ولذلك تحولت الكلمات السابقة عند كتابتها بلغة "Batua" إلى "hau"، "horma"، "aho"، "behar"، "alaba"، "etorri".

هل هذا قرار صائب ؟ يعتقد ذلك العديد من الملاحظين الذين لم يشهدوا الموقف، ولكن هذا القرار أثر بعنف على الباسكية الإسبانية، تسبب الصوت "H" في حدوث تحالف منقطع النظير بين الجناح الأيسر والجناح الأيمن الباسكيين وذلك في وقت الاضطراب السياسى الشديد (أى الفترة التى استخدم فيها فرانكو قبل موته للمرة الأخيرة سياسته المتشددة فى القضاء على تطلعات الباسكيين)، عارض اليساريون بشدة تواجد الصوت "H" فى لغة "Batua" بحجة أن الصوامت غير المنطوقة سوف تجعل اللغة المكتوبة مختلفة تماما عن اللغة التى ينطقها العامة (هم بذلك يهملون حقيقة أن الإسبانية النموذجية يكتب بها لثلاث من أصوات "H" (غير المنطوقة)، بينما عارض الجانب اليميني بشدة أكبر وحجة أوهى ألا وهى أنهم لم يكتبوا صوت "H" من قبل فما الداعى لأن يكتبونه الآن.

لم تسفر أية مناقشة بشأن تطوير لغة "Batua" عن أية نتائج، كان من المتوقع أن يستخدم حزب اليمين معرفتهم - فهم الأكبر سنا والأكثر معرفة باللغة الباسكية - للتأثير الإيجابى على تطوير تلك اللغة ولكنهم بدلا من ذلك شحذوا أذهانهم وقواهم لكتابة المقالات الصحفية والكتيبات، بل إنهم أصدروا كتابا كاملا يعارض لغة "Batua" بعامة والصوت "H" بخاصة، كما أنهم سخروا من اللغة الجديدة وأطلقوا عليها "eus*keranto" تلاعب بالألفاظ لتشبه هذه الكلمة لغة الإسبرانتو وهى لغة صناعية شهيرة)، أما اليساريون بدورهم فقد كانوا أقل معرفة باللغة الباسكية وقد انشغلوا بالمناقشات الساخنة التى صدرت فى الاجتماعات العامة وكتابة النقد اللاذع فى المجلات السرية، استمر عدد من اللغويين وغيرهم من المتخصصين فى عطلهم الجاد من أجل إنتاج الآلاف من الكلمات الجديدة التى تمكن اللغة الباسكية من التطرق إلى موضوعات مثل الفيزياء والاقتصاد والنشر واللغويات، (تسمى هذه العملية بتخطيط اللغة) ولكن كان شغل رجل الشارع الشاغل فى ذلك الوقت هو الحديث عن الصوت "H".

بالطبع تغيرت الظروف فتقدم اليمينيون المعارضون فى السن ثم ماتوا بينما بلغ مؤيدو حزب اليسار العمر فكان مهم الأول البحث عن الوظائف وتربية أطفالهم وليس

مناقشة أمر الصوت "H"، بمرور الوقت أصبح كل فرد يكتب هذا الصوت في مواضع بعينها قررتها الأكاديمية، لا نستطيع تفكر آخر مرة سمعنا فيها أحد الأشخاص يذكر أمر الصوت "H"، إن الحرب التي قامت بسبب ذلك الصوت - رغم اختفائها الآن - دليل على المشاعر المثارة من جراء القضايا اللغوية التافهة، وفي هذا أيضا دليل على مدى اختلاف اللغة عن غيرها من الأشياء.